في هذا العدد

في تأسيس لحظة الحقيقة رئيس التحرير ٤

مسار العصر

القبائل الانسانية الكبرى سعد سلوم ٦

مسار السرد

فضاء الاسئلة الجديدة : قراءة في السرد العربي القديم 18

انتهاك الصمت ناظم عودة ٢٠

مقاربة لنصّ تراثيّ مُلتبس نادية العزاوي24

الجدار حاملا شذرات المدونة صالح زامل ٢٨

نسيج السرد وفضاء التأويل قيس الجنابي 43

غواية المعنى وجمالية الخبر عقيل عبد الحسين 55

مخطط أولي لبيان وظيفة الرؤيا

في كتب التراجم سعيد عبد الهادي61

جمالية المواجهة في شعريّة الرّسالة لؤي حمزة عبّاس 72

مسار الشعر

يدان شاردتان باسم المرعبي 80

[.....] محمد الأمين 82

مسار القصّ

القطار حميد العقابي 84

ملاك الغجر وحيد غانم 86

مسار السرد

الشاعر عبد الكريم كاصد: "حكاية جندي"

كانت أكثر اقتراباً إلى غريزتي الشعرية

حاوره: عباس الجميلي 107

مسار السينما

بازوليني وكروتشه والسينما الشعرية

باتريك كيتينغ ترجمة: نجاح الجبيلي 118

مسار الاخيرة

طموح السيف لا يخشى إلهاً

رشيد الخيُّون ١٦٠

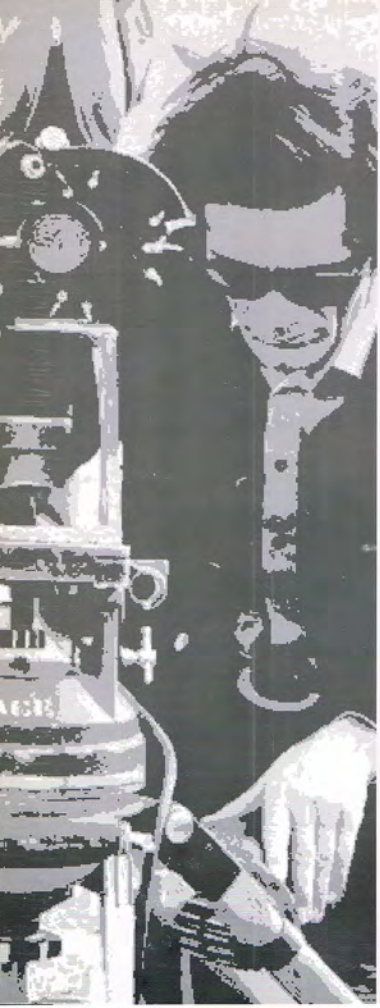

3
العدد
السنة الثانية

■ مسار التشكيل

فنان العدد
هاشم حنون

شكلت مدينتي البصرة
مرجعية مكانية تمثلتها في أعمالي **حاوره وديع شامخ 92**
المخزونات المشخصة لعين الذاكرة: **خالد خضـير97**
مدن هاشم حنون السبع تدوين وقائع متحولات اللوحة
صدام الجميلي١٠١
هاشم حنون جدل الرؤية على المكعب...
هاشم تايه 104

■ كتاب العدد

فريا ستارك
صور بغدادية
ترجمة د.سعد الحسني129

في تأسيس لحظة الحقيقة

رئيس التحرير

ما الذي ينبغي ان نسارع لإنقاذه؟

ألمس يوميا خوفا يرتســـــم في مواجهة الفعالية، من مسؤولية انتاج المعنى وفهم العالم المناطة بالمثقـفين لا كباعة اوهام أو سحرة أو مشـعوذين، انما كمضي الى اخر الحدود، اذ نحفر في زمن الانتباه لتأسيس لحـظة الحقيقة وسط عواصف التشويش الاخباري وضبـاب المعلوماتية، فهل أقول مع دوبـريه اننا نواجه مشـكلة "العثور على طاقة تقبل انتسابنا اليها"

لست متغطرسا لاقـول انني لا اتعايش مع فكرة كوني فائضا عن الحاجة ولن اتقبل ببساطة شكوى انعدام دور الثقافة في بناء عراق ما بعد التغيير مع انني لم اصطدم حتى الان بمثقف يعمل بدوام كامل في متابعة الاحداث ويحس بانه صاحب وظيفة تتسجم ومتطلبات الواقـع وتستسلم لسحر الكلمات أو خداعها.

اشـم في كل حـديث عن صناعة المستقبـل وصياغة المصير رائحة الخوف وقلقا من حـدة ذلك التناقـض المحير بين الاستقـلالية والفعالية: اذا اردت ان تكون فعالا فقدت استقلاليتك واذا كنت مستقلا فقدت فعاليتك.

يزيد من تشويش الرؤية حالة الفوضى التي تطغي على المشهد بأسره وكأنها تسخر الثقافي لخدمة السياسي او تختزله في سـجال لا عقـلاني لا يسـتغرق الزمن الضروري لبناء تحليل منطقـي، لكن اذا كان الخوف ماثلا من غياب المشـروع الوطني عن السياسـي فإن صفة الوطني تلحق بالثقافي بحسب حرص الاخير على ممارسة نقد الواقع والدفاع عن قـضايا الهوية الوطنية والتحول الديمقراطي. الثقـافة يمكن ان تكون ملحقـة بالسـلطة أو معزلة عن العمل السياسـي لكن دورها يتضح بمقدار مسـاهمتها في قـضية اغناء التحـول الديمقـراطي والدفاع عن الحـريات العامة وتعميق الوعي بها وممارسـة دورها النقـدي مما يسـهم في المحصلة النهائية في عملية "بـناء الانسـان"، الهدف الرئيس لصياغة الهوية وبناء مجتمع الدولة .

يدهشني غياب مثل هذا الادراك عن اذهان من يتحدثون عن لحظة المصالحة بمعزل عن لحظة الحقيقة، فالسرد العراقي الراهن يقدم تأويلا للحقيقة ينتج ثلاث نسخ من التاريخ: شيعية وسـنية وكردية وما لم يتم التوافق على نسخة تمثل "الحقيقة" سيظل بـناء العراق فعلا مؤجلا، متأرجحا على تشظي الحاضر في تسجيل متحيز

للحقيقة ومن ثم يصبح تشكيل لجنة للحقيقة واحدا من المهام الرئيسة لتجاوز آثار الماضي وتمهيد مسرح لحضور المستقبل. لجنة للحقيقة والمصالحة لا يكون بناؤها وتكوينها تمثيلا عرقيا أو طائفيا بقدر تمثيلها "الحقيقة" وتوافقها على "المصالحة" وسط تراثين من العنف والقمع: "العنف العمودي أو الرأسي" الذي مارسته الدولة ضد الشعب قبل الاحتلال و"العنف الافقي" الذي نمارسه ضد بعضنا البعض بعد تجذر الدولة وانتشار شظايا ممارساتها العنفية في جسد المجتمع بعد الاحتلال.

•••

يعرف المثقف تماما ان "المقدس في الديمقراطية القيم وليس الآليات" على حد التعبير الجميل لامين معلوف ومن ثم فإن الانتخابات بوصفها احدى الآليات الديمقراطية قد تأتي بأعداء الديمقراطية الى السلطة ومن ثم فإن عليه- القصد المثقف- ان يظل منحازا لقضايا وقيم التعددية والديمقراطية وإلا سقط في شراك السلطة او التهمه العجز و الصمت، فالثقافة فعل تغيير وفعل تحرير وهي مرادفة للحرية ومن ثم فإنها تطرح مسألة الفعالية كأمر جوهري، وليس معنى هذا ان يتحول الوعي والثقافة الى سلطة جائرة بل ان تصبح أداة تغيير ورقابة على انحرافات السلطة بكل تمثلاتها، المثقف هنا يستخدم حق الدفاع الشرعي الجماعي ضد انحرافات السلطة بتبنيه حرية الرأي والتعبير واستخدام النقد لخدمة القضايا العامة ومحاربة الفساد.

سيما وانه- اي المثقف- يقع خارج خطوط التقسيم الدينية والعرقية والطائفية وما دام عابرا لهذه الحدود او الخطوط فسيظل هو المعبر الوحيد عن وحدة المجتمع/ الامة. وتظل الثقافة على يديه تمثل خط الدفاع الاخير عن الهوية

•••

وعلى الرغم من كون مسارات مطبوعا ثقافيا محدود التأثير الا انه قدم مشروعا اتضحت ملامحه شيئا فشيئا لتأسيس هوية "ما هو دائم" من خلال الاحتفاء بروح الابداع العراقي ورموزه وهي محاولة هدفت الى وضع الرمز الثقافي داخل سياق التحدي العراقي الراهن، سيما وأننا نعاني من اشكالية تقف حائلا امام تفعيل لحظة المصالحة الوطنية تتمثل بعدم وجود رمز توافق وطني مثل غاندي- بالنسبة للهند- أو مانديلا بالنسبة لجنوب افريقيا، من هنا تأتي اهمية الحديث عن الرمز الثقافي.. مهمة الثقافة اليوم خطيرة ودور المثقف مصيري بهذا الخصوص، فهل يحتاج المثقف سببا اخر ليكون لدوره معنى في سياق بناء (ما هو دائم). هو يعرف مثلما يعرف الجميع استحالة صياغة السياب او الجواهري على اساس طائفي؟ لكن معادلة تحويل الرمز الثقافي الى رمز توافق وطني تمثل احدى مهام جيلنا الحالي سيما ونحن ننظر الى دول العالم التي تحتضن مبدعيها على انهم رموز وطنية قبل كل شيء (نجيب محفوظ مصر على سبيل المثال) فهم باقون الى الابد كإيقونات يطرزها الاحساس بالعظمة وتتسلل الحكومات الشموع في سبيل احياء ذكراها. وقد قلت في سياق آخر انك قد تتلفظ بإسم همنغواي فتجد الاميركي يلتفت اليك وكأنك ذكرت رمزا وطنيا وربما لو شتمت بوش او ريغن لما اهتز طرفه! وشددت على ان فولتير وبروست وسارتر يظلون يمثلون الامة الفرنسية حتى لو سقط ديغول ورحل ميتران وفند شيراك. امريكا هي همنغواي وفوكنر، وفرنسا هي فولتير ومونتسكيو وبروست وكامو، وكولومبيا هي ماركيز، وروسيا تظل هي ديستوفيسكي وتولستوي حتى لو انهار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية ونسي لينين وفضح ستالين واستسلم بوتين، والعراق ليس مجموعة الحكومات والانظمة المؤقتة التي ابتلي بها الشعب، فهو سيبقى ما دام مبدعوه احياءً في ضمير أمتهم. انطلاقاً من هذه الرؤية ترتسم في افق تأسيس لحظة الحقيقة والمصالحة الحاجة لرموز ثقافية نعتق فيها الاحساس بهويتنا، بحيث إذا لم تكن موجودة فعلينا اختراعها. وكم من أمة اخترعت ابطالها في سبيل الحفاظ على دوامها واستقرارها وتماسك هويتها، فالامم لا يصنعها الابطال والانبياء والفلاسفة، بل هي تقوم بخلقهم في مواجهة تحديات وجودها وبقائها.

•••

مسارات ماضية في مشروعها لتأسيس "ما هو دائم" ومن خلال الثقاف قرائها وكتابها ودعم محبيها وأصدقائها وتفاني هيئة تحرير ها تثبت يوما بعد آخر إن مطبوعا ثقافيا قد يحقق ما تعجز عنه وزارة بأسرها.

القبائل الانسانية الكبرى

جروح الحرب الاهلية

على مذبح القرن الحادي والعشرين

سعد سلوم

الحروب بين العشائر والقبائل والجماعات الإثنية والتجمعات الدينية والدول . كانت سائدة في كل الحقب وفي كل الحضارات . لانها ممتدة الجذور في هويات الشعوب
هنتنغتون (صدام الحضارات)

أصبح العنف يشكل ردا أتوماتيكيا على النزاع في جميع انحاء العالم بحيث جعلنا ننسى أنه رد فقط بين ردود أخرى عديدة
سوزان كولن ماركس (مراقبة الريح)

أن نظرتنا هي التي غالبا ما تسجن الآخرين داخل انتماءاتهم الضيقة . ونظرتنا كذلك هي التي تحررهم
امين معلوف (الهويات القاتلة)

مشهد من الجحيم

سماء راسخة تتصدع، القبائل الانسانية الكبرى تتصارع، دول كبرى تتضخم باقتطاع اجزاء من دول صغرى تتفتت، عالم يلتهب، حكومات تحرض طوائفها ضد بعضها البعض، سلام هش سرعان ما ينهار، جليد حرب باردة يذوب عن نزاعات ساخنة تطفو في كل مكان، حكومات تنهار، تماثيل آلهة تسقط، دول تتمزق، انها لعنة التدمير الذاتي تحيق بعالم يتحول، وهو جحيم اخير يفتح ابوابه وينتظر عناق السلام، على جسر مصالحة، غالبا ما تشرق بعد فوات الاوان.

كابوس العنف يعود بقوة في نهاية القرن العشرين وبداية الالفية الثالثة "المسلمون والهندوس في شبه القارة الهندية ، الروس والقوقاز في شمال القوقاز ، العرب واليهود في شمال فلسطين ، الكاثوليك والمسلمون الأرثوذكس في البلقان ، الروس والاتراك من البلقان الى آسيا الوسطى ، المسلمون والتاميل في سريلانكا ، العرب والسود عبر افريقيا " انه ميراث تاريخي من الصراع والعنف يجري استخدامه عندما يتوفر السبب لذلك ، وهو جوار مفخخ وقابل موقوتة تنتظر مناسبة او فرصة للانفجار . .

يوغسلافيا تنقسم ويتطاحن الاخوة ويقتل بعضهم بعضا امام انظار العشائر الاوربية

التي توحدت في قبيلة واحدة تثير الاعجاب لكن اصابها برود قيمي عجيب على من تريدهم خارج مضاربها. التشكيلات الضخمة من الدبابات الروسية والمدفعية والطائرات تسحق مدن الشيشان وبلداتها وتحولها الى خرائب متفحمة ، قوات حفظ السلام الدولية في راوندا تراقب بقلب بارد متطرف الهوتو يذبحون التوتسي بالمناجل والهروات المليئة بالمسامير ، ثم تنسحب في عز الابادة الرواندية في نيسان ١٩٩٤ في حين تتجمد اللامبالاة الدولية في حكومات العالم المتواطئة بجريمة الصمت وهي تراقب العمل الفظيع لمجرمي الحرب الى ان يصحو الضمير العالمي متأخرا كالعادة فيصدر مجلس الامن قرارا يعترف بالابادة بعد مقتل نصف مليون انسان .تدمير خيمتي التجارة العالمية في نيويورك يحرر مارد العنف من قمقمه فتقوم القبيلة الاميركية بغزوة شاملة ضد قبائل الارهاب الدولي وعشائر محور الشر وتعلن ان قيم عشيرة النهاية التاريخ هي السائدة ومن ليس معها فهو ضدها. الرسوم الكاريكاتورية عن الرسول العربي محمد (ص) تثير زوابع وقلاقل وتظاهرات على امتداد العالم العربي والاسلامي وتتضح شيئا فشيئا خطوط انقسام بين اديان ذات منشأ واحد. فهل عبادة الله تجمعنا والاديان تفرقنا؟! اليابا- رمز السلام في العالم الحر- يصرح بكلمات تثير غضب العالم الاسلامي فتنطلق شحنات الكراهية المكبوتة وترتشح العنف الاهلي داخل

المجتمعات المحلية بين اتباع اديان التوحيد السامية الذين اصابهم مس لاتباع اديان التفريق العنصرية. الشرق الاوسط برميل بارود دائم وقلب عنف قديم يتدفق بنقمة الذهب الاسود وميراث مواجهات تاريخية اذ يبدو الصراع العربي الاسرائيلي وكأنه ينغذى على احقاد مؤبدة ويترك عزو القبيلة الاميركية ليساتين بلاد الرافدين، البلاد ممزقة بجراحها ومقسمة بحكم الامر الواقع بين العناصر الثلاث: الكردية والسنية والشيعية. في شمال افريقيا تترك الحرب الاهلية في الجزائر أكثر من مائة ألف قتيل ويخلق نحو سبعة آلاف في عقد التصعيدات في غمار الصراع المسلح بين قوات الأمن الجزائرية والمقاتلين الإسلاميين المسلحين. ولم تعترف السلطات الجزائرية ولا الجماعات الإسلامية حتى الآن بأي مسؤولية عن حالات الاختفاء القسري، وما زال شبح الإنكار يلف المذابح وحالات الإعدام. الى ان أنشأ الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في أيلول ٢٠٠٣ لجنة خاصة ومنحها الصلاحيات اللازمة للبت في مصير المختفين، ووضع مقترحات لتعويض أسر الضحايا، وتقديم المعونة الاجتماعية لهذه الأسر. من جهة اخرى فان ظلال التاريخ تثقل وجه الحاضر و تحكم اتجاه المستقبل، فميراث الاستعمار الثقيل وظلال الحروب الاهلية الاوربية التي امتدت آثارها على العالم بأسره لم تتم تصفيتها بعد، فعلى الرغم من ان دول الجنوب التي تعرضت للسلب والنهب على يد العشائر الاستعمارية الاوربية قد شملتها موجة التحرر والاستقلال منذ النصف الثاني من القرن العشرين فقد ظل المجتمع الدولي يعاني انقساما حادا بين من يملكون ومن لا يملكون، بين من يحوزون القوة والثروة والمعرفة ومن قدر عليهم البقاء في ظلمات وروابس التبعية للنخبة العالمية المسيطرة او العشيرة المتفوقة. وكل المحاولات التي جرت في مضايف المنظمات الدولية كالامم المتحدة او الاقليمية كمنظمة المؤتمر الاسلامي والجامعة العربية وكتلة عدم الانحياز لم تنجح في رأب الصدع والانقسام في الطابع الطبقي الشاذ للمجتمع الدولي فمحاولات انشاء نظام اقتصادي جديد ونظام اعلامي جديد والدعوة للمساواة في السيادة ظلت مجرد مطالب اخلاقية ليس لها سوى طابع التوصية ثم دفنت تماما مع انهيار الحلم الاشتراكي وسقوط منظومة العشيرة الاشتراكية حتى جاء الوقت لزمن اللحظة الامبراطورية الاميركية وبروز العولمة التي وصفت عن حق بكونها "عولمة الفقر" لتشدد وتعمق الهوة الفاصلة بين الاغنياء والفقراء، بين الجنوب والشمال ومع انطلاق الحرب العالمية الرابعة في اعقاب انهيار البرجين التوأم في نيويورك ٢٠٠١ بدا ان الحرب الاهلية على مستوى كوني تفجرت بكل نزعات الحقد والغضب عن مكبوت الميراث القتيل من العداء المستحكم. انها حرب حضارات او الحرب الاهلية على المستوى الكوني تجري على نطاق خطوط التقسيم الحضارية بين القبائل الانسانية الكبرى.

المشهد مخيف ويوحي باقتراب عاصفة تفرق ما جمعته الاديان والفلسفات الانسانية من قيم التسامح والمحبة والاخوة. وإذا ما افترضنا بأن الجنس البشري الذي يسكن على الكوكب الارضي عائلة واحدة او عشائر متقاربة ضمن قبيلة بني الانسان فان الحرب بين عشائرها ستكون حربا اهلية بين الاخوة. وستكون المصالحة التي تعقب جراح النزاع الاخوي لازمة للمضي بقصة الانسان على الارض.

لعنة الفارة السوداء

تنهار الدولة في كل مكان وكأنها مجرد كابوس او محض اسطورة في حين يحل محلها فاعلون جدد مثل امراء الحرب وزعماء القبائل والعشائر وقادة الكيانات الطائفية والإثنية والمؤسسات الاهلية العابرة للحدود وشبكات الجريمة المنظمة والشركات العالمية ومرتزقة الشركات الامنية ، بل وحتى الافراد المؤثرون مثل بيل غيتس ونيلسون مانديلا والبابا ، حتى ان الفرضيات الاساسية في العلاقات الدولية لفهم الشؤون العالمية وتفسيرها والتي تجعل من الدولة محورها الاساس ولاعبها الرئيس لم تعد تصمد امام التحولات وتتراجع بصمت ثم تنهار .افريقيا مثال بارز على مثل هذا التحول القاتم ، فقد انهارت الدولة في عدد من اجزائها او كادت مثل الصومال منطقة البحيرات وسيراليون وليبيريا وظهرت دول جديدة مثل ارتيريا او شبه دولة مثل

جمهورية ارض الصومال وانهيار نظام الفصل العنصري في جنوب افريقيا . وما تزال ريح الانتقال تهب بقوة على مشهد مكثوف للفقر والاوبئة والمستقبل الغامض ، ففي السودان وقعت في ٩ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٥ اتفاقية للسلام الشامل بين الحكومة المركزية والجماعة المسلحة الرئيسية في الجنوب، الحركة الشعبية/الجيش الشعبي لتحرير السودان، بغرض إنهاء الحرب الأهلية بين الجانبين، التي استمرت ٢١ عاماً. وقد خلت البروتوكولات والاتفاقيات التي تشكل مجتمعة اتفاقية السلام الشامل تماماً من أي ذكر للانتهاكات الفظيعة التي ارتكبت إبان النزاع، والتي يشكل العديد منها جرائم يطالها القانون الدولي. لكن في دارفور غربي البلاد ظل النزاع مستمراً اذ استخدمت الحكومة السودانية الجنجويد (ميليشيا تضم أفراداً من جماعات البدو الرحل وقطاع الطرق) فهاجموا القرى المستقرة وقتلوا الناس واغتصبوا النساء واتخذوهن رقيقاً جنسياً وتعرض القرويون للتهجير القسري من ديارهم المدمرة وأحرقت محاصيلهم وماشيتهم ، أو نهبت. وأدت الهجمات إلى تهجير ما لا يقل عن ١،٢ مليون انسان . وبات ما لا يقل عن مليون نسمة مهجرين داخلياً وأجبروا على الانتقال إلى جوار البلدات أو القرى الكبيرة في دارفور، وعبر ما يزيد على ١٧٠،٠٠٠ الحدود ولجأوا إلى تشاد.

وفي **بوروندي** استمرت الحرب الأهلية عقداً كاملاً من الزمان، عاد بعدها السلام إلى معظم ربوعها ، وبرزت ضرورة محاكمة مرتكبي الجرائم والتحقق من صلاحية أفراد قوات الأمن، وإنشاء لجنة لكشف الحقيقة. وفي **جمهورية الكونغو الديموقراطية** شهد شهر كانون الأول ٢٠٠٢ التوقيع على صفقة سلام ترمي إلى إنهاء ما يسمى "الحرب العالمية الأولى في إفريقيا"، وذلك في بريتوريا، جنوب إفريقيا. وشكلت حكومة انتقالية في تموز ٢٠٠٣، ونصت اتفاقيات السلام على إنشاء لجنة للحقيقة والمصالحة، وإنشاء محكمة جنائية دولية، ولقد بدأ المدعي العام بالمحكمة الجنائية الدولية أولى تحقيقاته الرسمية في الجرائم المرتكبة في جمهورية الكونغو الديموقراطية. وفي كانون الثاني ٢٠٠٢، وغاناً على مشارف التخلص من تركة الحكم العسكري والشمولي الذي استمر بصورة متقطعة نحواً من ٤٥ عاماً، تأسست لجنة مصالحة وطنية تتألف من تسعة أعضاء، للتحقيق في انتهاكات حقوق الإنسان في الماضي، والتوصية بالتعويضات والإصلاح، واتخاذ إجراءات المصالحة. وفي **كينيا** بعد أكثر من عقدين من حكم دانيل أراب موي، أجريت الانتخابات العامة في كانون الأول ٢٠٠٢، فأتت بتغييرات كبيرة في كينيا، بانتخاب الرئيس موا كيباكي. وأسرعت الحكومة الجديدة بالإعراب عن تأييدها للجنة الكشف عن الحقيقة، وقامت في نيسان ٢٠٠٣ بإنشاء فريق مهمات، وتكليفه بإجراء المشاورات على نطاق واسع واقتراح الاختصاصات وأوصى الفريق المذكور في تقريره بإنشاء لجنة للحقيقة والعدالة والمصالحة ومنحها سلطات واسعة. وفي ليبيريا بدأت أول فترة من فترات الهدوء النسبي بعد أربعة عشر عاماً، بعد رحيل الرئيس السابق تشارلز تايلور، وعقد اتفاق سلام شامل في أكرا في آب ٢٠٠٣، وواجه البلد تحديات كبيرة في التعامل مع انتهاكات حقوق الإنسان المرتكبة في الماضي وفي **سيراليون** بلغت لجنة الحقيقة والمصالحة ذروة نشاطها حيث اتخذت مبادرة فريدة وأصيلة، إذ تقدمت إلى أفراد الشعب جميعاً بطلب المساهمات الإبداعية في بناء "رؤية قومية" للطريق الذي ينبغي لسيراليون أن تسير فيه الآن، بعد عقد كامل من الحروب.

الجرم العالمي في اوربا واسيا والاميركيتين

اما قارة آسيا فالمشهد يزخر بتفاصيل حبلى بتحولات قائمة وتغيرات قادمة، نظام طالبان يسقط في أفغانستان ويتم إنشاء حكومة جديدة، ويصبح بالإمكان النظر في كيفية التصدي للتاريخ الوحشي للصراع وانتهاكات حقوق الإنسان في أفغانستان. ويتمثل أحد التحديات الخاصة في تلبية احتياجات مئات الآلاف من الضحايا، إلى جانب الحالة الأمنية المضطربة. ثم ان **اندونيسيا** ما برحت تحاول التغلب على تركة مثقلة بالانتهاكات والحكم الشمولي، المتسم بالعنف من جانب قوات الأمن، والصراع حول الموارد الطبيعية وتقرير المصير، كما بذلت جهود برلمانية لإنشاء لجنة للحقيقة، وفي **سري لنكا** أواخر عام ٢٠٠١، وبعد عقدين من الحرب، وقعت حكومة سري لنكا اتفاقاً لوقف إطلاق

النار مع حركة نمو تحرير تاميل إيلام. وكانت عملية السلام تسير بصورة متقطعة، ودون ثبات، ومع ذلك فقد أتاحت إمكانيات للتصدي لتركة انتهاكات حقوق الإنسان. وبدأت الجهود حول البحث عن الحقيقة، وإرساء مبادئ المساءلة، والتعويضات، و الإصلاح. وفي **تيمور الشرقية** تم التصدي لانتهاكات حقوق الإنسان وللإقلات من العقاب، وهي من الظواهر التي صاحبت الاحتلال الإندونيسي على امتداد أربعة وعشرين عاماً، وذلك بمساعدة ما يسمى "لجنة الاستقبال والحقيقة والمصالحة"، و "وحدة التحقيق في الجرائم الخطيرة".

أوروبا ايضا تكتوي بنار الكراهية والصراعات فعلى الرغم من انتهاء الحروب في يوغوسلافيا السابقة، فإن مستويات التوتر في الإقليم ما تزال عالية، خصوصاً في كوسوفو، وما تزال المشاعر القومية، إلى جانب الركود الاقتصادي، تهيمن على الجمهوريات السابقة، وما يزال بعض أشهر مجرمي الحرب، ممن وجهت المحكمة الجنائية الدولية الخاصة بيوغوسلافيا السابقة اتهاماتها إليهم، طلقاء يتمتعون بحماية شبكات قوية. اما الأمريكيتان فسجلهما يسجل نقاط تحول عديدة ففي كولومبيا التي ظلت على امتداد أربعين عاماً تقريباً، تعاني من صراع مسلح لا هوادة فيه، ويتسم بالانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان المختلطة بالجريمة المنظمة. وحدث في منتصف عام ٢٠٠٣ أن ازداد الاهتمام في المناقشات العامة و الخاصة بقضايا الحقيقة، والتعويضات، والمساءلة، حين تعهدت الحكومة بتسريح ونزع سلاح قوات الدفاع عن النفس المتحدة في كولومبيا، وذلك، بأن اقترحت تخفيف التهديد بأحكام السجن الطويلة، حتى على مرتكبي أخطر الجرائم المتعلقة بحقوق الإنسان. وفي غواتيمالا قدمت لجنة الإيضاح التاريخي، تحت رعاية الأمم المتحدة، تقريراً عام ١٩٩٩ يقول إن ما يقرب من مائتي ألف من السكان الأصليين من هنود المايا قد قتلوا في أحداث إبادة جماعية ارتكبت إبان الحرب الأهلية التي دارت في غواتيمالا على مدار ٣٦ عاماً. وأوصت اللجنة بأن تقوم السلطات الغواتيمالية بمحاكمة المسؤولين عن التحريض عن تلك الجرائم، ودفع التعويضات إلى أسر الضحايا. وفي المكسيك عندما تولى الرئيس فيسنتي فوكس مهام منصبه عام ٢٠٠٠، وعد بالالتزام بحقوق الإنسان، إذ تم إنشاء "مكتب للمدعي الخاص" للتحقيق في الجرائم التي ارتكبها العاملون بالدولة ضد الجماعات السياسية و الهيئات الاجتماعية، في بواكير عام ٢٠٠٢، وكان له هدفان عريضان: الأول هو تحميل مرتكبي الجرائم مسؤولية جنائية، والثاني البت في حقيقة انتهاكات حقوق الإنسان المرتكبة في الماضي. وبحثت الحكومة مسألة إنشاء لجنة للكشف عن الحقيقة، ولكنها قررت عدم إنشائها. وكافحت بارغاوي لمعالجة تركة الدولة البوليسية التي فرضت التعذيب والنفي والإخفاء القسري على أبناء شعبها. وفي أيلول ٢٠٠٣ أصدر البرلمان قانوناً بإنشاء لجنة الحقيقة و العدالة وفي حزيران ٢٠٠٤ أعلن رسمياً عن إنشاء تلك اللجنة بغرض إعداد سجل تاريخي لحكم ستروسنر الدكتاتوري، و المساهمة في جهود تحريك الدعاوى القضائية، واستجلاء الحقيقة. وفي بيرو دعيت لجنة بيرو للحقيقة والمصالحة إلى الاجتماع في تموز ٢٠٠١ للتحقيق في الانتهاكات القديمة لحقوق الإنسان، أي التي وقعت في الفترة من ١٩٨٠ إلى ٢٠٠٠، وللمساهمة في إقامة العدل وإصدار التوصيات. ويقول تقرير اللجنة النهائي، الصادر في آب ٢٠٠٣، إن أعمال العنف التي ارتكبها المتمردون وأعمال العنف المناهضة لها تسببت في وفاة أو اختفاء ما يقدر بنحو ستة وتسعين ألف شخص، معظمهم من أفراد مجتمعات السكان الأصليين. وأوصت اللجنة بتنفيذ خطة شاملة للتعويضات، ورفع الدعاوى الجنائية، إلى جانب سلسة من التدابير الأخرى. وفي كارولاينا الشمالية في الولايات المتحدة تشكلت لجنة غرينزبره للحقيقة والمصالحة في حزيران ٢٠٠٤ للتحقيق في قيام عصابة كلوكلاكس والحزب النازي الأميركي بإطلاق النار وقتل خمسة متظاهرين وجرح عشرة آخرين يوم ٣ تشرين الثاني ١٩٧٩.

الحرب الاهلية الكونية

هل اصبحت المصالحة إذاً صرعة او موضة في السوق

الى العملية اللازمة لشفاء جراح عصرنا، فبعد الحرب الاهلية الاولى بين العشائر الاوربية ١٩١٤-١٩١٩ والحرب الاهلية الاوربية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ تراجعت الحروب بين الدول لتتقدم الحروب داخل الدول الى واجهة مشهد الصراع ولتتمزق المجتمعات الناشئة تحت وطأة الحروب الاهلية الداخلية بعد ان تمزق العالم بسبب اطماع الدول الكبرى في حروبه الاهلية الخارجية التي عمدت تحت اسم الحروب العالمية. وعلى وجه التحديد فانه بحلول نهاية القرن العشرين كان ما لا يقل عن ٩٣ في المائة من الصراعات العنيفة الرئيسة في انحاء العالم لا يدور بين الدول وانما داخل الدول. وتركت هذه الحقيقة اثاراً كبيرة على ضرورة اقرار العدالة في حالات ما بعد انتهاء الصراعات، فعلى العكس من الصراعات الكلاسيكية التي تدور بين الدول لا تملك اطراف هذه الحروب رفاهية ان تفصلها الحدود الجغرافية عند انتهاء الاعمال الحربية. فبدلا من الانسحاب الى الجانب الاخر من الحدود فان اطراف هذه الصراعات التي تدور داخل الدول عليها ان تعيش معاً وعادة ما تتعامل مع بعضها البعض بصورة يومية. ولما كانت هذه الصراعات تنشب بارتكاب فظائع واسعة النطاق والانتهاك اللانساني لحقوق وكرامة الجيران فانه يصبح من الضروري اقرار شكل من اشكال العدالة. ففي السيناريوهات التي لا يمكن فيها تجنب التفاعل اليومي بين الضحايا ومرتكبي الانتهاكات سواء في الساحة السياسية او في الشارع يكون الماضي الملح حاضراً بصورة حية ومثيرة مما يحتم مواجهته بصورة متعمدة ومتأنية اذا كانت الغاية هي الوصول الى مجتمع يعيش في سلام حقيقي مع نفسه.

لجان الحقيقة والمصالحة

بات مصطلح المصالحة يدور على الالسنة كثيراً ولكنه غالباً ما لا يعرف او يفهم بوضوح. فقد اتضح من دراسة قام بها مركز جو هانسيرج لدراسة العنف والمصالحة على ان هناك اراء شديدة التباين حول معنى المصالحة داخل المجتمعات المحلية لكن هناك محوراً مشتركاً بين الاراء كلها يدور حول "قامة علاقة بين المجموعات او الافراد" ولكن تعريف تلك العلاقة اختلف باختلاف الثقافة والخبرات الخاصة لانتهاكات حقوق الانسان والموقع في البنية السياسية والظروف الشخصية. غير انه يبدو ان هناك اتفاقا عاما مشتركا بين معظم الخبراء على ان المصالحة هي "عملية اكثر منها هدف يحقق". وفي سياق عمل لجان الحقيقة والمصالحة قد يكون اهم تمييز يجب توضيحه هو التمييز بين المصالحة الفردية والمصالحة الوطنية او السياسية. ففي حين ان لجان المصالحة قد تشكل أليه مفيدة في الاقتراب من المصالحة الوطنية او السياسية بقدر ما تساعد على منع بعض الحقائق من الاستمرار في كونها مصدراً للنزاع والحقد بين النخب السياسية، تبقى المصالحة بين الافراد اكثر تعقيدا وربما ابعد منالاً من خلال لجان المصالحة. اذ ان العفو ولأم الجراح والمصالحة هي عمليات شخصية عميقة، كما يختلف ما يتطلبه كل فرد من عملية صنع السلام والمصالحة وما تثيره من ردود افعال .

وقد تم تكوين ما لا يقل عن خمس وعشرين لجنة للحقيقة في مختلف أنحاء العالم منذ سنة ١٩٧٤، وإن كانت تعرف بأسماء مختلفة. وكل واحدة منها كانت مختلفة عن الأخرى. فكانت هناك "لجان عن المختفين" في الأرجنتين وأوغندا وسري لنكا؛ و"لجان الحقيقة والعدالة" في هايتي والإكوادور، و"لجان الحقيقة والمصالحة" في تشيلي وجنوب افريقيا وسيراليون وغانا وبيرو وصربيا والمونتي نغرو . و"لجنة التحقيق من أجل تقييم تاريخ الديكتاتورية وعواقبها في ألمانيا". و "لجنة التلقي والحقيقة والمصالحة" في تيمور الشرقية.

وتمثل هذه اللجان الالية الأوسع انتشاراً أو الأكثر تطبيقاً التي تهدف إلى تقصي الحقائق وكشفها وتحقيق الإنصاف للمتضررين من المرحلة الأمنية السابقة وتحقيق العدالة والتعويض. فغالبا ما تطالب المجتمعات التي تعيش مرحلة انتقالية بتفسير لمدى وطبيعة العنف أو الانتهاكات التي وقعت في أثناء حكم النظام السابق. وينادي الضحايا والمنظمات غير الحكومية لحقوق الإنسان، من بين أطراف أخرى عديدة، بكشف "الحقيقة" حول الماضي، وعادة هذا ما يكون رد فعل للنظام السابق الذي كان يعتمد على الأكاذيب والخداع. وانطلاقا من (فانسلاف هافيل) من جمهورية التشيك ونيلسون مانديلا من جنوب افريقيا إلى (أونغ سان سوكي) من بورما، نادى نشطاء حقوق الإنسان

والمدافعون عن الديمقراطية بوضع سجل دقيق عما وقع في الماضي ومن خلال ذلك يمكن التعبير عما عاناه أولئك الضحايا. وقد ظهرت، عدة وسائل لاستجلاء الحقيقة حول الانتهاكات الماضية لحقوق الإنسان. وأشهر تلك الوسائل هي "لجنة الحقيقة". وعلى الرغم من أن مفهوم لجنة الحقيقة مرتبط غالبا بمثالها الذي يمكن القول بأنه الأكثر شهرة "لجنة جنوب افريقيا للحقيقة والمصالحة" فذلك العمل كان نوعا غير معتاد من اللجان من حيث عدة أوجه. وعلى سبيل المثال، كانت لجنة الحقيقة الوحيدة التي لها سلطات منح العفو. وعلى العموم، فإن مصطلح "لجنة الحقيقة" يشير إلى هيئات تتقاسم مميزات خاصة. ولجان الحقيقة هي هيئات مؤقتة، وتعمل غالبا لمدة سنة أو سنتين، وتتم الموافقة عليها رسميا أو التَرخيص لها أو تخويل السلطات لها من طرف الدولة، وفي بعض الحالات، من طرف المعارضة المسلحة كذلك؛ وهي هيئات غير قضائية تتمتع بنوع من الاستقلال القانوني، ويتم تشكيلها غالبا في مرحلة من مراحل الانتقال السياسي، سواء من الحرب إلى السلم أو من الحكم الاستبدادي إلى الديمقراطية؛ وهي تركز على الماضي، وتحقق حول نماذج من الانتهاكات الخاصة المرتكبة خلال مدة من الزمن، وليس فقط حول حدث خاص بعينه، وهي تعطي الأولوية لحاجات الضحايا والإصابات؛ وتنهي في معظم الأحيان عملها بتقديم تقرير نهائي يتضمن الاستنتاجات والتوصيات؛ وهي تركز على انتهاكات حقوق الإنسان وفي بعض الأحيان على انتهاكات المعايير الإنسانية كذلك. وسنتناول مثالي جنوب افريقيا وغوتيمالا لتوضيح عمل هذه اللجان كما سنشير الى مثالين عن توظيف التقاليد والعادات المحلية في عملية المصالحة في كل من اغوغا وجنوب افريقيا، عسى ان تهتدي عملية المصالحة في العراق بخبرة ومثال هذه التجارب.

النوع من الآلية في العالم أجمع. وكانت النقاشات الجادة بصدد فكرة إنشاء لجنة للحقيقة قد بدأت بعد انتخاب نيلسون مانديلا رئيسا للبلاد في ١٩٩٤. وبعد مشاركة كبيرة من قبل المجتمع المدني ومئات من الساعات من جلسات الاستماع أصدر برلمان جنوب أفريقيا في ١٩٩٥ "قانون تعزيز الوحدة الوطنية والمصالحة" منشأ "لجنة الحقيقة والمصالحة". وبعد عمليات الترشيح والاختيار التي جرت بصورة علنية تم تعيين سبعة عشر عضوا باللجنة. وقد نص القانون على شروط ولاية للجنة تظل حتى يومنا هذا الأكثر تعقيدا وتطورا. فقد أعطى القانون لهذه اللجنة صلاحية منح العفو الفردي وسلطة التفتيش والمصادرة وجلب وإحضار الشهود بالإضافة إلى إدارة برنامج متطور لحماية الشهود. جاءت لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب أفريقيا عصارة في حجمها ونطاق عملها إذا ما قورنت بغيرها من اللجان، فقد عمل بها حوالي ٣٥٠ موظفا وبلغت ميزانيتها قرابة الثمانية عشر مليون دولارا أميركيا في السنة لمدة عامين ونصف العام وكان لها أربعة مكاتب ضخمة في أنحاء مختلفة من البلاد. وفقا لقانون تعزيز الوحدة الوطنية والمصالحة صممت اللجنة بحيث تعمل من خلال ثلاث لجان متصلة. اللجنة الأولى "لجنة انتهاكات حقوق الإنسان"، كانت مسؤولة عن جمع الشهادات من الضحايا والشهود وإثبات نطاق الانتهاكات ومداها. والثانية "لجنة العفو"، كانت تنظر في الطلبات الفردية للحصول على العفو وتقرر فيها. أما اللجنة الثالثة، "لجنة التعويضات ورد الاعتبار"، فقد صاغت توصيات خاصة ببرنامج للتعويضات، تلقت لجنة الحقيقة والمصالحة شهادات من ٢٣٠٠٠ ضحية وشاهد، حضر منهم ألفان أمام جلسات استماع علنية. وقام الإعلام بتغطية أعمال اللجنة بصورة مكثفة، فمعظم الجرائد نشرت عدة موضوعات عنها يوميا، وكثيرا ما افتتح التلفزيون والراديو النشرات الإخبارية بأنباء عن آخر جلسات اللجنة. تلقت اللجنة ما يزيد على

تصفية إرث الفصل العنصري

من الصعب ألاّ ننبهر بتجربة لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب أفريقيا ومدى طموحها وتميزها. فبصرف النظر عن كل الانتقادات التي وجهت إليها فقد مثلت اللجنة نقطة تحول حاسمة في تاريخ جنوب أفريقيا "بتضييقها مدى الكذب المسموح به"، وكان للجنة أثر دولي لم يسبق له مثيل مما أدى إلى الشغف الكبير بهذا

بأنباء عن آخر جلسات اللجنة. تلقت اللجنة ما يزيد على ٧٠٠٠ طلب للحصول على العفو، منحته فقط لأولئك الذين اعترفوا بالكامل باشتراكهم في جرائم ماضية وأوضحوا أنها كانت ذات دوافع سياسية. وبالنسبة للجرائم الجسيمة بصورة خاصة كان على المتقدم بطلب العفو أن يمثل أمام جلسة استماع علنية للإجابة على الأسئلة الموجهة من لجنة الحقيقة والمصالحة ومن محامي الضحايا وعائلاتهم ومن الضحايا أنفسهم. وقد وضعت لجنة العفو في اعتبارها عدداً من العوامل عند تقريرها في طلب العفو منها على سبيل المثال ما إذا كان هناك تناسب بين الجريمة المرتكبة والهدف السياسي المنشود. ولم يكن الاعتذار أو إبداء الندم شرطاً ضرورياً لمنح العفو. غير أن الجرائم المرتكبة بهدف تحقيق الصالح الخاص أو لضغينة أو كراهية أو عداوة شخصية لم تكن موضوعاً للعفو. ونظراً لأن الحصول على العفو اقتضى الاعتراف العلني المفصل فقد كان واضحاً أن عرض "الحقيقة مقابل العفو" لن يقبله إلا من استشعر الخوف الحقيقي من المحاكمة، وقد كان من المأمول أن يزيد عدد من المحاكمات المبكرة الشعور بأن الإحالة إلى المحاكمة خطر جاد وقائم. وبالفعل فقد نجحت بعض المحاكمات الشهيرة لجرائم عهد الفصل العنصري في إدانة المتهمين وقضت بالسجن لفترات طويلة، وهو ما أدى إلى ارتفاع في عدد طلبات العفو. إلا أنه عندما انتهت محاكمة مهمة أخرى (محاكمة الوزير السابق ماغنوس مالان و١٩ آخرين) بتبرئة المتهمين كان من الواضح أن خطر الإحالة إلى المحاكمة لن يكون قوياً بالدرجة التي تقنع العديد من الجناة من كبار المسؤولين بالتقدم للحصول على العفو. ومن ثم حاولت لجنة الحقيقة والمصالحة أن تزيد من الضغط على الجناة حتى يعترفوا بجرمهم بإجرائها عدداً من جلسات التحقيق المغلقة. ومع ذلك فقد أثر في نهاية الأمر العديد من الجناة المخاطرة بعدم التقدم إلى اللجنة، وانطبق هذا بالذات على القادة السياسيين لنظام الفصل العنصري والضباط الكبار بالجيش. نشر التقرير النهائي للجنة الحقيقة والمصالحة في خمسة أجزاء في تشرين الأول ١٩٩٨. على الرغم من أن إرث الفصل العنصري ما زال يطارد جنوب أفريقيا فلا يمكن أن يعزى ذلك إلى أوجه قصور معينة باللجنة. فلا يمكن معالجة هذه التركة الثقيلة أو رفع الضرر بصورة وافية في بضع سنوات قصار.

استجلاء التاريخ في غواتيمالا

استمرت الحرب الأهلية في غواتيمالا أكثر من ٣٠ عاماً وأسفرت عن حوالي ٢٠٠,٠٠٠ قتيل أو مفقود، وقد دارت بين القوات الحكومية المناهضة للشيوعية والثوار اليساريين (الاتحاد الثوري الوطني الغواتيمالي). ومن بين أكثر الموضوعات المطروحة للنقاش في مفاوضات السلام إثارة للخلاف كان مسألة كيفية معالجة انتهاكات حقوق الإنسان وجرائم الحرب المرتكبة في الماضي في أثناء فترة الانتقال إلى السلم. وقد تم حل ذلك في حزيران ١٩٩٤ عندما اتفقت الحكومة والاتحاد الثوري الوطني الغواتيمالي على إنشاء "لجنة استجلاء التاريخ". إلا أن توقيع اتفاقات السلام النهائية وبدء عمل اللجنة تأخرا ثلاث سنوات. الكثير من القرى في غواتيمالا كانت تقع في عزلة شديدة وكان على العاملين باللجنة في بعض الأحيان أن يخوضوا الطرق الخلفية للوصول إلى المجتمعات الصغيرة المتناثرة، وفي بعض الحالات كان عليهم أن يسيروا على الأقدام لست أو سبع ساعات في طرق جبلية حتى يصلوا إلى قرية ما للاستماع إلى الشهادات. وفي بعض الأحيان اكتشف العاملون عند وصولهم أن السكان لم يكونوا حتى على دراية بأن الحرب الأهلية قد انتهت، بل إنه أكثر من مرة ظن السكان أن العاملين باللجنة أنفسهم رجال حرب عصابات. وبالرغم من هذه التحديات استطاع العاملون باللجنة زيارة ألفي مجتمع محلي تقريباً وتلقوا ٧٣٣٨ شهادة بما فيها ٥٠٠ شهادة جماعية. تكونت اللجنة من رئيس أجنبي معين من قبل الأمين العام للأمم المتحدة، وعضوين آخرين من رعايا غواتيمالا اختارهما الرئيس بموافقة الطرفين. وقد عملت اللجنة على مراحل مختلفة واستخدمت طاقم عمل تراوح ما بين ٢٠٠ موظف في ذروة عملها (في ١٤ مكتباً ميدانياً) وأقل من ١٠٠ موظف في شهور التحليل والتحقيق وصياغة التقرير. وضم طاقم العمل بعض الموظفين الغواتيماليين والأجانب. وبلغت ميزانيتها النهائية حوالي ١١ مليون دولار أمريكي. كانت رؤية اللجنة أن "تستجلي" انتهاكات حقوق الإنسان وأعمال العنف المرتكبة ما بين ١٩٦٢ و١٩٩٦ والمتصلة بالنزاع المسلح، وأن تعد بناءً على

تحقيقاتها تقريراً نهائياً يضم استنتاجاتها وتوصياتها فيما يخص تعزيز السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان وتخليد ذكرى الضحايا. وكانت أعمال اللجنة سرية إلا أنها كانت ملزمة بإعلان تأسيسها وولايتها ودعوة الأطراف المهتمة للإدلاء بالشهادة. وقد طالبت اللجنة الحكومة الأميركية برفع الحظر عن بعض الملفات بمساعدة دار محفوظات الأمن القومي الأميركي. وأسفر هذا عن رفع الحظر عن آلاف الوثائق. غير أن المعلومات من القوات المسلحة الغواتيمالية كانت أقل كثيراً، وقد زعمت أن ليس لديها أية سجلات للأحداث الجاري التحقيق فيها. واستخدمت اللجنة أيضاً معلومات حصلت عليها من منظمتين غير حكوميتين وطنيتين، وعلى الأخص من مشروعين كانا قد أنشئا كمسعى بديل للوصول إلى الحقيقة قبل بدء عمل اللجنة بعدة سنوات. وكان المشروعان قد جمعا آلاف الشهادات، منها الكثير مسجلاً على أشرطة سمعية ومكتوبة، وخلفا وراءهما قاعدة معلومات تفصيلية وتقارير منشورة أيضاً. أكملت اللجنة تقريرها الطويل وشديد اللهجة في شباط ١٩٩٩ ونشرته للجمهور في احتفال مشحون بالمشاعر حضره الآلاف. وصف التقرير أعمالاً من القسوة الوحشية وذكر أن "مناخاً من الإرهاب" ساد البلاد نتيجة لتلك القطاعات. وعزا التقرير ٩٣% من الانتهاكات إلى الجيش أو القوات العسكرية غير النظامية المدعومة من الدولة، وعزا ٣% من الانتهاكات إلى الاتحاد الثوري الوطني الغواتيمالي. ومع ذلك فقد يكون أقوى استنتاج توصلت إليه اللجنة هو أنه بالنظر إلى أنماط الانتهاكات المرتكبة في المناطق الأربع الأكثر تعرضاً لها يتضح أن مندوبي الدولة قد ارتكبوا أعمال إبادة جماعية من ١٩٨١ إلى ١٩٨٣ ضد جماعات من شعب المايا. وبالرغم من أنه كان محظوراً على اللجنة أن تعلن أسماء المسؤولين، فقد نشرت في تقريرها أن أغلبية انتهاكات حقوق الإنسان وقعت "بعلم أو بأمر أعلى السلطات في الدولة". وقدمت اللجنة أيضاً فصلاً مطولاً ضم توصياتها. وبعد نشر التقرير النهائي بثلاثة أسابيع ردت الحكومة بإصدار بيان قالت فيه إن جميع الأمور المهمة في توصيات لجنة استجلاء التاريخ قد تم معالجتها بصورة وافية في اتفاق السلام. غير أنه بسبب ضغط المجتمع المدني المستمر قد يتم تنفيذ بعض التوصيات الرئيسة. وبالرغم من هذه الخطوات البسيطة للأمام يبقى واقع الحياة في غواتيمالا لم يتغير تقريباً. لم يحدث تجدد للنزاع، ولكن معظم الأسباب الجذرية له تبقى على حالها، بما في ذلك انعدام الأمن على نطاق واسع وغياب العدل والعنصرية والفقر المدقع المتفشي في البلاد. وبالإضافة إلى ذلك لم يوزع تقرير اللجنة النهائي إلا على نطاق ضيق حتى أن الكثير من المجتمعات التي قاست أشد أنواع الانتهاكات في كثير من الأحيان لا تعرف عن عمل اللجنة إلا لماماً.

المصالحة والعودة للتقاليد المحلية

عندما حازت انغولا للواقعة في جنوب غرب افريقيا على استقلالها من الاستعمار البرتغالي في نوفمبر ١٩٧٥ تنازعت الاطراف الانغولية -التي كانت أساس المقاومة الشعبية ضد الاحتلال- فيما بينها على السلطة المطلقة في الدولة. انغولا دولة غنية بالنفط في المناطق الشمالية وبالاخص في مقاطعة كابيندا التي توصف بـ"الكويت الافريقي" والثروات الطبيعية الاخرى مثل الذهب والماس والخشب. احتكرت المقاومة الشعبية هذه الثروات لتجهيز وحداتها العسكرية بأكثر الأسلحة الفتاكة تطوراً وبمساعدة امريكا من جهة والاتحاد السوفيتي وكوبا من جهة اخرى لاشعال حرب اهلية دامت ٢٧ سنة. جاءت المصالحة الوطنية في انغولا نتيجة ضغوط المجتمع الدولي لكن لا يمكن اغفال العامل المحلي حيث كانت المصالحة نابعة من الشعب نفسه وبمساعدة الكنائس الكاثوليكية. علما ان ٥٥% من الشعب الانغولي يعتنق الديانة المسيحية و ٤٧% بدين بديانات افريقية اخرى. اذ كان دور الكنائس رائدا في ترسيخ السلام بين كل فئات المجتمع الانغولي. فقد بدأت الكنائس بالتعاون بين بعضها البعض في تأسيس شبكة للاتصالات والحوار واللقاء في كل ارجاء انغولا للوصول إلى المتضررين والمصابين من ابناء الشعب الانغولي ومساعدتهم. وكانت احدى اسس تقبل

المصالحة هي تعلم التسامح والصفح عن أخطاء الماضي. وهذا التفبول ناتج عن إيمان والتزام مواطني انغولا بكينونتهم ودينهم. فالتحدث بكل حرية في الاعلام وامام المجتمع الدولي عن الاعمال التي حدثت في اثناء الحرب الاهلية هو اكبر علاج للقناعة بالسلام ومد يد المصافحة وفتح صفحة جديدة في تاريخهم الاليم. وقدمت الكنيسة الكاثوليكية كل المساعدة لرعاياها لارجاع الثقة في نفوسهم المحطمة من الحروب والقهر وتقويتها لان السلم يبدأ في داخل القلوب ثم ينتقل عبر التداول والحوار الوطني بين الاخرين. اما عن المناطق الداخلية في الجزء الشرقي من الدولة حيث تحتفظ هذه المناطق بعاداتها الافريقية تحت سلطة النظام القبائلي القديم فقد تم احترام هذه العادات والتقاليد وتضمنتها عملية المصالحة، فرئيس القبيلة المسمى بالـ"سوبا" يستمع لاراء وشكاوى رعاياه بكل صبر وأناة في مكان كبير مستدير، مغطى بالخشب يسمى الـ"اوندانكو" وهو موقع تجتمع فيه كل افراد العشيرة. فهو ملتقى وبرلمان تقليدي ومحكمة ومضيف للزوار.

عندما بدأ برنامج نزع السلاح وتفكيك المقاومة وإعادة تركيب وحدات الجيش الانغولي قام العديد من الشبان المقاتلين بالعودة إلى قراهم وإلى عشائرهم. فإن كان بين أفراد القبيلة من يعتقد أنّ العائد هو أحد قتلى الحرب، فعلى كافة أفراد القرية التوجّه لإستقبال العائد وإشعال موقد نار لطهو الطعام واعطائة جرة يقوم بتحطيمها والمشي فوق حطامها. ومن قتل أحدا في الحرب وعاد إلى اهله عليه ان يغتسل بالماء ويغير ثيابه وبعد عملية الغسل لا يتحدث عن ماضيه على الاطلاق. فالقاتل عليه ان يطهر جسده من الحرب وايضا عليه ان يطهر نفسه حتى لا تقوم روح المقتول بالدخول في روح القاتل وتتصرف في عقليته حسب المعتقد الانغولي. تطهير النفس يبدأ بالحديث مع رئيس القبيلة فهو يقوم بالاستماع الى ما يقصه عليه القاتل وبعد ذلك يقوم باعطاء القاتل النصائح والارشادات في حياته الجديدة وهذا التقليد يسمى "مسح الحرب" او عملية النقاهة. هناك معتقد اخر وهو ترسيخ السلام عبر منادأة الاجداد. في انغولا عندما كانوا يقومون بتشييع جنازة احد ذويهم يقوم رئيس العشيرة بسكب شراب فوق تربة الميت كرمز بانه سوف لن ينساه احد. وبعده لن يحدث شجار ولا أية مشاكل. في اثناء توقيع اتفاقيات السلام بين الاطراف الانغولية المتناحرة كان الموقعون يمكنون الشراب كرمز لعدم نسيانهم لاجدادهم الموتى ولإحترامهم لكي لا يغضبوا وكذلك لترسيخ السلم والمصالحة بين بعضهم البعض. هذا التقليد هو قَسَمٌ بأرواح الأجداد. فحسب المعتقد الانغولي إذا غضب الاجداد فسوف يأخذون بثأرهم وينشرون الحقد والامراض والحروب. كانت حكمة رؤساء العشائر والتمسك بالعادات والتقاليد المحلية والحوار والاصغاء إلى كل مشكلة في القرية وتبادل الحوار ما بين رؤساء القبائل الاخرى عبر عقد الندوات والمؤتمرات وبحضور مراقبين دوليين والعمل على التواصل في هذا المسير، كل هذه العوامل مكنت عملية المصالحة والسلم وعبر توظيف للعادات والتقاليد، من دفع الشعب الانغولي الى تدشين بداية جديدة والوقوف من جديد على ارض سوداء يغطيها ركام الحروب الاهلية.

"الابونتو" وصفة الخلاص لافريقيا

تدعى في لغة الكزوسا والزولو "أوبونتو"، هذه الكلمة تختصر الروح الحقيقية لافريقيا. وفي لغة الكزوسا تلفظ الجملة كالتالي: "أبونتو أونغامنتو نغابانيي" وتعني "الناس هم ناس من خلال الناس الآخرين". وفي لغة الزولو تلفظ على الشكل الاتي "امنتو نغومنتو نغابانيي" وتعني "الإنسان هو انسان من خلال أناس اخرين" وفي لغة السوثو تسمى بوثو اما في لغة الفندا فتسمى فيوثو. وهي كلمات تتردد اصداؤها عبر قرون من التقاليد الافريقية الاجتماعية. وتتحدث عن بناء المجتمع وعن احترام أساسي للطبيعة الانسانية، عن المشاركة والتعاطف والتحمل والصالح العام والرحمة. هذه كلمات كلها تشكل الانسانية الافريقية. أوبونتو تحكي عن جوهر ان تكون انسانا وتحمل في داخلها الاهتمام بالآخرين والرغبة في قطع مسافة أكبر من أجل مساعدة الآخرين. اننا نؤمن أن الانسان هو انسان من خلال إنسان آخر. وأن انسانيتي معلقة بانسانيتك بشكل لا يمكن انتزاعه. وعندما اجردك من انسانيتك فإنني أجرد نفسي من انسانيتي دون منازع فالانسان الذي يعيش لنفسه هو شيء يتناقض مع الإنسانية. قدمت هذه الصفة الافريقية الخلاص لافريقيا من خلال سعيها الى لأم جراح الماضي الرهيبة وصياغة مستقبل مشترك. تبدأ ادبيات الأبونتو بالاتصال المباشر

والمفتوح او كما يقول الصحفي الافريقي المبشر بالأبونتو (خابا ماخيز): تعلمو اكيف تحيونني وسوف اتعلم كيف أحييكم وبعد ان نقوم بالتحية نصافح بعضنا البعض. والمصافحة هي أكثر ما يوحد الناس وهي طريقة أخرى للدق على أبواب القلوب. طريقة اخرى لزراعة الإنسانية المشتركة. وتشمل الادبيات الاخرى للإبونتو: الشورى، الحلول الوسط، التعاون، روح الرفاقية، الصلاح، والرحمة التي هي من اكبر الادبيات. وتستخدم لغة الكي سو احيلي كلمة عامية هي "هارامبي" اي (تحقيق النصر معا) وتعني عندما يصحو الناس على ميزة السير معا مرة اخرى لتحقيق هدف مشترك. كما انها تعني معادلة رابحة. وما يجمع كل هذه المعاني هي "ابونتو" وقد اصبح هذا المبدأ الاخلاقي الذي يدور حول الإبونتو اكثر من مجرد عبارة مقتبسة. فتحية الافريقي الجنوبي ليست عبارة كيف حالك؟ بل عبارة احكي لي قصتك. لقد تم كسر الصورة النمطية التي تتخذق في أسس العلاقات في جنوب افريقيا اذ يقول الافريقي الجنوبي كريس مان "ان اللحمة بيننا لن تبدأ بالظهور ولن يتحول الاختلاف الى وحدة الا عندما يتم ادراك فرديتنا كبشر، في القانون وفي العمل وفي علاقاتنا الشخصية.... والعلاقة التي تربط الافريقيين بأجدادهم أو ظلالهم هي المفتاح لادراك معنى الفردية الافريقية والتي ترى في الفرد كناتج يتأثر بتجمع من الحضور بالاضافة الى تأثر حياتنا اليومية بالعديد من المخلوقات الحية حولنا" ويستنتج مان بأن هذا الايمان تحركه طاقة جوهرية هي النفس، الا ان الروح ليست كيانات مغلقة ولا مقيدة بشخصيتها مثل (الاوطان تحت حكم الفصل العنصري) بل ان افضل ما توصف به هو كونها "مجتمعات من الظلال". يقول مان ان الابونتو يتحدى الفصل العنصري في داخلنا وفي أرواحنا والذي أثر على الجميع ويضيف ان جنوب افريقيا لا يمكن ان تزدهر الا عندما نتعامل مع هذا الفاصل الداخلي والخارجي. وقد كانت اتفاقية السلام الوطني في جنوب افريقيا ١٩٩١ تعبيرا عن روح الابونتو من نواح عديدة فقد قدمت منهجا للإفريقيين الجنوبيين كأفراد من جميع الاعراق ليتحملوا مسؤولية المصالحة الجماعية ولأم الجراح. حيث كان عليهم ان يعثروا في داخلهم على الرحمة والكرم والتواضع والأمل وإرادة المحاولة والمغامرة، كان عليهم ان يواجهوا الخوف وشعور عدم التناسب وشرعية الفصل العنصري التي سببت الإلم الداخلي للظالم والمظلوم. كان عليهم ان يتعلموا المحبة بدل الخوف من بعضهم البعض ويحولوا المحبة الى عمل فيما يقومون لاول مرة بالتعرف على بعضهم البعض.

المصادر

١-التقرير السنوي للمركز الدولي للعدالة الانتقالية ٢٠٠٤-٢٠٠٥

٢-سيادة القانون والعدالة الانتقالية في مجتمعات الصراع وما بعد الصراع ، تقرير الامين العام المقدم الى مجلس الامن في ٢٣ اوغست ٢٠٠٤ -وثيقة الامم المتحدة S/2004/616

٣-صامويل هنتنجتون ، صدام الحضارات – اعادة صنع النظام العالمي ، ترجمة طلعت الشايب ، اصدارات سطور ١٩٩٨

٤-سوزان كولن ماركس ، مراقبة الربح -حل النزاعات خلال انتقال جنوب افريقيا الى الديمقراطية ، الاهلية ، عمان ، ٢٠٠٤

٥-روي عثمان وديفد ريفف (تحرير) : جرائم الحرب – ماذا ينبغي على الجمهور معرفته ، ترجمة غازي مسعود ، نشر دار ازمنة ، عمان ، ٢٠٠٣

٦-مارك فريمان وبريسيلا ب. هايز ، المصارحة ، المركز الدولي للعدالة الانتقالية ، سلسلة دراسات مترجمة

٧-مارك فريمان وبريسيلا ب. هايز ، لجنة الحقيقة في جنوب افريقيا وغواتيمالا ، المركز الدولي للعدالة الانتقالية ، سلسلة دراسات مترجمة

٨-نيل ج كريتز ، التقدم والتواضع ، البحث المتواصل عن العدالة في حالات ما بعد انتهاء الصراع ، المركز الدولي للعدالة الانتقالية ، سلسلة دراسات مترجمة

٩- حسن الحاج علي احمد ، الدولة الافريقية ونظريات العلاقات الدولية ، مجلة السياسية الدولية ، العدد ١٦٠ لسنة ٢٠٠٥

١٠-المصالحة الوطنية في تغول ، مقال منشور على شبكة المعلومات الدولية(الانترنيت)

فضاء الأسئلة الجديدة

قراءة في السرد العربي القديم

- الرؤيا مكونا سرديا: مخطط أولي لبيان وظيفة الرؤيا في كتب التراجم
- جمالية المواجهة في شعرية الرسالة
- الهامش يصعد الى المتن: الجدار حاملا شذرات المدونة
- مأزق الاثبات والنقض: مقاربة لنص تراثي ملتبس
- غواية المعنى وجمالية الخبر
- نسيج السرد وفضاء التأويل في رسالة الصاهل والشاحج

لستُ راغباً في التقديم لملفٍ أو كتاب، ذلك أنني أخشى من آفتين: تفخيم ذاتي وجعلها موضع الإجازة، ومصادرة حق القارئ في اختيار منظور القراءة ومكابدتها بنفسه. ومع ذلك، أنا مرغم على هذا التقديم، تحت نكزات طلب لا يردّ. وها أنذا أكتبُ وأبكي، فلم يشفع لي أنني أضربتُ عن النشر داخل هذا البلد، وأوقفتُ كلّ نشاط ثقافي احتجاجاً على إبادة الأبرياء، وآخرهم الأربعة الذين قدمهم صالح زامل قرباناً لوطن مُثّل بجسده على أربع جهات.

انتهاك الصمت

ناظم عودة

أمارس الآن كتابة هذا التقديم، تحت إيقاع رحيلي المحتم، وتحت إيقاع الإبادة، إذ سمعتُ أذني وشاهدت عيني وعلت يدي الدم الحار من على الجدران والأرصفة. كيف، إذن، أصف الواقعة، ونسان اللغة مقطوع بمقربة من ذلك الدم؟ كيف أزاول سرد الواقعة، والسرد الذي فوق العيون المعصوبة التي أغمضتها بيدي، غابة تتفرع، وتتشابك، وتستطيل باتجاه السماء الصامتة؟

ليطمئن قارئي، لا أريد أن أتوقف عن الكتابة؛ لأنها مقاومتي الوحيدة، ومحكمتي الوحيدة لمقاضاة الذين تقنعوا بقناع زائف، ذبحونا بالقناع قبل السكين، وسنذبحهم بالرفض، بالكتابة النافرة، باللغة التي تجعل القناع يسقط.

وهكذا، لا أريد أن يكون هذا التقديم قناعاً، ويوسع القارئ أن يرفض أيّ قناع، مثلما بوسع الكتّاب المقدّم لهم أن يرفضوه. وأنا أجاهر بدعوة نبذ الأقنعة، ومنها

أن يكون هذا التقديم قناعاً للتفخيم أو المصادرة.

(٢)

أمامي، إذن، طائفة من الكتابات لملفّ عن: السرد، كما أخبرت بذلك. لكن كلمة: السرد، مضللة أصلاً، لأنها مفهوم يرفض أن يكون في سجن الدلالة. والكتابات التي بحوزتي، هي كذلك غير متجانسة في نظرتها إلى السرد، إنها مختلفة في: الرؤية، وأداة الكشف عن هذه الرؤية.

ومع ذلك، تكشف هذه الكتابات عن طبيعة: القراءة العراقية للأثر. ونسبة القراءة إلى (العراقية)، ليس من باب اكتساب دلالة عرقية، إنما تهدف إلى الإفصاح عن ميزة في هذه القراءة؛ ميزة التضمينات الذاتية، وتسلل الموروث الثقافي الذي ينشط ويزاول في الواقع، وكذلك تسلل الصراع الأنطولوجي ليصبح خلفية لا مرئية لتلك القراءة.

القراءة العراقية، ليست بريئة مطلقاً، إنها خليط من التضمينات، ولذلك تنشط فيها المقاربات التي تنقب عن: الشفرة التأويلية، بتعبير رولان بارت. إذن، لا بد من التأويل، لإيجاد مناسبة لإدماج الذات القارئة في متن المقروء.

وعلى هذا، فإنّ هذه الكتابات/ القراءات، تجعلنا نعيد بناء مفهوم: القراءة. فهو لا يقتصر على وظيفة معرفة (إدراك) الشفرات: الأثر، الظاهرة، النص، العلامات، وإنما هو كيفية استنطاق الذات القارئة التي ظلت صامتة طويلاً، ورياضتها على منح المحدّدات الشفرية الآنفة قيمة جمالية، أو أخلاقية، أو سياسية، أو ثقافية.

الشفرات ساكتة عادة، والذات لا تتوقف عن الكلام وطرح الأسئلة. وهكذا، تتحول الشفرات من سؤال مصكوك ومصوغ سلفاً، إلى فضاء لصكّ وصوغ الأسئلة الجديدة.

ونتيجة لهذا، فإنّ: القراءة العراقية، ليست معرفية، أو أنها لا يغلب عليها طابع القراءة المعرفية، بل طابع القراءة الذاتية؛ لأنّ الصراع الأنطولوجي لا يكتفي المعرفة لمواجهة الزوال، وإنما يكثف أو يحفّز الذات للذود عن البقاء.

(٣)

من قريب أو من بعيد، فإنّ هذه القراءات وقعت في شرك تضمين الذات، ذلك أنّ: السفر، عند العراقيين، هو دأب وواقع ومحال، وهو واضح وسرّ من الأسرار في الوقت نفسه. ولذا وقع العراقيون في غرام نصوص السفر، كمن يريد أن يقتنصّ، ويعرف السر في أن.

وهكذا، اختارت نادية غازي العزاوي: المكان القَلِق، أو المكان الذي بين مكانين، أو هو بتعبيرها المكان المطبوع بطابع: الوسطية. وبصرف النظر، عن عدم اعتبار القراءة العراقية برينة بإزاء المقروء، نتيجة لتعقيدات تاريخية وثقافية، فإنّ هذه الناقدة الجادة حاولت أن تجد تفسيراً لسيكولوجية قلق التردد، أو الإقدام والإحجام لنص نثري من نصوص أبي العلاء المعري. وأتاحت لها شخصيته الفنية ثقافياً، أن تنجز مقاربة بين عزلته ونوازعه النفسية المخبوءة تحت النسيج اللساني والأسلوبي لهذا النص، وبين الآثار السوسيو تاريخية التي صقت العزلة، وساهمت بتوجيه ثقافته هذا الاتجاه.

إنّ نص المعري هذا، محكم الإغلاق على ذلك النسيج الذي صنع تقابلات بلاغية مشحونة بالإيقاع النفسي لأبي العلاء. ومن المؤكد، أن هذا الإغلاق هو الذي دفع مقاربة العزاوي، إلى أن تمارس عملية تفكيك مغاليق هذا النص، لكي تطلقه في فضاء الدلالة التي أنتجها التفاعل بين: القراءة والمقروء.

وإذا كان هذا النص/ الرسالة، لم تصل إلى أهل المعرة وحفظت لاحقاً في ديوان رسائله حتى انتهت إلينا، فإنّ النصوص التي توقف عندها صالح زامل ومن قبله أبو الفرج الأصفهاني، هي نصوص معروضة للقراءة الجميع، لأنها مدونة على الجدران، يكتبها المسافرون ليقرأها المقيمون والمسافرون معاً.

لكن هذه الكتابات في قراءة صالح زامل، تتجاوز لحظتها التوثيقية لتكشف عن كونها حاملاً دلالياً يقترن

على نحو مباشر بالميثولوجيا، والأيديولوجيا، والتعبير عن الجوانب السيكولوجية الجمعية لدى مدوّني هذه الكتابات.

لقد وجد صالح زامل، أن هذه الكتابات التي لا تدخل في نطاق الكتابة ذات الإرث المؤسسي، بل في نطاق الكتابة المهملة، الفوضوية، غير الخاضعة للأعراف، المعبّرة عن لحظة انعتاق الذات من سجن العُرف والزمان والمكان.

وبسبب هذه المنظومة الدلالية المقترنة بالهامش/ المتن، فإنّ مقاربة صالح زامل، كانت أقرب إلى النظر في: الكتابة، لا النص. ذلك أن مواضعات النص مواضعات مورونة، مواضعات القراءات السابقة، ومواضعات المؤسسة التي تجيز النص. لكن الكتابة، مفهوم تتشكّل في ظروف أتاحت له الخروج على تلك المواضعات.

والكتابة، على نحو ما هو معروف، في الإرث البنيوي والتفكيكي والنقد الثقافي، ليست وسيلة لنقل المعنى، بل عنصر من عناصر المعنى، التي تشترك في إنتاجه أسوة بسائر العناصر. وإذا كانت نصوص الجدران، لا ترغب في محو الأثر المفضي إلى المعنى، فإن النصوص التي انتقاها عقيل عبد الحسين، تعمد إلى محو ذلك الأثر. ولذلك فإنّ هذه القراءة الموقفة، مارست لعبة التأويل مع شفرات النص، واختزلته إلى ثلاث شعب

النص

الشفرة مفكك الشفرة المعنى

واستنادا إلى هذه الثلاثية، تحوّل النص من قيمة لسانية مستقلة بذاتها، إلى قيمة شفرية لا تستغني قط عن خارج النص، أو ما سميناه: مفكك الشفرة، الذي هو خبرة ثقافية واجتماعية لها إمكانية الوصول إلى مفاتيح الشفرات المغلقة.

قراءة في السرد العربي القديم

إن هذا النوع من القراءة، الذي مارسه رولان بارت بامتياز ثم التأويليون الأمريكان، وبعض أقطاب نظرية التلقي، يحاول أن ينقل نقل النصّ من اللغة إلى العلامة، إذ تفقد اللغة عزيزة نطقها، وتتحول إلى كيان صامت، تتحول إلى علامة تحافظ على ذلك الصمت وتحرسه، الأمر الذي يجعل عملية تحديد المعنى لا تتحقق إلا بالتنقيب عن مفتاح هو خارج العلامة ضرورة.

وعلى هذا النهج، سارت قراءة قيس كاظم الجنابي، التي انشغلت بالوقوف على الشفرة الرمزية في رسالة: الصاهل والشاحج، لأبي العلاء المعري. ولأن هذه الرسالة تقوم على تقنية السرد والحوار على ألسنة الحيوانات، وهي تقنية عريقة في التراث السردي العربي، فإن قراءة هذا الناقد حاولت أن تستكشف الحركة السردية بين عالمين: العالم الحقيقي، والعالم الرمزي التخييلي. وعنيت هذه القراءة، بتحويل الرمز إلى قيمة ذات دلالات اجتماعية وسياسية.

(٤)

إنّ القراءات الأربع الأولى، كانت تعنى بتفسير مضامين بنى غير مفسّرة في النسيج النصّي، وهي بحاجة إلى إجراءات من خارج ذلك النسيج، لكي تتفاعل معه بغية الوصول إلى خزانة المعنى. ولذلك، حاولت هذه القراءات أن تقسم النص إلى ثلاثة أقسام: المؤلف، المقروء، القارئ. ويتيح لها هذا التقسيم، أن تلاحق تشتت المعنى المندسّ في بطانة هذه الأقسام. ذلك أن المعنى الذي لا تتمكن اللغة أو الحيل البلاغية، من إنجازه، سوف يضطرنا إلى النظر إلى ما وراء اللغة والبلاغة. وكلمة: ما وراء، هي العتبة المنهجية الأولى، التي ارتكنت هذه القراءات، لتأسيس نمط من العلاقة غير المنصّة، أو بتعبير آخر، لعله مجازيا، إخراج النص من سجن النصية وإطلاقه في فضاء الحياة، ومن ثمّ اختزال الحياة في نسيج النص نفسه.

إنها، لا ريب، لعبة لا تحسن أداءها إلا القلة؛ لأن

أداءها إلا الثقافة؛ لأن التوزيعات الشفوية، وموقع التكثيف اللغوية، ومحاولات التمويه التي يقوم بها المؤلف، لا تجيد التعامل معها إلا القراءة المدججة بذخيرة ثقافية، لها إمكانية انتهاك صمت التوزيعات والمواقع والمحاولات. فاختيار التأويل نهجا للقراءات المساهمة في هذا الملف، إنما هو ضرورة، أو هو لعبة لاختبار مدى استجابة النص إلى طرائق الاستنطاق.

(٥)

أما القراءتان المشتقيتان، فهما معنيتان بقضيتين:

١- استكشاف القانون؛ القانون السردي للرؤيا [سعيد عبد الهادي]، والقانون الجمالي للرسالة [لؤي حمزة عباس].

ما يجعل تلك (الرؤيا) و(الرسالة)، علامتين تقتضيان استعادة الإرث الدلالي المصاحب لهما من الأقوال، والتفسيرات، وإسناد الوظائف، وتشكيل الغايات.

لا شكّ في أنّ الحقلين اللذين تناولهما الناقدان سعيد ولؤي، وهما حقلا: الرؤيا، والرسالة، يملكان إمكانية الكشف عن تكرار جملة من الخصائص المميزة التي ينفردان بها، وتمنحهما طابع: النصية. ومع أنّ سعيد عبد الهادي، أفصح عن استعانته بمنهج الناقد الفرنسي البيفيوي غريماس (١٩١٧-...) المتخصص في السرديات وعلم الدلالة والسيميائيات، ذلك المنهج الذي يقوم على فرضية: استقلالية النص، لكنّ محاولة الكشف عن القانون السردي للرؤيا، أجوجته إلى إدراج التفسيرات المصاحبة في صلب: نصّ الرؤيا.

إنّ التراث العربي، يضمّ بين دفتيه متناً واسعاً من نصوص الرؤيا، وحسنا فعلَ سعيد بطرق هذا الموضوع. لكن ينبغي أن نعترف بتنوع المتن الرؤيوي في التراث الثقافي، وهو ما لا يمكّن حسمه في نمط واحد، إنه نسيج من: البناء اللاعقلاني، واللغة الميتافيزيقية، والوظيفة السيكولوجية المعقدة، بالإضافة إلى استعماله في عملية تناظرية ما بين: الذات الرائية التي تمارس الرؤيا، والذات المفسّرة التي تعقلن تلك الرؤيا وتنقلها إلى حيّز المعرفة أو الموعظة والاعتبار. هذه المنطقة من السرد، التي اتجهت إليها قراءة سعيد، تكتسب مزاياها لا من كونها واقعة تاريخية، وإنما باعتبارها ما أسميه: فرزة نصية، واقعة ما بين التاريخ والميتافيزيقا. وبسبب سلسلة الخصائص التي ذكرناها لنسيج الرؤيا، فإنها اقترنت في الخطاب الثقافي العربي بـ: التفسير؛ تفسير الرؤيا. ولكونها نصية شفوية، اقتضت على الدوام نمطا من التأويل، سواء أكان ذلك في التراث العربي، أو في التراث الفرويدي الذي جعل الأحلام هدفاً لتفسيرات التحليل النفسي.

على النقيض من ذلك، كانت قراءة الناقد لؤي حمزة عباس، تتعامل مع نصّ أكثر تماهيا في التاريخ، وهو: الرسالة، باعتبارها مغلفا على شيء من السريّة ما بين شخصيتين: المرسل، والمرسل إليه. ولا شكّ في أنّ بناء الرسالة، لا تتحكم فيه الاعتبارات النصية الموروثة، التي تقوم بتعديل الخطاب ليتسجم مع توجهات الجمهور المخاطب، بل الذي يتحكم فيها الوضع السايكولوجي الآني بين المتراسلين. ومن هنا فإنّ الرسالة، تخضع للمنظور التاريخي، وملابساته، ودلالاته المتغيرة، وأخيراً نمط ثقافته.

إنّ أهمية ما أنجزه الناقد لؤي حمزة عباس، يتمثل في أنه أراد: تجنيس الرسالة، وجعلها نوعا من الأنواع الأدبية الكلاسيكية. وفي ظني، أنّ محاولات دراسة النثر العربي الكلاسيكي، على وفق التصورات النظرية التي انطلق منها الناقدان لؤي وسعيد، والساعية إلى اكتشاف قانون: الرؤيا، والرسالة، وإضاءة الكثير من جوانبها، هي الخطوة التي يلزم أنْ تعضّد بخطوات أخرى، للوقوف على أسرار النثر المهمل، والغني بإشاراته ودلالاته.

عموماً، ينبغي أنْ نعترف بنجاح هذه القراءات في توكيد ما ذهبنا إليه في بداية الكلام، وهو عدم براءة القراءة العراقية، إذ توزعت هذه القراءات مابين: السفر/ الرحيل [بوصفه هدفاً وهاجساً للشخصية العراقية]، والرؤيا/ الأحلام [بوصفها من ردود الأفعال على واقع مثخن بالصراعات]، والرسالة [بوصفها جنساً من الكتابة يزدهر في ظروف الرحيل القسري].

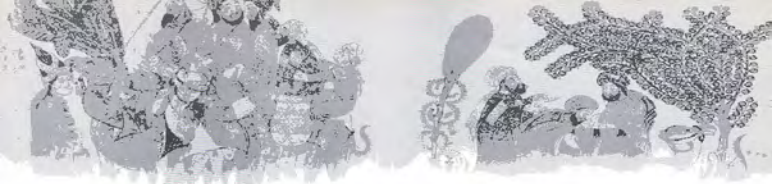

مأزق الاثبات والنقض:

مقاربة لنصّ تراثيّ مُلتبس

د. نادية غازي العزاوي

(١)

على مشارف الأربعين من عمره أعلن أبو العلاء المعريّ هذا البيان: (هذا كتابٌ الى السكن المقيم بالمعرّة، شملهم الله بالسعادة، من أحمد بن عبد الله بن سليمان خصّ به من عرفه ودانه، سلم الله الجماعة و لا أسلمها، ولم شعثها و لا ألمها، أما الآن فهذه مناجاتي اياهم منصرفي عن العراق: مجتمع أهل الجدل، وموطن بقية السلف، بعد أن قضيت الحداثة فانقضت، وودّعت الشبيبة فمضت، وجليت الدهر أشطره، وجربت خيره وشره، فوجدت أوفق ما أصنعه في ايام الحياة، عزلة تجعلني من الناس كبارح الأروي من سانح النعام، وما ألوت نصيحة لنفسي، و لا قصرت في اجتذاب المنفعة الى حيزي، فأجمعت على ذلك، واستخرت الله فيه، بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم، فكلهم رأهُ حزماً، وعدّه اذا تم رشداً، وهو

أمر أسري عليه بليل قضى برقه، وخبت بـه النعامة، ليس بنتيج الساعة، و لا ربيب الشـهر و السـنة، ولكنه غذي الحقب القادمة، وسليل الفكر الطويل. وبـادرت أعلامهم ذلك مخافة أن ينقضل منهم متفضل بالنهوض الى المنزل الجارية عادتي بسكناه، ليلقـاني فيه فيتعذرَ ذلك عليه، فأكون قد جمعت بين سجين: سـيء الأدب وسوء القطيعة. ورب ملوم لا ذنب له، والمثل السـائرُ (خل أمراً وما اختار) وما سمحت القرونَ بالاياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة: نبذةً كنبذة فتيق النجوء، و انقضـاضـا من العالم كانقضاب القاتية من القوب، وثباتاً في البلد ان جال أهله من خوف الرُّوم. فانّ أبى من يشـفق عليّ أو يظهرُ الشفق الا النفرة مع السواد كانت نفرة الأغفر أو الأدماء. وأحلف ما سافرت أسـتكثر من النشـب، و لا أتكثر بلقاء الرجال، ولكن أثرتُ الاقـامة بـدار العلم فشاهدتُ أنفس مكان لم يسـعف الزمنُ بالمـامتي فيه. والجاهل مغالب القدر. فليهبت عسا اسـتأثر بـه الزمان والله يجعلهم أحـلاس الأوطان، لا أحـلاس الخيل والركاب، ويسبغ عليهم النعمة سبوغ القمراء الطلقـة على الظبي الغرير، ويحسنُ جزاء البـغداديين، فلقـد وصفوني بما لا أستحقه، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم، وعرضوا عليّ اموالهم عرضَ الجد، فصادفوني غير جذِل بالصنيعات، و لا هش الى معروف الأقـوام، ورحلت، وهم لرحـيلي كارهون، وحسبـي الله عليه يتوكل المتوكلون)(١).

يتأبّى هذا النصّ الاشكاليّ على وصف دقيق محدّد لحالة من "الوسطيّة" تسِمُ عناصره: زماناً ومكاناً وحـدثاً ورؤىً تجعله أقرب الى منوّلة المعتزلة: (منزلة بـين المنزلتين).

فالنصّ مكتوب في لحـظة زمنية متداخلة جداً بـين القرنين الرابـع والخامس الهجريين، وهو مكتوب في طريقِ عودة المعريّ من بغداد الى مسقط رأسه (معرّة النعمان)، لا هو في بغداد فتصفه بأنه قرار بغداديّ، و لا هو في الشام لتقول عنه: أنه شاميّ، اذ هو في المسـافة الكائنة بينهما، ولكنّه من جانب آخر (بغداديّ) اذ جرى التشاور في معطياته هناك مع بعض الثقات، وهو شاميّ أيضاً لانه نتاج تفكير سابق يعود بصاحبـه الى مسـقط اقامته في مدينته الأمّ.

والأهمّ من هذا وذاك ما يتضمنه النصّ من حدث أساسيّ هو لبّ البـيان، أعني: اعلان (العزلة) التي تفترض انقطاعاً واسـتغناءً عن (الاخر). ولكن قـراءة النص قراءة فاحصة لا تشعر باسـتيفاء هذه المعاني، فما أنّ أعلن قـراره في الشـطر الأول من النص حـتى عاد ليقوّض أسسه في الشطر الثاني، مَما شتّت مسار البيان من الخلوص لمشروع العزلة وفحـص اجراءاتها الى الانشـغال بمسـائل وتفصيلات أخرى شوّشـت على المفهوم السابق- كما سنرى.

وثمة زاوية اخرى لهذا التأرجح الملبس، فالنصّ يدّعي انتماءه لجنس (الرسائل)، ولكنه- في الحقيقـة- انتماء معلق بسبب بـعض المؤثرات الخارجيّة الطارئة التي أبـطلت وظيفته، فقـد أضلّ هذا النصّ طريقـه الى (المرسل اليه) المخصوص بالخطاب والمقصور عليه كما حـدّد المطلع: (هذا كتاب الى السـكن المقـيم بالمعرّة..... خصّ به من عرفه ودانا).

وبما يُفهم منه ضمنيا اسقـاط (البـعيد) و(الغريب) من حيّز الاعلان، ولكنّ المفارقة التاريخية تحدث بتحقـيقَ ما هو خلاف المطلوب، فـ(لم تصل هذه الرسـالة الى اهل المعرّة ولكنها حُفظت في ديوان رسائله حتى انتهت الينا)(٢).

لقد فقدت الرسالة خطّ ارسالها ومداه وأخطأت (المرسل اليه) وزمانه ومكانه فقـدت وظيفتها الحقيقـية فكانت رسالة (مع وقف التنفيذ)- اذا صحّ الوصف-.

(٢)

لم يكشف النصّ عن الأسباب الحقيقية لقرار العزلة بل أحاطها بمعالجة حذرة متكتمة ومتوارية خلف عبـارة حكميّة آمرة طاردة للفضول: (خلّ امرءاً وما اختـار)، ولكنه أفصح عن العوامل العامة التي هيّأت المناخ من

لاتخاذ القرار من قبيل: زوال الشباب، ومعاركة الحياة، معزّزة ببعض العوامل الخارجية المساعدة ومنها: المشورة والاستخارة التي تدل على قلق الذات وتردّدها في مواجهة قرارها الأصعب وعجزها عن الاكتفاء بقناعاتها الداخليّة، وكأنها ما زالت لم تستكمل بعدُ امتلاك الارادة أو الشجاعة اللازمتين للانقطاع الفعليّ عن (الآخر)، والا كيف يمكن فهمُ هذا التحوّل في الخطاب من اصرار الـ(أنا) على المضي في الامر قدماً في قوله: (وهو أمرٌ أسري عليه بليل قضى برقه وخبت به النعامة، ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ولكنه غذيّ الحقب القادمة وسليل الفكر الطويل) الى التلجلج ومحاولة الاستعانة بـ(الآخر) في قوله: (بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم، فكلهم رأه حزما وعدّه اذا تمّ رُشدا). تحاول القراءة هنا تقديم بعض الأسئلة المستفزّة: ماذا لو لمْ هؤلاء الثقات أدلوا له بغير الموافقة والاستحسان؟ أكانت المشورة ستدفع بالقرار نحو منعطف مغاير؟ أي التخلّيّ عن فكرة العزلة نهائيّاً؟ واذا كان القرار نتيج التفكير الطويل فما الحاجة أصلاً الى رأي الآخر مادامت العزلة في الأساس محاولة لاثبات رؤية جديدة للوجود البشريّ قوامها الاكتفاء بامكانات الذات وتحدّيّ الفلسفة التقليدية التي لا ترى في الانسان الاّ كائنا اجتماعياً لا غنى له عن الآخر لادامة سَيْر معاشه، على هذه الأرض؟ ان خيار العزلة عند المعريّ محاولة لخرقِ مفهوم هذه الفلسفة التي استصغرت امكانات الذات القادرة بتقديم تجربته أنموذجا تطبيقيّا على امكانية هذا الخرق، ولكن هل نجح في هذا المسعى حقّاً؟ لقد أرادها في بيانه عزلة صارمة مقيّدة بثلاثة ضوابط:

* عزلة مكانية تُقصيه عن مَعترك الحياة (كنبذة فتيق النجوم).

قراءة في السرد العربي القديم

* عزلة اجتماعية تُخرجه عن وصاية (العالم) عليه اخراجا نهائيا لا رجوع اليه، وقد مثّل لها بصورة ظريفة ولكنها دالة: (كانقضاب القانية من القلوب) فلا خيار أمام (الفرخ) الخارج من (بيضته) الاّ المغادرة واللاعودة.

* وعزلة سياسيّة تتحدّى الواقع السياسيّ المضطرب الذي عاش فيه: (وثباتاً في البلد انْ جال أهله من خوف الروم)..

(٣)

كان من المتوقع أن يسير النصّ على هذا الاتجاه في المعالجة من توضيح الاجراءات العملية ولكننا نفاجأ في القسم الثاني من البيان باستطرادات جانبيّة تمّ عن هواجس حقيقية ما زالت تدوّم في رأس المعريّ فتفسد عليه خلوته وتحول بينه وبين قراره، هواجس أقلّ ما يقال في وصفها أنها ما زالت تضع ردّة فعل (الآخر) نصب عينها ولم تتخلص بعدُ من تبعات علاقته به، بل بدا في بعض المواضع حريصاً على مراعاة قواعد اللياقة في المعاشرة الاجتماعية، وذيّل نصّه بتقديم مبرّرات لسفره المفاجئ الى بغداد وكأنه يعتذر ضمنيا لهذا (الاخر) ويبرّئ ساحته أمامه من ظنون واتهامات، وما كان أغناه عن هذه القلاقل كلّها ما دام قد عزم على أمر أراد له أن يكون بداية جديدة بمعزل عن مواضعات البشر واساليبهم المريبة في التفكير والتأويل واصدار الاحكام.

وكيف يمكن توجيه استطراده الى وصف فضائل البغداديين إنْ لم تكن اهتماماً بشؤون الناس وشجونهم ما زال قائماً في نفسه؟ وعلام هذا الاستهلال بالجمل الدعائيّة؟ وانْ كانت من آداب المخاطبة فانّ فيها إشارات اجتماعية وسياسية تثبت انشغالا بأمور معينة: (سلّم الله الجماعة ولا

أســـلمها، ولمْ شعثها ولا ألمها..... والله يجعلهم أحلاس الأوطان لا أحلاس الخيل والركاب).

لم يسدل المعريّ ستاراً كثيفاً حاجباً بينه وبين المجتمع كما زعم ورغب، ولكنه أحدث فيه ثقوباً معينة أتاحت له أن يديم صلة من نوع ما بالحياة من حوله ضمن حدود معينة وشروط صارمة فرضها هو.

لقـــد جاء هذا النصّ تمثيلاً صادقاً لطبيعة المأزق، مأزق (العزلة) ليس على مســـتوى التنظير والاعلان، بـــل على مســـتوى التنفيذ الفعليّ الممكن لها فظل متأرجحاً بين وضعين دقيقين جداً بـــين (العزلة التامة والمنقـــوصة): (فانه وإنْ زهد في كلّ لذات الحياة لا يستطيع أن يزهد في العلـــم والتأليـــف اللذين قد ملكاه واســـتأثرا بـــه وكلاهما يكلفه عشـــرة الناس لاحـــتياجه الى مَنْ يقـــرأ له ويكتب عنه، لذلك لم ينبتْ بعد استقراره بالمعرّة أن اشـــتغل بالتعليم فالتفّ حـــوله الطلاب وأخذوا يدرسون عليه اللغة وآدابـــها وما هو الاّ الزمن القليل حتى كثر ســـوادهم حـــوله ثم لم تمض على هذه الحال أعوام حـــتى أخذ الناس يزورونه ويكتبـــون اليه فاستحالت عزلته الى أشدّ أنواع المعاشـــرة، على أنّه لم يأسف لفوات هذه العزلة لأنه وان كثر اختلاطه بالناس فانه لم يصلهُ بـــهم الاّ العلم وليس في العلم ما يؤذيه أو يسوء)(٣).

ولم يتحقّق له الانقطاع الكليّ عن (خاصّتـــه ومنْ عرفـــه وداناه) كما كان يريد الاّ بعد موته، ولكنه انقطاع مبـــعثه الاهمال والنســـيان مّما هو مألوف من تقـــاليد الجحـــود العريقة عند (الأحياء) بازاء (الأموات) وعلى نحو ما أثر ابـــن خلكان من مشـــاهدته العيانيّة: (وقبره في ساحة من دور أهله، وعلى الساحة باب صغير قديم، وهو على غاية ما يكون من الاهمال وتـــرك القـــيام بمصالحـــه، وأهله لا يحتفلون به)(٤).

١- تجديد ذكرى أبي العلاء، طه حسين، مطبـــعة المعارف، ط٣، ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧م؛ ص ١٦٥- ١٦٦، الحلس وجمعها أحلاس للذين يلزمون الشيء ويلازمونه.

٢-

٣- المصدر نفسه، ص١٦٩.

٤- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م، ج١، ص١١٥.

الهوامش

لا أظن اثارة الكتابة عن الجدار مقترنة فقط بجدارين شغلا في العصر الحديث مساحة كبيرة من الاهتمام؛ أولهما جدار برلين ساعة زواله سنة ١٩٨٩ والضجة التي رافقته عند سقوطه، والجدار الثاني هو مجموعة جدران الجامعة الفرنسية في سنوات ثورة الطلاب ١٩٦٨،

الجدار حاملا شذرات المدونة

الهامش يصعد إلى المتن

صالح زامك

الأول كان يظن أنه فاصل كما يُعتقد بين عالمين؛ الرأسمالية، والاشتراكية، وقد شيد سنة ١٩٦١ بعد الحرب العالمية الثانية وسقوط هتلر بسنوات، والثاني كان حاملا شذرات الصراع الفكري الذي ساد الجامعة الفرنسية في كتابات احتلت الجدران و"إن أول ما يطالعنا عبر هذه الكتابات الحائطية هو الإقرار الأولي بأن الجدران تتكلم، فالجدار هنا لم يصبح رمزا لسيادة المؤسسة الثقافية الجامعية، ليس سياجا اسمنتيا يحفظ الجامعة من غارات الفكر المنحرف أو المتوحش، إنه أشبه ما يكون بورش فنان حيث ألوان الكتابات- الشذرات تتقاطع وتتراص"(١) والكتابات ذاتها تعي هذه الممارسة، إنها تكرس الرفض للأيديولوجيات العتيقة كما رفضت كل تحديث لها، إذ ظلت تبحث عن تغيير جذري لها، ينتمي لثقافة ظلت هامشا خارج الجامعة، وينظر إليها بتعال على اعتبارها فكرا وحشيا، إذ نقرأ أحد النقول من هذه الجدران "الجدران تتكلم

فلنستمع إذن ولنصغ لكن باسم مَنْ تتحدث هذه الجدران؟(٢) وجهل هذا الإشهار لهويته يخرجه من الخبوية ويعزز انتماءه للهامشية.

وهناك ظاهرتان رومانسيتان تقترنان بالجدار؛ إحداهما بيت جولييت في مدينة فيرونا بإيطاليا، حيث ينزل إليه الشباب للسياحة، ويدونون على حيطانه كلمات لها وجهة واحدة، هي الحب، والعشق، والوله، والغرام، وجدران البيت تشبه لوحة رائعة ممتلئة بحروف من كل لغات العالم(٣)، والثانية جدران قاعة الفينيق في عمّان، إذ يحمل أحد جدرانها جدارية حرة لتواقيع الأدباء والفنانين الذين يمرون بعمّان، ومنهم الغرباء من العراقيين.

أما الإثارة الأكثر صلة، فهي تعود لسلوات (التلكوين)، وتولدت من كثرة الإمعان بجدران الغرفة الكبيرة التي أوي إليها، فأراقب أحد جدرانها عن قرب، وفي مواجهته حيث الرطوبة في الشتاء، وتعرّق الأجساد المتكئة للجدار في الصيف، تترك آثارا عليه، فضلا عن التصدعات والشقوق التي تفترن بعمر الجدار، وهناك خزوز وأخاديد عبثية بشفرات الأطفال أو الكبار، وهي كلما أمعنت النظر فيها كانت تتبدى عن أشكال وهيئات يكمل نحتها الخيال لأشخاص بهيآت أسطورية، وحيوانات بهياكل ديناصورية.

وفي الفضاء لا يمكن تجاوز الجدار/الحائط، فهو محدد لانفتاحه واتساعه، وقد يخلق الإنسان له فضاء محددا داخله، وهذا التسوير يشكل جزءا من الحضارة، حيث أخذ الإنسان يعزل فيها خصوصياته، التي ظلت تتعقد وتزيد مع الزمن، بل زاد من عدد الجدران في المكان الواحد، ليضيّق الفراغ ولا يتركه محتكرا للفضاء وحده، وكان مع الحضارة يتقلن هذا الإنسان في تضييق الفضاء، أو توسيعه في المكان المحدد الواحد من خلال تقنيات تعد جزءا من الجدار كالدهان مثلا، وتوصّل إلى أن الألوان الفاتحة منه كالبياض، مثلا، مما يوسع فضاءه ويزيد انفتاحه، والألوان الغامقة مما يضيّقه، فضلا عن التحكم بانفتاح فضاء الجدار من خلال الإضاءة والأيقونات، التي تمثلها اللوحة والصورة والزهرية وكل ما يمكن تعليقه على الجدار.

وعنيت عامة الناس منهم باختيار الخطوط التي ترسم النص من الكتب السماوية، وما يتصل به من مقدس كأسماء الأنبياء والأئمة والأولياء، وحتى العامة من الأميين تعنى باقتناء هذه الخطوط التي لا تتراسل معها كتابة وقراءة، فهي وإن كانت تحفظ النص أحيانا لكنها تعجز عن فك رموز الخطوط المكتوبة، ومع ذلك تقتني هذه الخطوط على أنها تميمة، فلدى المسلمين هناك آيات بذاتها يكثر اختيارها كالمعوذتين، والحمد، وآية الكرسي، إذ لا تكون الكتابة خالصة تماما للقراءة، كما نجدها عادة في الكتاب، وإنما تنحو الكلمة المكتوبة إلى أن تكون معادلة لحضور الإله في صورة مادية ما، وتكتسب الكلمة المكتوبة مقاما مقدسا أو أسطوريا يماثل ما تحمل عليه دلالة الآثار المادية، وهي علامة وإن كانت مهيمنة إلا أن التراسل معها لا يحمل على اللفظة عينها، ولكن يأتي من قدسية النص ذاته.

وهناك شفاء يحتلون مكانا واسعا من هذه الكتابة، فهناك الشفيع لطوائف كثيرة الذي يمثله (الإمام عليّ وآله) بما يرمز للبطولة والقوة والثبات على الحق، فلا يكتفون بهذا النداء (أدركني يا علي) بأن يكون شفاها، وإنما يدوّن على جدران السجون مثلا، ليكون معينا على تأكيد القوة والمواجهة مع الجبروت، بل يستغل استعاضي. وهناك شفيع السجناء الذي يتردد اسمه بين جدران السجون أيضا؛ هو (موسى بن جعفر)، باعتبار سجنه الطويل أيام الخليفة العباسي الرشيد، كما يتميز على هذه الجدران من الأنبياء (يوسف)، ونجاته من السجن، فنجد مثل هذه العبارة مكتوبة على أحد جدران السجون: (اللهم كما أخرجت يوسف وأعدته سالما إلى أهله أعدنا يا رب العالمين). فضلا عن عبارات مثل: (الصبر، الله، الحق يا علي، يا إلهي أعني في التحقيق، حياتي أمي، الحمد لله، الله نور السماوات)(٤)، فالصبر في مواجهة الابتلاء الذي يمثله السجن، وقوة الله في مواجهة قهر الإنسان، وبه يتحقق الإنصاف في الفكر

الديني، وهكذا تجد أن هذه العبارات توازي المحسنة أو أنها تحاول الوقوف في مواجهتها، أو القبول بها على أنها قدر لا راد له، وتتحقق في الكتابة، هنا، المساواة للفعل، واقصد ممارسة الكتابة كخط، إن لم تكن تذكيرا وتعويضا لهذا الفعل.

وتعود علاقة الإنسان بالجدار إلى عهود اكتشافه للكهوف، عندما وجد في جدرانها موضعا لتمائمه، التي جعلها في رسوم على قدر من العمدية لحيوانات غطت هذه الجدران، وهو قد يرهب بها حيوانات أخرى لا يستطيع دفعا لقوتها، أو محاولا تدجينها، أو هي تمثل تقديسا لطوطم، وهو يغرّب بهذه الرسوم قوته مستعيضا بها عن المواجهة الفعلية(٥)، فضلا عن التسلي الذي يعطيه هذا التعويض، إذ يخفف من حدة الضغط على النفس، "على أن الكثير من هذه العلاقات بما أنه لم يصدر منها أي شيء مفهوم، توفر دليلا على وجود إما تجربة مجهضة أو مجرد عمل من أجل المتعة، كان الإنسان القديم قد قام به على نحو حر"(٦). ويتيح الجدار استخدام تقنيات بسيطة، قد لا تختلف كثيرا عن بعض كتابات الجدران الحالية، كما أن هذه الأمكنة المنعزلة تتشابه في ممارستها، وبمضامين مدوناتها أحيانا على اختلاف الجغرافيا، فيسوق الاصفهاني أحد أخباره من غير بلاده "قرأت على صخرة بجزيرة قبرس(قبرص) مكتوبا.."(٧)، وهذا التشابه يقف على خلفية تتعين بأن هذه الكتابة تتيح الاشتغال على الذاكرة أكثر من أي شيء أو لا، ولأنها تنتمي على الأغلب إلى فئة تجد في الهامش ملاذا ثانيا، حيث لا تشترط فيها التقنيات التي هي قوام الكتابة التي تحتكر المتن عادة، كما تستغني عن الاعتراف الذي تحتاجه الكتابة، وبعد ذلك تكون لحظات التشابه هذه مثارا لشعور المرء بأنه قد مر بتجربة خيال مشتركة،

قراءة في السرد العربي القديم

وبرعشة تشارك لا يمكن التعبير عنها، تلك التي تقرب مع الكهوف مثلا حوالي ٣٥٠٠٠ عام من زمن الإنسان على الأرض، فتربط عصر ما قبل التاريخ بالوعي الحديث في إحساس إنساني مشترك، وتؤكد توحدنا في وعي مشترك بالشكل من شأنه أن يمحو الزمن(٨).

وفضلا عن الجغرافيا في المكان الواحد، فإن هذه الكتابة لا تفرق بين حائط مسجد وحائط بستان، وإن غلب اختيار المكان المنعزل، ويبدو أن الدافع لهذه الكتابة أو اختيار هذه الأمكنة المعزولة؛ هو محاولة اغتصاب العزلة التي يجسدها الجدار، وتمثل الكتابة قهرا لها، وهو ما يحقق التصاقا بالهامشية، وهي مثل "الأغاني و القصائد التي تذكي روح الاحتجاج و التحرر، تبدو على الدوام متقدمة أو متأخرة لا تمثل في الوجود إلا كحلم أو كذكرى، فهي تخص زمنا آخر غير الحاضر، وحتيتها تصون نفسها بهذا الأمل"(١).

الجدار والهامش

التقت بعض التآليف التراثية للهامشيين، وأفردت لهم صفحات متفرقة في تضاعيف الكتب، إن لم تكن في صورة تآليف متفردة، ولعل الجاحظ أحد أهم المؤلفين التراثيين في هذا الصدد، يليه أبو الفرج الاصفهاني، لنصل إلى تآليف مثل؛ عقلاء المجانين للنيسابوري، وأخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، ويعد كل منهما واحدا من الكتب التي كان انشغالها في هذا المجال الذي أسميناه بالهامش، إلا أنها تعالج نصا مغايرا اكتسب قبولا اجتماعيا، ويساور العامة أن له قدسية في الكثير من الأحيان، لأنه غالبا خطاب شفاهي متوجه لمتلقيه بشكل مباشر في المكان العام، كالسوق أو الشارع، فضلا عن ملامسته اليومي الذي يتصل بهموم الناس(١١).

لقد ألفنا العناية بالكتابة على الورق ورقاع الجلد، أو

حتى الكلام الشفاهي الذي تصدى له رجال يروونه ليجعلونه فيما بعد في مجموعات، كالتأليف التي جمعت لنا الشعر الجاهلي، أما أن يكون التأليف معنيا بالكتابة التي تختار الجدار حاملا مدونتها، فذلك ابتكار يتصدر فيه الاصفهاني غيره ممن ذكروا بعضا من أخباره، أو ما يشابهها في تضاعيف كتبهم.

إن هذه الدراسة تقف بشكل خاص أمام كتاب الاصفهاني (أدب الغرباء)، لفرادته وغرابته، ولا يصلنا تأليف مشابه في هذا الموضوع، وإن كان الالتفات لهذه المدونة على الجدران لا ينفرد به الاصفهاني وحده، وذلك ما يؤكده الاصفهاني أيضا، فينقل لنا في أحد أخباره ما يشير إلى أن هذه الظاهرة كانت من انشغالات آخرين، قد عنوا بنقل هذه المدونات، إذ يذكر "قعدت فحدثك بذلك أبا علي بن مهدي، فركب حتى وقف على الموضع وقرأ الشعر، وكتبه في كتاب كان بين يديه، يجمع فيه ما يشاهد من أخبار الناس"(١٢). ولعل التدوين لذلك عادة لدى بعض النخبة، وإن كانت محدودة، ينقل الاصفهاني في خبر آخر، عن أبي القاسم عيسى بن أحمد المنجم، إنه ينقل نصا مكتوبا على بقية جدار على جانب دفتر كان معه(١٣).

إن الهامشيين الذين يقف عندهم الاصفهاني، تتجلى فيهم العزلة، وتجنب الآخرين، ثم إن غياب المؤلف هو الذي يكتنف مدوناتهم، ويحقق انتماء المدونة للهامش ميزة اختلافية لها.

إن انتماء هذه الكتابة للهامش يأتي من جهة اتصال الكتابة أصلا بالنخبة، والأخيرة تكرس لونا من الكتابة من خلال تداولها وانتقائها في الصورة التي عليها صناعة الكتب، التي عنيت بعرضها فنة قديمة في أسواق خاصة، هي الوراقون، وهذا التعامل البضاعي جعل الكتابة أحيانا تأخذ قيمتها من الحامل للمدونة، فيمكن للنص أن يكتب على قطعة من ورق، كما يمكن أن يكتب على قطعة من جلد، إنه سيختلف باختلاف الحامل الذي يكتب عليه، ولعل معناه يتبدل، لكن قيمته ستتغير لا محالة، مثلما تتغير حسب المؤلف الذي يوقعه (أو الذي ينسب إليه)"(١٤).

ويؤكد الجاحظ في رسالة الجد والهزل اتصال قيمة المدونة بالحامل لها، فيقول ليس لدفاتر القطني أثمان في السوق، وإن كان فيها كل حديث طريف، ولطف مليح، وعلم نفيس، ولو عرضت عليهم عد لها في عدد الورق جلودا، ثم كان فيها كل شعر بارد، وكل حديث غث، لكانت أثمن، ولكانوا عليها أسرع"(١٥).

وبين قيمة الحامل التي يمثلها الجلد أو الورق ما تكون قيمة الجدار/الحائط "ليس الحامل المادي أمرا عرضيا أو دون دلالة، لهذا فكثيرا ما تدخل عليه تنقيحات، قد تكشف عن قصدها قليلا أو كثيرا بغية إظهاره بمظهر التقادم"(١٦).

هذا الحديث عن حامل مثل الجلد والورق والمفاضلة بينهما، والجدار يسقط في هذه المقابلة، لأنه هامش لا يلتفت إليه من هذه الوجهة، فالجدار ليس الورق ولا الجلد ثم كيف يتم انتقاؤه أو يلتفت لمحموله، بلا شك هذا يدفع بالجدار إلى أن يكون متصدرا الهامشية، وخطابا تعافه عموم النخبة، خاصة وهو لا يشكل جزءا من انشغالاتها الثقافية، وهو لا يباع ولا يشترى، ولا تدخل عليه تنقيحات الجلد، ولا يعنى بحفظه وتغليفه كما يعنى بالكتاب المرقوم على الورق، فهو مباح وعرضة لعاديات الزمن، لكنه مع ذلك أكثر إثارة للفضول، لأنه كامن على خطاب خارج النسق الذي ألفته النخبة في جرأته، وخارج الممارسة الحقيقية التي ألفاها للكتابة، وقد تعتني به بعض النخبة وتتناقله كما ذكر لنا الاصفهاني.

يفترض في هذا الجدار أن يكون معزولا، وقلما يكون مأهولا، والأخبار المعدودة في كتاب الاصفهاني التي كانت المدونة فيها على رقعة من الجلد، فإنها ترمي اعتباطا في باحة المسجد، والمؤلف للنص، عامدا، يختار أن يكون مجهولا، وهي بحسب مقدمة الاصفهاني يجب أن تكون خارج الوجهة التي أرادها لكتابه، وهي عزمه أن ينقل ما كتب على الجدران

قراءة في السرد العربي القديم

تحديدا، إذ يقول "وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إلى، وعرفته وسمعت به، وشاهدته من أخبار، من قال شعرا في غربة، ونطق عما به من كربه، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل مشرد عن أوطانه، ونازح الدار عن إخوانه، فكتب بما لقي على الجدران وباح بسره في كل حانة وبستان"(١٧).

ونحن نلمح ثيمة مشتركة بين المدونات هي من انشغالات الهامش، فقد جاءت عرضا لوجه معين من المشاكلة، لعله الغربة والكربة، والتبرم من قسوة الحياة.

ويفرد الاصفهاني في مفتتح أخباره ثلاثة أخبار من بين (٧٦) خبرا؛ أولها للمأمون، والثاني للمنصور، والثالث للواثق، وهو بهذا التقديم لا يقف عند حدود الاعتبار الاجتماعي الذي يفرضه التقديم المتتالي لأعلام من خاصة الخاصة، ولكن لكي يسوغ الموضوعة التي يعنى بها الكتاب، ويعطيها قبولا اجتماعيا، إذ يحتاج الهامش إلى أن يعترف به من النخبة، ويقارب من وجهة أخرى نسقا مألوفا في التأليف التراثية، عندما تهدى إلى أحد الأمراء أو الوزراء، وهو بأخذ هذا الاعتراف هنا بإيراد الأخبار الثلاثة التي تتحدث عن ممارسة الخلفاء لهذه الهامشية، وقد جعلها في المقدمة على سائر الأخبار، فيكون هذا التقديم محملا على دعوى المباركة لهذه الظاهرة.

ثم ينقل هذا الاعتبار إلى المادة عندما تباركها النخبة من الخاصة، لأنها تلتفت إلى ما هو هامش، وتتصفحه على الجدران، وتعطيه الاعتبار بالممارسة التي ترفعه ليكون متنا، فتكون هذه المشاركة بالالتفات من خلال القراءة والإضافة إليها، وهي عادة يتكلفون العناية بها ويمارسونها، لأنها ستتكرر في مواضع متفرقة من الكتاب(١٨)، لكن هذه الممارسة تبقى غير خالصة للهامش، وإنما يشوبها التكلف الفاضح برغبة التقمص التي تغري بالاكتشاف، كما يشوبها الانتماء الطبيعي للخاصة، فتكون في أحد أهم جوانبها عاطلة عن التواصل بشكل حقيقي مع الهامش، وذلك واضح عندما نقف عند خبر المأمون، فقد دخل كنيسة قديمة البناء بالشام، ولما أراد الخروج، قال لحاشيته: "من شأن الغرباء في الأسفار، ومن نزحت به الدار عن إخوانه وأترابه، إذا دخل موضعا مذكورا، ومشهدا مشهورا، أن يجعل لنفسه فيه أثرا، تبركا بدعاء ذوي الغربة، وأهل التقطع والسياحة، وقد أحببت أن أدخل في الجملة، فابغ لي دواة. فكتب على ما بين باب المذبح أبياتا(١٨).

فهو يخاطب حاشيته، ويتحدث عن أمر يحدده بأنه من شأن الغرباء أولا، ليؤكد أن هذه الممارسة تنتمي لمن دونه، وهو ما حددناه بالهامش، وإنما هو يمارسها على أنها عادة خصيصة بآخرين هم (الغرباء)، وهو يخرج على هذا المألوف، فما هو بمشرد ولا غريب، وثانيا هو يشفق عليهم بتعال من موضعه حيث الخاصة، وثالثا يحصر بغية كتابته بأنها في مساعدتهم، ثم هو لا يفارق علوّه وارتفاعه عن الهامش في الممارسة أيضا، عندما يجعل كتابته تحديدا في موضع بارز من المكان، وهو موضع من باب المذبح، ثم عندما يطلب الدواة لغرض كتابته، وهي لا تنتمي للهامش بل لهيئة المكتب والاستقرار، وأخيرا سيكون هناك شاهد على هذه الكتابة، الشاهد الذي سيجعلها مروية، في حين أصل هذه الكتابة أن تكون لصيقة بالمكان المعزول، تستخدم المتاح من الآلة المبذولة حيث تخضع لمحض الصدفة حتى في اكتشافها.

والمنصور هو الآخر في خبره يطلب فحمة لكتابته، ولا يحمل أداة مما هو متاح كخرقة أو حجارة أو كلس، ويستعير أبياتا للبيد يدونها على أحد حيطان قصر عبدويه، وتتصل الأبيات بالتنازع حيث يتحقق بنشوة السكر

بين رغبة الإنسان بالحياة وطول العمر وبين ما هو محكوم به من زوال فتكون ممارسة الكتابة وتحديدا على الجدار اعترافا بان الإنسان يعادل الروحاني الذي لا يترك أثرا ماديا إزاء الجدار الذي يحمل شاهدته، فالمنصور "لا يلبث إلا قليلا"(٢٠) بعد كتابته الأبيات، في حين نرى ان الواثق عندما انتشى - حسبت يتحقق بنشوة السكر الانقطاع عن عالمه الأصلي - يأخذ سكينا لطيفا ليكتب على أحد حيطان أبنية سر من رأى.

يتحول الجدار من العزلة والهامش إلى أن يكون بطلا وحاملا نصا يرتقي بكتاب الاصفهاني لأن يكون متنا، وهذا النص يميل للانفتاح لأن الأيدي التي تدونه فضلا عن كونها مجهولة، فهي متعددة من خلال السرود أو الإضافات التي يزيدها آخرون للنص الأصلي، وقد تنتمي إلى تاريخ بعيد كما يذكر أحد الأخبار، حيث يعود للشود "وجد على جبل بنواحي ديار ثمود كتابة منقورة في الصخرة تفسيرها: يا ابن آدم ما أغلمك لنفسك، ألا ترى إلى آثار الأولين، فتعتبر، وإلى عاقبة المنذرين، فتزدجر"(٢١)، وبإعطاء العمق الزمني لهذه الكتابة يحاول أن يسبغ عليها اعترافا بالقبول، فضلا عن تأصيل الحكمة التي لا تلين قوتها، بحيث تعادل قوة الصخر وعاديات الزمن لتصل عبره إلينا، لأن ثمود أهلكوا ولم يبق منهم باقية، ويبدو أن الحجارة أقوى على أن تواصلنا معهم.

استعارة مهنة الصراف

إن الاصفهاني يعتني في نقل النصوص بتنوع الخطوط، فيذكر إذا كانت بخط عربي أو بلغة أخرى، واضح أو غير واضح، أو يفرق بين ترتيب الخطوط، كذكره "وتحته مكتوب بغير ذاك الخط"، أو اختلاف ألوانها "قرأت على حائط خضراء روح مكتوبا بالسواد"(٢٢)، إذ إن ورود اللون في اسم المكان ذكره بلون الخط، وقد يكون لون الكتابة (الحمرة) حيث تعد الألوان في المكان يتطلب هذا التمييز "اجتزت بكنيسة الرّها عند مسيري إلى العراق، فدخلتها لأشاهد ما كنت أسمعه عنها، فبينا أنا في تطوافي، إذ رأيت على ركن من أركانها مكتوبا بالحمرة"(٢٣)، وقد يكون اللون (ماء الذهب) وهو ما يناسب المقام "وكان هارون الرشيد أنفذ إسحاق بن عمار إلى ملك الروم في السنة التي نزل فيها الرقة، فوجد في صدر مجلسه هذه الأبيات مكتوبة بالذهب"(٢٤)، أو أن بياض الحجر يلفت للسواد الذي كتبت به الكتابة "فلما قربنا من أحد أركان الحصن إذا عليه كتابة في بياض الحجر بسواد"(٢٥).

وأدوات الكتابة هي الأخرى يعنى الاصفهاني بتمييزها، فيغلب عليها البسيط والمهمل الذي ينتمي للهامش، كالسقط من الفحم والخرق والكلس، وكل ما هو متاح كالحجر وغيره، ومعدودة هي الأخبار التي تكون بقلم ودواة أو بسكين لطيفة أو فحمة خاصة، وهذا الوصف لا يكون غالبا إلا نقلا عن مروية ينقلها شاهد عيان، وليس عن مشاهدة عينية تالية، كخبر المأمون وهو يأمر أحد أتباعه أن "ابغ لي دواة"، فيخرج من أسر العزلة التي تميز هذه الكتابة إلى أن تكون بحضور الآخرين، وهذا فراق لمشاكلة حالها الذي يكون بالتدوين بآلة البسيطة، لتخضع الكتابة لخصوصية الخاصة، وكذا هو المنصور يأمر أن (أعطيني فحمة)، والواثق (لما انتشى أخذ سكينا لطيفا)، فهم من غير الهامشي، فتفقد الكتابة انتمائها الخالص لطقس المهمشين، إذ تحرص كتابتهم - فضلا عن ممارسة طقس الكتابة بدون تكلف - على غياب اسم المدون على الأقل.

وهذه العناية التي يختص بها الاصفهاني أدوات الكتابة، وأنواع الخطوط وألوانها أحيانا، هي لإيجاد وسيلة تعين على تمييز النصوص والتفريق بينها ما دامت المدونة لا تفصح عامدة عن كاتبها، أو لتسهم هذه العملية في الإفصاح عن المتن، فجزء من عناية الاصفهاني في أشهر تآليفه، وبشكل خاص (كتاب الأغاني)، و(مقاتل الطالبيين)، إنما تكون بأخبار الأعلام من الناس، وخاصة في الأول منها إذ يكون النص مفتاحا للحديث ن

عن قائله من خلال رده إليه، فكيف بالغياب الذي يكتنف هذا اللون من الكتابة على الجدران، ولعل هذا سبب آخر لجعله يقدم ثلاثة أخبار للمأمون والمنصور والواثق، لأنها مرويات توثق الكتابة لصاحبها، فتخرجها من أسر المجهول الذي سينشغل في تبديده عن بقية النصوص، وهو أمام نص لا يعرف قائله، ليكون الانشغال بالتمييز من خلال تقنيات الخط وأدواته يقربه إلى المعلوم، وبلا شك سيكون هذا الانشغال بالتفاصيل يبعث عليه رغبة لتمييز النصوص عن بعضها، فهي قد تعين على الاستعاضة عن مهمة ذكر المؤلف، وبأنها لمؤلفين متعددين، ثم ليجعل نفسه بعد ذلك في مأمن من الاتهام بصناعة الأخبار وتكلفها أو أن ينحل له ما ينقله من أخبار.

في كل هذا الكم من النصوص يعنى الاصفهاني بنقل ليس النص المكتوب أولا، وإنما يجهد في العناية بما يكتشفه من تعليقات حوله، وهو جزء من مهنته الأصلية في كتبه السابقة، كما ذكرنا، التي تحاول أن تميز القول وترده لأهله، فينقل الاصفهاني خبرا بهذا التقديم "واجتزت منذ سنيات بسر من رأى، فرأيت بقايا هذا البيت، وعلى حائط من حيطانه مكتوب"(٢٦) حيث المكتوب هو تعليق أحدهم على كتابة للواثق على أحد قصوره، ويذكر في موضع آخر وأسفل كتابه مكتوب(٢٧) وتحته مكتوب(٢٨) وتحته مكتوب بغير ذلك الخط(٢٩) ثم وجد بعد ذلك على حائط القبة مكتوبا(٣٠) وتحته مكتوب بغير ذلك الحبر والخط(٣١) يوحي بأن هناك كتابة بلغة أخرى، وتحته مكتوب بخط عربي(٣٢) يميز الاصفهاني بين الخطين أيهما الأصل المكتوب، وأيهما الرد عليه، فما هو مكتوب في الأعلى غالبا يعينه بأنه الأصل، والرد هو الذي تحته، أو أسفل منه، أو بجانب منه، فضلا عن المضمون خلال سياقه أن يعين أيهم الأسبق، إذا ما تعذر الوصول من موضع الكتابة للأقدم، فهو في أخباره يلتفت لصورة الخط، والأداة، والحبر، والاندثار، ووضوح الخط كمعيار للتمييز، وهذا يحيل فضلا عن تمييز النصوص عن بعضها البعض إلى أن هذا النص مقروء، ويشكل انشغالا لآخرين من المهمشين، بدليل الإضافات حوله، فيشجع على خروجه من الهامش إلى المتن، وهو ما يؤكده الاصفهاني في قوله "تعلم أن بعض السياح وذوي الغربة والأسفار، قد بلغ به الدهر إلى ذلك الموضع، فأجاب بما وجد"(٣٣).

كما يعنى بوضوح الخط واندثاره، كقوله "وإذا البيتان بخط أبي العباس قد خفيا وبقي أثر منهما، وإذا تحته مكتوب(٣٤)" وقد محا الاسمين طول العهد"(٣٥) كأنما يؤكد ترائبية الكلام، فهو ينتمي كما يرى لسياق واحد، وإن غياب المؤلف لا يمنع أن يكون بعضه إكمالا لبعض.

وهو قد يمارس هذه الكتابة كفعل، ويميزها في أكثر من خبر، فيقول "تذكرت ما مر بي في البحر وكتبت تحته"(٣٦) إن سردا مشحونا بالمغامرة.

كما يعنى بتمييز النوع الأدبي المكتوب والرد عليه، إن كان شعرا أو نثرا، كما يوثق أحيانا النص إن كان لشاعر معروف كتمييزه شعرا للبيد يستشهد به أحدهم.

بيت الهامش والنخبة

يعتبر الاصفهاني لفعله في جمع هذه الأخبار بأن هذه الكتابة من غير المهم، لكن الفراغ والوحدة، بانقطاع المراد هما اللذان يدفعان إليها، فيقول "ربما قاد الفراغ إلى التشاغل بغير مهم، ودعا التفرد إلى مقاربة النغص"(٣٧)، وهذا كله يؤكد أنما يدفع الرجل بنفسه عن هذا الهامش الذي وجد فيه عن أن العود إلى الماضي

قراءة في السرد العربي القديم

انشغالا وتسليما، إذ يقول قائل النص في بعض الأوقات بالنظر في أخبار الماضين وأحاديث السالفين"(٣٨)، وبهذا التبعيض للوقت الذي أخرجه عن صلب وقته المهيء يضفي من جهة أخرى الهامشية على هذه الكتابة. فضلا عن أن العود إلى الماضي يحقق نوعا من الارتياح، فهو يكتسب منزلة الرضا كونه ينتمي لزمن مستعاد، فالماضي في التقاليد الدينية أفضل من الحاضر، فيقولون: ما ترك الأولون للآخرين شيئا، والسابقون السابقون، "ولثلة من الأولين. وقلة من الآخرين"(٣٩)، وهذا التقديس للماضي يأتي بعضه من النظر إلى البناء الهرمي الذي ينظر للماضي باعتباره مؤسسا، وإن حضر الماضي في الآن، فينظر إليه على أن الحاضر لا يعدو أن يكون مكملا لذلك الأمس في أقصى أحواله، ومدينا له بالوجود.

الكتابة بوصفها فضاء تحقيق الرغبة (بيت الإباحة والبوح)

هناك رغبة تسيطر على الكثير من نصوص هذه الكتابة؛ هي الإباحة والبوح، وتخرج هاتان اللفظتان من جذر لغوي واحد، ولكنهما تفترقان وتلتقيان في غير موضع، فالأولى هي الخروج على الدين والعرف والتقاليد، وتحاول أن تسمو على الفعل الذي تمارسه الشرعية، لكنها على يقين من أنها تخرجه من حال المنع الذي يمثله الإجماع الديني إلى الأخذ الذي تمثله ممارسة الأفراد منعزلين، وهذا الإحساس بذاته (الخروج على الإجماع) يجعل ممارسته تكون بباطنة ومعزولة، وهي بالمحصلة ضد التحريم، المنع.

والإباحة في الكتابة التي تأخذ الجدار حاملا مدونتها لا يلتفت لجانبها الفقهي، وإنما هو ممارسة لفعل يشيع عليه كون المؤلف غائبا أو مجهولا، وعدم التعرف على ممارسه يجعله حرا، وفي حل من كل القيود التي من الممكن أن يلتفت لها النص المعلوم المؤلف، والفعل الذي تقصده الكتابة هنا، هو لذة الكتابة خالصة أحيانا، ثم تكون اللذة في رغبة نقل الإباحة للآخرين، إذ تمثل الثورة التي تكسر القيود بهذا الإشهار الذي يمثله سطح الجدار المتاح للكل.

إن هذه المدونة تخرج الجدار المادي الذي يتم اختياره، ليكون ساترا وحافظا لما خلفه- وهو المعنى الذي ورد فيه الجدار في القرآن أيضا(٤٠)- إلى الحيوية الفاضحة، التي تخرج على المستور، وهو معنى يشترك فيه الجدار والكفر، فالأخير يعني ستر الشيء وتغطيته، ليصبح الجدار رمزا للمكتوب، خاصة وهو نص لمن كتب بما لقي على الجدران وباح بسره في كل حانة وبستان(٤١)، فرغبة البوح التي تفترض الآخر، غير المعين، هي المحرك الذي يخرج السر من الواحد للافتضاح، ومن الطي إلى النشر.

تمثل هذه الكتابة فضاء لتحقيق الرغبة، لأنها تتبخر بالتصريح والعلوية، ولأنها خارج سلطة الرقيب على الأقل في مضمونها، والحائط يصبح معها رقعة مباحة، وهو بقدر ما يشير إلى حاجز لمعزول خلفه، يعادل في الجهة الأخرى نقيضه، وهو رغبة عارمة بالبوح، والبوح يكون لمحايد ليس له أن يرفض بشكل مباشر، بل هو يقبل العرض دون الاعتراض الذي يمثله الرقيب في أشكال الكتابة الأخرى، ولعل رغبة البوح الجنسي مثال لذلك، التي نجدها في الحمامات العامة، وفي المدارس أو المؤسسات، أو المركبات العامة، وهي تقف ضد سلطة الكبت الجنسي، وضد سلطة الإدارة والمعلم المتسلط، وهذا التصريح يدل عليه نوع الكتابة التي تعطي الكثير من هذه الفضاءات، ويحمل على الرغبة والمشاركة أو التهكم أحيانا أو الخزي، وهي تتحرك برغبة الحرية أو اللفت إلى أمر ما.

تختار الكتابة المكان المعزول غالبا والخرب بشكل خاص، لأن هناك انسجاما إلى حد ما مع الحال الهامشية التي تدونه، كما أن ممارسة البوح الذي هو من سمات هذه الكتابة يفرض العلاقة السرية، فأنت لا تبوح بشيء يستطيع الوصول إليه الآخر، وإنما بالمستور الذي يغري الآخر بأن يكتشفه ويكمل مدونته.

إن الكتابة تحاول أن تخلد لحظة ما، فضلا عن أنها تبحث عن مشارك يخفف من حدة الضغط الذي يسببه أن تحمل أو تحتفظ بشيء لوحدك، ورغبة البوح هذه سمة إنسانية، وإن كانت العادة تحرض على كتمان السر، لأن خروجه إلى الاثنين سيجعله خارج السرية، إذ سيكون مباحا وقد يكون فيه ضررا للآخرين، على أن البوح في هذه الكتابة مجرد من الاتهام أو التحدد بشخصية.

لقد وضع الكتاب في منهجه أن هذه الكتابة تمارس فعل البوح، وهو إخراج ما في السر إلى العلانية والإشهار أو الجهر به، وقد يصل حد البوح إلى الإباحة، خاصة في وصف الممارسة الجنسية أو الفعل الجنسي، أو ما يقاربه مما يحمل هذه الإثارة، وهو لا يناسبه البوح الذي يناسب الأسرار من المباح الذي لا يراد إشهار الفاضح له، ويشترك فيه الجنسي وغير الجنسي، يأتي هذا الإفصاح عنها محمولا على رغبة الجهر، التي يحققها غياب القائل وانعزال المكان والغربة، فكل منها يشجع على اطراح الحشمة، فيعلل الاصفهاني ذلك بقوله: "الغريب ينبسط في القول والفعل، لاطراحه المراقبة، وأمنه في هفواته من المعاتبة"(٤٢).

قراءة في السرد العربي القديم

وهذا النقل لا يشكل حرجا اجتماعيا وأخلاقيا لأبي الفرج (فاتل الكفر ليس بكافر)، وهذا يبرئه من تهمة التخريب، ونشر الإباحة، وبذا ترتقي كتابته وعصره على اتجاهات التطرف في عصرنا في جرأتها وانفتاحها، بأنها كتابة منسجمة مع واقعها دون وجل أو خوف.

والملاحظ أن بعض النصوص تنقل أخبارا عن الجنس الذي ينتمي للشذوذ، وهو غزل الغلمان والتعلق بهم، ووصف لجماعات معهم، وهذا بحد ذاته يدفع هذه النصوص مرتين عن المباح الحلال باتجاه المحرم، فهي فاضحة بانتمائها لعموم الجنس وهو المباح في المستور (متمثلا باجتماع الذكر والأنثى)، ثم للشذوذ المطرود في السر والعلن، وهذا الحكم يقاربها أيضا في كونها كتابة فهي مقموعة خارج النسق.

كما يلحظ على مثل هذه النصوص بأنها من بين بقية النصوص، ظلت محتفظة بلغتها التي جاءت الكثير منها بألفاظها وبنائها العامي، فتنتمي لخارج السياق الاجتماعي الذي تمثله عموم لغة الكتابة، فتكون لهذه النصوص تحديدا قيمة تشير إلى الخروج على اللغة المبنية وقسرها الاجتماعي، وهي بهذه الإحالة لغالبة العامية تكون منسجمة مع الهامش، وقد يكون جامع النصوص قد أسهم إلى حد ما في إعادة المتمرد منها إلى حاضرة المبنين، وإن لم يبح المؤلف بذلك، إلا أن عمله يكفي للإشارة لذلك، فهو عامد يخرج هذا الهامش إلى أن يكون متنا يعرض للنخبة، وعليه لا بد من مراعاة من يتوجه إليهم خطاب الكتاب.

ومقابل ذلك نجد الكتاب لا يحتفي بنصوص الغزل التقليدية، إلا ما كان له صلة بمدلف خرج بوضعه النفسي عن السلوك السوي للناس بعامتهم، فالنصوص التقليدية لها مساربها المألوفة التي تنتمي بها لنسق الغزل العربي.

المؤلف الغائب

يعترف الاصفهاني بأن هذه النصوص لغرباء لم يعنوا كثيرا باستملاك النصوص التي دونوها على الجدران، بقدر عنايتهم أن ينقلوا التجربة التي أريد لها أن يتحلى فيها الآخرون (بسماتهم)، وأن يميلوا إلى (مشاكلتهم)، إذ يخلص من مقدمته إلى قوله "فأرى الحال تدعو إلى

مشاكلتهم وحيف الزمان يقود إلى التحلي بسمته"(٤٣)، فضلا عن ذلك، فهي جزء من رغبة محركها الوحدة والفراغ، وتقلب الحال تدعو لانشغال النفس في بعض الأوقات، بالنظر في أخبار الماضين وأحاديث السالفين"(٤٤) وهنا يرفع من قيمة هذا الهامش، عندما حبب الالتفات إليه على أنه جزء من الماضي، وهو أخبار السالفين فمنهم السلف الصالح، وبعد فليس بمهم مؤلف بعينه، فيكفي أن يرعى هذه الكتابة زمن ينتمي للسالف، زمن مؤسس لهذه الثقافة، يتحدث عبد الفتاح كيليطو عن الكتب التي لا يعرف وضاعها، وعبارته تلامس هذا اللون من الكتابة التي ندرسها، حيث تحدثقي بغياب المؤلف، فيقول: "إن الكتاب يقدم كما لو كان في أعراض أصول الكتب التي لا تعرف وضاعها، إنه لا يحمل اسما بعينه، لكنه في عداد مؤلف قديم، ينال الكتاب رضى الجميع بنسبته إلى الماضي، لأمر ما تقبل الأمور الصادرة عن الماضي دون نقاش، ولا يستطيع الاسم المجهول أن يبطل مفعول الماضي، ولا يهم كثيرا أن يحال الكتاب على مؤلف معروف بعينه، يكفي أن يرعاه زمن سابق مؤسس"(٤٥).

الفضاء المجاور

إن ما تتركه عاديات الزمان من عارية على السطوح تطال هذه الكتابة بالمحو والبهت الذي يلاحق ألوانها، فتكون من الصعوبة قراءة تلك النصوص، بيد أن هذا المحو يخلق أجواء تتفتق عن لذة تدفع لتكتب اكتشاف المحو ليكتمل النص، إن التقادم الذي يوحي به المحو، يعطي للنص اعتبارا يقارب اللقى الأثرية التي وجدها للتو آثاري، فينقل الاصفهاني في أحد نصوصه "اجتزت بمدينة الإسكندرية، فدخلتها لأرى عجيب بنائها وما اسمع من صقتها، فإني لأطوف فيها فمررت بموضع في أعلاها فيه خطوط الغرباء والمجتازين قديمة وحديثة، وإذا في جملة ذلك موضع مكتوب بحبر بين، يقول..."(٤٦) ثم يذكر القول وينقل ما تحته" وتحته مكتوب: يقول فلان بن فلان- وقد محا الاسمين طول العهد-...."(٤٧).

الأصل في هذه الكتابة أن تختار الأمكنة المعزولة، كما أن الأمكنة المأهولة والمقدسة غير مانعة من احتضان هذه الكتابة "حججت فرأيت في تطوافي على حائط المسجد الحرام مكتوبا"(٤٨).

ومن أوجه الالتفات إلى الجدار هو وصف الفضاء المجاور له أو الذي يشكل الجدار جزءا منه، فيكرس صورة مقترحة للعين تحاول أن تكامل الكتابة من خلال فضائها، باعتبار هامش الجدران التي هي أحيانا جزءا من قصور خربة وآثار باقية، وتقود الاصبهاني إلى أن يقف في أحد أخباره على أوجه الصرف عليها والألوف التي أغدقها الملوك عليها(٤٩)، لكي تكون فيما بعد شاهدا مثل رخام القبور، هذه المجاورة بين الكتابة وهذه الجدران تحملها المقاربة لدلالة الشاهد، وهي تتوسل الاعتبار بالماضين، إذ يعلق المتوكل على كتابة لمحها على حائط أحد الكنائس "وبحك ما أطرف هذا المسكين وما أحرق هذا الأنين"(٥٠).

المؤلف صاحب تراجم الأعلام

عرف الاصفهاني بكتابيه المشهورين؛ الأغاني، ومقاتل الطالبيين، وكلاهما قد عني بتراجم الأعلام، لكن في كتابه هذا يغادر ذلك اللون من التأليف إلى جمع الأخبار لنصوص عاطلة من المؤلف، فضلا عن انتمائها لوسط ليس بالضرورة له علاقة بالكتابة أو القول، لكن هذا الانقطاع عن المؤلف لا يمنعه إن يذكر اسما ما، لعله لا يزيل في أقصى أحواله إبهاما، مثل فلان بن فلان، أو فلان بن فلان الدمشقي، أو فلان البغدادي، أو فلان الصحاوي، أو فلان المدني، والتسمية بهذه الصورة محمولة على ثلاثة أوجه:

الأول: الكتمان لأن هذه الكتابة لا يرغب أن ينتمي إليها صاحب الحال، لأن فيها التذلل، ولأن موضوعها

الكرب، وهي الحال التي يعانيها أهل الغربـــة، أو لأنهلِيمتد للآخرة، إذ يقابل الإنسان ربه وأفعاله مكتوبة على خروج على أعراف الجماعة كالإباحـــة، وهي وإزكل عضو منه، فضلا عن أعمال الإنسان في الدنيا التي قصدت الإشهار لكنها ظلت مقـيدة تتجلب ادعاءه، أوكتبت على الجبين كما يرى الاعتقاد الشعبي، وإذا كان الرب يحتاج الحضور أمامه أن تكتب هذه الأفعال على عدم الانتماء إليه بشكل صريح.

الثاني: إن هذه الأعلام مجهولة لا تحمـل قـيمة عند أنها شاهد صدق وأكثر بيان، فمما لا شك فيه أن الإنسان ذكرها، لذلك عندما يجدهـا فـي مدونـة لا يأخذهـا أحوج ما يكون للتدوين، هو المحدد الحـول والقـوة ويستعيض عنها بفلان بن فلان الفلاني. والمحاصر أبدا بالنسيان و السهو ، فتكتسب الكتابة بـعد ذلك خاصة التقادم أمام الزمن وقوة البقاء، فالكتابة تنقل

والثالث: إنه يعتذر أحيانا عن ذكر الاسم لسبب كقوله:"القول من الشفاهية التي تقارب المعنوي إلى المادية التي "إن طول العهد قد محا الاسم"(٥٠). تقـترن بالحـامل للمدونة، الورق، أو الجلد، أو الجدار

فلا يفارق أبـو الفرج هنا اهتماماته في تأليفه السابقـة،هنا، ومن متلقى بالإذن إلى متلقى بالعين.

الذكر، التي كان عمادها الأعلام، فالكلام لا بـد له منفهيل تعزز الكتابة بـعد ذلك القـول وتوكده من خلال قائل، وذلك من تقـاليدهم، لأن الشـعر من الممكن أن المغالبة للنسـيان الذي قـد يهاجم كل ما هو شـفاهي، ينسب للجن و الشياطين التي تتنبأ لهم، لكن القائل الذي يعجز النسيان عن محـو ما هو مدون، وهذا اللون من يقـولـه هنا ينتمي للهامش، ولكي لاالكتابـة تحـديدا يراد منه الاسـتعادة وتأكيد السـبق

قراءة في السرد العربي القديم

يوصم به أبو الفرج نفسه، فقد دفعه إلىو الانتماء بالمحـصلة للماضي، الذي يريد إن يكون فلان الذي لا يدفـع عنـه أن يتهمـه حاضرا أبدا من خلال التذكر والاسـتغلال على الذاكرة البعض بالوضع. وحـدها، كما أن الشـفاهية تمثل مرحـلة متأخرة عن

إنه سيرد لكل ذي حـق حقـه، عندماالحضارة، في حين أن الكتابة تقـترن بـتدوين المنجز استطاع أن يميز قـو لا لابـن المعتز الحضاري، والإصرار على التدوين يحمل رغبة البقاء، وآخر ليعض خلفاء بني العباس، أو أبوهو ما تصرح به الكتابات ذاتها "لم أجد الانحراف عن مستشهد به والأصل لشاعر مشـهورهذا المكان إلا بعد إن يكون لي بـه أثر"(٥٢)، وهو ما يذكره، فيذكر أن هذا الشعر لهم، وهؤلاء من النخبـةيقاربه من وجه ما كتابة شاهد القبر التي تريد إن تلبـي كما ميز أبـياته هو الخاصة بـه، مما دونه في بـعضرغبة الإنسان بالخلود، خلود اسمه على الأقـل، فضلا عن تشابه الفضاء الذي يمثله القبر وكتابـات الجدران، ولا يفرقهما كثيرا إلا الاسـم الذي تحـرص الشـاهدة الرخامية للقبر على الاحتفاظ به، لكن هذا الرفع لخوف الالتباس هل متوجه للأحـياء وحـدهم؟ وهل للبشـر شركاء آخرون يعنون بالكتابة؟

الكتابة والنسيان
الحامل للمدونة وشاهد القبر

إن الكتابة فعل يراد به أن يكون تذكيرا لبغالب النسـيانيبدو أن هناك مشاركين يعنون بتلقـي النص المكتوب، ويطارده بـل يطاله ويدفعه، وذلك لا يختص بـــما له صلة بالبشر فيما بينهم بل

إذا أخذنا ظاهرة كتابـة الرسائل لضريح الإمام الشـــافعي – ٢٠٤هـ(٥٣)، ويقـده

هذه الرسائل عرضا للحال، كالشكوى من ظلم شخص، أو أشخاص أو جهة معينة، في حين من الممكن أن يكون ذلك شفاها بالحضور إلى مرقده، لكنهم يصرون على كتابة الرسائل التي ترسل بالبريد معنونة إلى ضريحه وتوضع في موضع معلوم منه، فتكون الكتابة على افتراض قراءة رسائلهم من قبل الشافعي، تحقق التعويض عن العيني من حقوق الرد، التي من المفترض أن يقوموا بها من الظلمة، لكن سيقوم بردها الشافعي بالتوكيل الكتابي، ويتحقق بالكتابة المطوية بالورق الكتمان عدم الافتضاح للمقصودين، وهي رغبة تحكمها غالبا صلة القرابة للمشتكى منهم أو تقاليد الجوار لهم، فضلا عن رغبة لتجنب تتكيل المعتقين(٥٤).

يبقى ما الذي يدفعهم للكتابة وهي فعل يجهل غالبية مرسلي الرسائل ممارسته بشكل مباشر، بل يستعينون أحيانا بأشخاص آخرين لتحقيقه، يبدو أنه خوف النسيان، لأن المكتوب عيني، والشفاهي صوت يتبدد في الفضاء، فيكون الأخير أكثر عرضة للإهمال، فضلا عن الوعي الأسطوري بسحر الخط المكتوب الذي يكتسب سمة القدسية (من علمني حرفا ملكني عبدا)، وهو ما ينطبق إلى حد كبير مع كتابة الجدران، ثم الكتابة التي تعادل الحرية بحادثة تأريخية(٥٥).

الكتابة والتصوير/الفضاء

على الاصفهاني كثيرا في وصف شكل الكتابة وترائبها، أي تحديد النص الأصلي وتعيين الإضافات والتعليقات والانتشار حوله، فهو لا ينقل مضمون النص وحسب، وإنما الخط أحيانا عندما يميز اختلاف كتابه من تنوع شكل الخطوط، ولون حبر الكتابة، والأداة التي استعملت للكتابة، وأحيانا شكل الجدار، فيعين في أخباره المكان الذي يتفاوت بين المكان الخرب الذي قد يكون جدارا لمقبرة أو حائط مسجد أو أثر من بقايا قصور رجال الدولة أو حائط بستان أو على صخرة تطاول الزمن فتكتسب الكتابة منه العزلة والهامش: "قرأت على حائط مقبرة"(٥٦)، أو قرأت على حائط مسجد الجامع"(٥٧)، وقد يكون مكانا ارتحل عنه في خبر آخر كتبت هذه الأبيات على حائط البيت الذي كنت اسكنه"(٥٨)، ولا يمنع أحيانا أن يكون المكان قصرا كما في قوله قرأت على بعض قصور آل المهلب"(٥٩)، أصبت على صخرة ملساء بأرض العرب(٦٠)، وقرأت على حائط بستان على نهر الأبلة(٦١)، دخلت في طريقي إلى سيف الدولة الرقة، فنزلت بالقصر الأبيض آثار الرشيد بسه باقية، فلما حصلت بالقصر الأبيض، رأيت على بقية جدار منه مكتوبا(٦٢)، فاجتزت بدار أبي محمد المادراني الكاتب، وقد كان الخراب استمر عليها(٦٣)، فاجتزت في قصر خراب(٦٤)، قرأت على مسجد قد سد بابه وانهدمت مواجبه(٦٥)، قرئ على باب خربة(٦٦)، خرجت إلى البردان مع قوم من أهل بغداد دعوني إليها، فلما صرنا بها خرجنا نتنزه في بساتينها، فرأيت على حائط مجلس في بعض تلك البساتين مكتوبا(٦٧).

هذا النقل الذي يحرص على تقديم الفضاء المجاور للكتابة، يقرب الكتابة للفن التصويري، والأخير له وجود في الفضاء وصلته بالعين هي الغالبة، في حين الشعر له وجود في الزمن حسب نظرية لسنغ(٦٨).

فالاصفهاني لا يفكر بنقل النص الشعري وحسب، ولكن يعنى بنواحي أخرى أيضا، منها الانطباع الذي يرصده من وجود الكتابة في الفضاء، حيث يحضر التوجه مباشرة للعين.

وبذا يصل الاصفهاني إلى تحقيق التركيب الفضائي بين ما يوجد في المكان، وما يوجد في الزمان، لينقل لنا كتابة تتوجه للحواس، العين، والأذن، واللمس، فتحاول أن تأخذ المكتوب بالحواس كلها، فتقارب تفسير معلم الصبيان لقول أبي نواس(٦٩).

ألا فاسقني خمرا، وقل لي: هي الخمرُ
ولا تسقني سرًّا إذا أمكـن الجهرُ

فلا يكفي أن ينظر إليها أمامه، فيحسها ويلمسها

ويشربها، ولكن يستزيد في أن يستلمها بحاسة السمع، وأن يعلنها بالجهر فتشترك الحواس كلها في الأخذ.

إن هذه الكتابة تحيل الفكر إلى الانتحاء عن سير القراءة الاعتيادي الذي ينشغل بالكلمات، ليتحول إلى العناية بالانطباع المرئي الذي تخلقه صفحته أيضا، فهل كان الاصفهاني في انشغاله بهذا التأليف واعيا لهذه الدلالة أو تراه سيذهل مثل أبي نواس، وهو يسمع معلمه الصبيان يفسر قوله السابق.

الكتابة والنطهير

هناك اعتقاد بأن هذه الكتابة إنما تخفف من الكربة، ولعله الوعي بالتطهير الذي يوائم القول المأثور: من رأى مصيبة غيره هانت مصيبته، فينقل الاصفهاني قول احدهم "فذكرت ما مر بي في البحر، وكتبت تحته: أيها الرجل أكثر الحمد لربك، والاستغفار لذنبك، فلو وقفت على محنة غيرك، لعلمت أن الفضل بيدك"(٧٠).

فيما تعترف هذه الكتابة برغبة مشاركة الآخرين لهم في هذا الهم، فالبكاء لحالهم يدعو إلى الغفران والترفق إلإلهي بهم "فرحم الله امرأ وقعت هذه الصاحبة بيده، فبكى لي واقتنع بالكفاف عن مثل حالي"(٧١).

هذه الشذرات المتفرقة يجعلها الاصفهاني في تأليفه بينها نسقا، يلفت إلى هامش قلما تعنى به الكتب والالتفات لها يقارب التعزية والإشفاق، فتقارب هذه الكتابة (شاهد القبر)، وإن اختلفت الوسيلة والعناية بل والمضمون والكاتب، حيث الشاهد يكتبه الآخرون وإن كان بعض الأموات يوصون قبل الموت بكتابة عبارة معينة على شاهدهم.

هل كانت عبارة جورج براك (الحواس تشوه الشكل والعقل يصوغه)(٧٢) دالة يمكن أن تنسحب إلى شغل الاصفهاني في كتابه، وهو يصوغ الهامش ليتعرش على المتن، ويتصرف بالمادة الخام التي جعلها على هيئة كتاب، وأخرجها من عذريتها في الهامش إلى تنميط من الممكن أن يماثل ألوان الكتابة الأخرى، التي قد لا تحتاج التدوين الذي وضعها فيه الاصفهاني، أما الهامش هنا- أي على جداره- فإن الكتابة من اعتباراته، وكأنما هي تتراسل بحاسة واحدة هي العين، وقد تماهي بين الجدار والكتاب "أتيت السند فدخلت خانا، فإني لأدور فيه إذ قرأت كتابا في أروقته"(٧٣).

١- المثقف والسلطة، محمد الشيخ، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص٧٧.
٢- المثقف والسلطة، ص٧٧.
٣- عشيقة روميو في مسرحية شكسبير المشهورة (روميو وجولييت).
* هذه المعلومة أفادني بها الشاعر عباس خضر، وكان للغة العربية دلو، لكن بصورة مفارقة لإجماع الحب هذا، إذ كتب أحدهم بهذه اللغة (أيها الكثرة الفاسقون، ستعلمون أي منقلب ستنقلبون في نار جهنم وبئس المصير).
٤- هذه العبارات من شهادة شفوية للشاعر عباس خضر وهو شاهد عيان حيث كان سجينا بسجون بغداد، وأخرى مما فضحه الأعلام عبر الأفلام والبرامج التي نشرت لداخل السجون بعد سقوط صدام
٥- انظر تحول المثال، صالح زامل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٣ ص١٢.
٦- الشعر والرسم، فرانكلين ر. روجرز، ترجمة مي مظفر، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد ١٩٩٠. ص٣١.
٧- كتاب أدب الغرباء، أبو الفرج الاصفهاني، تحقيق: د. صلاح الدين الـ ـد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١ ١٩٧٢، ص٤٢.
٨- الشعر والرسم ص٣٠- ٣١.
٩- نحو ثورة جديدة، هربرت ماركوز، ترجمة عبد اللطيف شرارة، دار العودة، بيروت ١٩٧١. ص٦٢.
١٠- هناك دراسة لهذا الخطاب وتحديدا لما يسمون بعقلاء المجانين، انظر دراسة محمد حيان السمان، خطاب الجنون في الثقافة العربية، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن- قبرص ط١
١١- أدب الغرباء ص٨٢.
١٢- أدب الغرباء ص٥٧.
١٣- الكتابة والتناسخ، عبد الفتاح كيليطو، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار التنوير- بيروت، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١ ١٩٨٥، ص١٠٥.
14- نقلا عن الكتابة والتناسخ ص١٠٦.
١٥- الكتابة والتناسخ ص١٠٥.
١٦- أدب الغرباء ص٢١.
١٧- انظر الصفحات: ص٢٨ حيث خبر لعبد الله بن جعفر، ص٢٩ خبر للرشيد، ص٥٢خبر لعلية بنت المهدي أخت الرشيد، ص٥٦ خبر لأبي نواس يطلب كتابة أبيات على قبر، ص٥٧ خبر لابن المعتز، ص٦٥ خبر للمتوكل يستطرف كتابة على حائط كنيسة، ص٧٦ كتابة للوزير المهلبي على جدار بيت نزل فيه في بعض سفره.
١٨- أدب الغرباء ص٢٣.
١٩- حيث هو الموضع الذي تقيم فيه الكهنة القداس في الكنائس.
٢٠- أدب الغرباء ص٢٤.
٢١- أدب الغرباء ص٨٧.
٢٢- أدب الغرباء ص٨٩.
٢٣- أدب الغرباء ص٣٦.
٢٤- أدب الغرباء ص٥٤-٥٥.
٢٥- أدب الغرباء ص٦٩.
٢٦- أدب الغرباء ص٢٥.
٢٧- أدب الغرباء ص٢٨.
٢٨- أدب الغرباء ص٣١ و ص٨٧.
٢٩- أدب الغرباء ص٣٢.
٣٠- أدب الغرباء ص٤٦.
٣١- أدب الغرباء ص٦١.
٣٢- أدب الغرباء ص٨٧.
٣٣- أدب الغرباء ص٨٨.
٣٤- أدب الغرباء ص٥٨.
٣٥- أدب الغرباء ص٣١.
٣٦- أدب الغرباء ص٩٣.

٣٧- أدب الغرباء ص ٢١.

٣٨- أدب الغرباء ص ٢١.

٣٩- الواقعة:١٣-١٤.

٤٠- إذ يقول "فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه، قال لو شئت لتخذت عليه أجرا". الكهف: ٧٧ "وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما". الكهف:٨٢.

٤١- أدب الغرباء ص ٢١.

٤٢- أدب الغرباء ص٨٧.

٤٣- أدب الغرباء ص ٢١-٢٢.

٤٤- أدب الغرباء ص ٢٢.

٤٥- الكتابة والتناسخ ص٨٣.

٤٦- أدب الغرباء ص ٣٠.

٤٧- أدب الغرباء ص ٣٠.

٤٨- أدب الغرباء ص٧٨.

٤٩- أدب الغرباء ص٤٨-٤٩.

٥٠- أدب الغرباء ص٦٥-٦٦.

٥١- أدب الغرباء ص ٣١.

٥٢- أدب الغرباء ص ٣١.

٥٣- هو محمد بن إدريس (١٥٠-٢٠٤هـ): إمام أحد المذاهب السنية الأربعة. ولد في غزة ونشأ في مكة، ولازم الإمام مالك في المدينة ودرس عليه، توفي بمصر وقبره معروف في القاهرة بسطح جبل المقطم.

٥٤- انظر الدراسة السوسيولوجية الرصينة عن هذا الموضوع (رسائل إلى الإمام الشافعي- ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشافعي) للدكتور سيد عويس، دار الشايع للنشر، القاهرة- الكويت- أمستردام، ط٢ ١٩٧٨.

٥٥- أطلق الرسول مجموعة من الأسرى بعد أن شرط أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة.

٥٦- أدب الغرباء ص ٣٣.

٥٧- أدب الغرباء ص ٣٣.

٥٨- أدب الغرباء ص٣٨.

٥٩- أدب الغرباء ص ٤٤.

٦٠- أدب الغرباء ص ٥١.

٦١- أدب الغرباء ص ٥١.

٦٢- أدب الغرباء ص ٥٦.

٦٣- أدب الغرباء ص ٥٩.

٦٤- أدب الغرباء ص ٦٠.

٦٥- أدب الغرباء ص ٦٤.

٦٦- أدب الغرباء ص ٦٤.

٦٧- أدب الغرباء ص ٧٦.

٦٨- اللغة في الأدب الحديث، جاكوب كورك، ترجمة ليون يوسف وعزيز عمانوئيل، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ١٩٨٩. ص٢٥٨.

٦٩- ديوان أبي نواس، خمريات أبي نواس، قدم له وشرحه د. علي نجيب عطوي، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، ط١ ١٩٨٦، ص ١٦٠.

٧٠- أدب الغرباء ص ٩٣.

٧١- أدب الغرباء ص ٩٠.

٧٢- الشعر والرسم ص ٣٥.

٧٣- أدب الغرباء ص ٧٧.

غالبا ما يتشكل البناء السردي في النثر العربي القديم بطريقة افقية، إذ يستخدم بعض الكتاب بنية الاطار لاحاطة النص بغلاف خارجي تتوالى في داخله الحكايات كما حصل في (الف ليلة وليلة) التي وفرت دليلا فنيا على نضج البناء السردي وترابط الحكايات كتعبير عن واقع معين وعصر له حضارته وملامحه الفكرية، ويسمى هذا التنظيم بالتضيد، وذلك بأن الحكاية تعمل على استيهاب حوافز حكاية اخرى(١).

نسيج السرد وفضاء التأويل في رسالة الصاهل والشاحج

د.قيس كاظم الجنابي

فضلا عن بناء داخلي تتماسك فيه الشخصيات مع الوصف والحوار، وهي محطلة بفيض معرفي يكمل الجوانب الاخرى من اجل تأسيس تراث نثري أفاد مي منجزات (كلية ودمنة) وهو ما حاوله ابو العلاء المعري في كتاب (القائف) ورسالة (الصاهل والشاحج) إذ شكلت الرسالة الاخيرة قصة مترابطة الفصول والمشاهد عبر ما يعرف بأدب (السمر) من اجل سوق العبرة وايصال المثل وإشاعة الحوار عن طريق التشخيص والاخراج التمثيلي الزاخر بالحركة والحيوية، وكأن المتلقي يتمثل صورا لعمل مسرحي يؤدي شخوصه البهائم، إذ يقف (الشاحج) معصوب العينين في موضعه بمعرة النعمان وموضوعها الرئيس تصوير لما كان من جفلة الناس لما يتوقعون من خروج

قراءة في السرد العربي القديم

(باسيل) ملك الروم لغزو حلب على الرغم من ظاهرة القطيعة بينة وبين عز الدولة(٢).

جاء هذا التصور من خلال خيط رئيس واضح يربط الحكايات النثرية والشعرية في إضاءات وإشارات سريعة ذات إحالات تستهدف توظيف المثل بوصفه حكاية مضمرة، مركزة مشحونة بالدلالات، ليتيح له الاستمرارية وبعده عن الاسهاب ويجنبه التهلهل في واحدة من محاولات (التعاضد التأويلي) الذي يهدف الى استيعاب النص خطوة خطوة بحيث يجعل القارئ النموذجي معتقد ان الحكاية ما تزال قيد ضرورتها(٣) لينفتح النص باتجاه التأويل والاستبطان البعيد عن القصدية الفجة، قد جعل المعري من شخصيتي (الصاهل) و (الشاحج) محورين لإيصال الحوار وترصين السرد وربط الحكايات ربطاً محكماً يستند الى وجود قوتين داخلية وخارجية، ذلك ان الرسالة تقوم على مسار عام هو حوار (الصاهل) مع (الشاحج) ومسار خاص يتكون من مجموعة حكايات متواصلة في ما بينها ومتصلة في الوقت نفسه بشخصيتي (الصاهل) و(الشاحج) مع وجود نسيج سردي غاطس يقوم على الاحالات المضمرة والضمنية الى حكايات مزاحة عن النص في الظاهر متصلة به باطنا وهي حكايات الامثال والحكمة التي جاءت بوصفها جملاً مركزة/ مضغوطة محملة بالدلالات وذات إيحاء خاص يسوقها السرد والحوار أينما وجد الكاتب لذلك فرصة لبثها.

نسيج السرد وفضاء الكلام

يتكون بناء السرد في هذه الرسالة من جانبين رئيسين هما:

أ – المتن الحكائي الذي يحقق وحدته الهيكلية، والمتكون من مقدمة الكتاب التي تشتمل على ديباجة وتحية واعتذار وشكوى أبناء الاخ من فرض الجباة مالا على أرض لهم مجدبة. ثم المشاهد التي رتبتها المحققة، وهي خمسة مشاهد مثلها مثل (السلوانات) الخمس في كتاب (سلوان المطاع في عدوان الاتباع) لابن ظفر الصقلي (ت٥٦٨هـ/١٢٥٩م) ثم الخاتمة التي جاءت ملحقة بالمشهد الخامس.

ب – المتن الحكائي الذي يشتغل على مستويين احدهما يمثل بنية الكتاب وهي بنية كبرى، والمستوى الاخر هو البنية الصغرى التي يقوم عليها كل مشهد، وذلك لوجود حكايات تنتظم بصورة غير مباشرة تختلف في بعض جوانبها عن (ألف ليلة وليلة)(٤).

لقد استخدم ابو العلاء الحكاية بديلاً عن التاريخ لانه في موضع البحث عن قيم معرفية وإنسانية مبثوثة هنا وهناك، راح يبث العديد من الحكايات التي تحمل موجها قرائيا يشير فيه بالنثر الى حكاية شعرية حفظها الزمان حتى ألت إليه، فيقول: وأشنع من ذلك كله ما ذكره "القزاري جويرية بن أسماء" مفتخراً به من ان ذئبا له في السفر فعقد له رحلته وقال يتكثر بذلك:

ولقد ألم بنا لتقريه

بادي الشقاء محارف الكسب

يدعو الفنا ان نال غلّقته

من مطعم غنياً الى غبّ(٥)

ويستمر حتى تنتهي الحكاية، مستخدما التفصيل منذ البدء مستعينا بـ(اما) كنوع من الاثارة والبداية الممتلئة التي تفضي الى تفصيل مغر في قوله "واما بنات بسعرة وبنات خورة، فحسبك بما لقين"(٦)وقد يبدأ بداية معطوفة فيها استرسال يستحوذ عليك ويدعوك للاستمرار في متابعة سرده في لمحة ولم ينل لها في النهار المانع ونعم

من المفارقة، كقوله "والنعام ركب عليها الفارس فإذا سنانه وارس. حمل بالقوس ولم ينل لها في النهار المائع ونعم في خصيب العشرق، فعاد كله يحرض الشرق فرق بين رباده وظليم، ولم يكن في المقارنة بسليم. وطعن لم الرأل فهوت بين الاجرال"(٧).

إن ما يؤخذ على ابي العلاء هو اسلوبه الذي يتشدق فيه باللغة، ويركب الوعر من الالفاظ مما يعرقل انسياب السرد ويبث نوعا من التفكير المقصود في الحكاية. ولو جعل ذلك يسيراً مبسطا كفعل ابن المقفع لاستحوذ على مساحة أوسع، وأبعد المتلقي عن البحث في خفايا الالفاظ، لكنه ركب مركب النصح والارشاد واقترب من الغايات التعليمية مهتدياً بما كان يردده الجاحظ في كتابه (الحيوان) في الاسترسال نحو الغاية كقوله "وإنما مثلي ومثلك مثل رجل يسأل اخر ان يرشده الى الطريق فأراه الفرقد او الجدي، لقد أبعد عن الهدي! أو مثل ظمآن استسقى في المقبوظ(٠٠٠) ومثل رجل اهر استطعم رجلا من لحم جزورة"(٨).

***

يبدو السرد على ألسنة الحيوانات نوعاً من الهروب من الواقع لإيثار السكينة، لأن المعري عاش في عصر تردت فيه الاوضاع وكثرت فيه الدسائس، واستحوذت الجوارح والغلمان على مقاليد الامور وكثرت فيه التهم والوشايات حتى أن حساده أتهموه بالزندقة والإلحاد لتأويلهم ظاهر الكلام على حساب باطنه، فقالوا أنه "أظهر ما أظهر من يكفر البارد الذي يبلغ منه مبلغ شبهات الملحدين بل قصر فيه كل التقصير وسقط من عيون الكل ثم اعتذر بأن لقوله باطناً وأنه مسلم في الباطن فلا عقل له ولا دين إنه تظاهر بالكفر وزعم انه مسلم في الباطن"(٩). لذا صار السرد يضمر في طياته ما يضمره لتجاوز التفسير الظاهري لفحوى الكلام. مما دعاه لاستخدام المفارقة في دلالات الالفاظ على معان خفية تقوم على التورية كقوله "وحدثني الثقة أن الجند بخراسان يركبون الخرفان، وأن الظباء في نواحي (البصرة) تلد الجماش"(١٠). في إحالة الى ما هو خفي وغير معلن كقوله في احدى الحكايات "وقد شاهدت أنا جاموساً خرج من بيضة ورأيت الفرس يخبط بيديه البيضة فلا يكسرها. وما عنيت بيضة الحديد لان ذلك معروف منها بالصلابة"(١١).

كما أعاد صياغة حكاية أمية بن ابي الصلت الثقفي التي قالها شعرا، فجعلها نثرا حين قال: "لعلك سمعت ما يتحدث به الناس عن الزمان القديم من ان الديك والغراب كانا صديقين في الدهر الأول، وكانا يتنادمان. فشربا عند خمار اياما فلما نفد شراب الخمّار وأحس الغراب انه يريد الثمن، اصبح يوما والديك نائم، فقال للخمّار إني ماض فأتيك بحقك، وصاحبي هذا رهن عندك على مالك وذهب فلم يعد"(١٢). فقد استخدم المعري النفد العقلي لتفنيد صحة هذه الحكاية حين وصفها بالاكاذيب التي تحدث بها اهل الكتاب من اليهود والنصارى سمعها امية بن ابي الصلت وغيره فنظمت في الشعر(١٣). ثم ينتقل لمقارنة الحمامة بالغراب، إذ وصفت الحمامة بالغناء والنياحة في قولين متناقضين لانها كانت تنوح لنفسها دون غيرها من الانس والطير(١٤). فعلى الرغم من ان الحمامة تحمل بشارة الخير كما ورد في حكاية (الطوفان) وانها تعد طوطما لاحد القبائل(١٥). فإن بعض الاخبار ذكرت انها تنذر بخبر شؤم الاتصال دلالة اسمها بالحمام اي الموت(١٦). لكن دلالة الحرف هي لحظة تطّير آتي من الحرف (ح) الذي يشير الى الحب والحلاوة والحمد والحسن... وغيرها من الالفاظ التي يمكن التفاؤل بها، في حين رأت العرب في التشاؤم من صوتها وهي (تنهيدل) بأنه نياحة، فإذا كانت توصف بالغناء في سالف الدهر، فإنها إن لم تعلق توبتها وجب. ان لا يحكم عليها إلا بالدنين(١٧). وهذا يحدد ذاته بعد غير مقبول في عصر المعري، لكنه لم يمنح المعنى بعده التاريخ في الاشارة الضمنية إلى تردي حضارة وقيم عصره وتكالب الناس وانهيار الدولة وصراع القوى بعد ان استدرك على حكاية الحمامة متخذاً من شعر (صخر الغي) دليلا على أنه يشير ؟إلى إباحة عما في

الصدر (١٨). ولانه محكوم بعاهة العمى، فإن التنفيس عما في الصدر من نفثات موجعة جعلته يوجه هذه الرسالة توجهة ومشفوعة بالتوجعات، لانه في محفل الرد ومساندة الرأي للدولة (الفاطمية) وكشف الدعوات المناهضة ضد رموزها، كرده مدافعا عن علي بن ابي طالب (ع) في استرساله بالقول: "وقولك أنه كان إذا رأى نبيذا في الجر [الجرار] سأل عنه، فإن كان له أهل ألزمهم النفقة عليه وإلا جعل نفقته من بيت المال"(١٩). وبعد أن يفصّل ما يعنيه برى أنه "إن كان مما يجوز أن يشرب فأي نفقة تلزم عليه؟ وإن كان مسكرا أريق، فأي فرق بين نبيذ في الجر ونبيذ في السفد أو المشاعل؟"(٢٠)، كإشارة الى ان التفصيل هو فك الالغاز والرموز وبواطن العبارات، لكي يتسنى له الدفاع عن موقف فكري يتبناه ويرد على خصومه حتى ليبدو أن ثمة شيئا من الازدواجية في خفايا النص الذي يشير الى قوته ومكنته وسلطته الكامنة في داخله، ليتمكن من الدخول في خندق القارئ/ المتلقي الذي كتب من أجله الرسالة، مما يسم كثير من الاعمال الموجهة والقصدية بالضعف ورهافة البناء بسبب استجابتها للموقف الفكري على حساب الرصانة، لأن البناء يسير سيرا ونيدا باتجاه بناء ستراتيجي ينكئ على علاقة الذات بالنص، ليحرك القوى الكامنة فيه حتى تتمكن الثوابت الفاعلة فيه من النهوض بقوة مضمرة لإسكات صدى السجال المباشر ودفعه نحو الجدل الموغل في جدية الوجود. لهذا راح يحشد العديد من العبارات المستغلقة، ثم يفك تلك المغاليق في لعبة لفظية تنهض بالكلام بوصفه نتاج الحكمة لقوله: "وزعمت أنه كان لا يكره الصلاة فوق العنز إذ أتفق ذلك له. والعنز ليست مما يركبه بنو آدم فيصلوا فوقه. لو قلت: انه يصلي فوق الناقة والجمل على ظهر الراحلة والفرس وغيرها من المركوبات"(٢١). لان الجانب السجالي بين الاخر والسارد (ابو العلاء) هو نوع من التحريك والتحريض الضمني لتفعيل الحوار الثقافي الذي يمكن ان يعد تبسيطا للحركة السردية في العلاقة المباشرة بين السرد والنقد الثقافي من خلال قراءة المعري للنص الحكائي من أجل اجتراح خطاب نقدي ضد ما هو سائد وضد ما تتبناه مؤسسات الدولة (العباسية) في توجهاتها الايديولوجية المركزية، إذ يصبح السرد هنا نقيضا لأنساق المطروحة بوصفه خطابا تقويضيا لما هو مؤدلج أو مسكوت عنه. لهذا دخل أبو العلاء دائرة التأويل من أجل "ترويج الصمت كقيمة عليا تفوق الكلام وتفضله"(٢٢). وهذا بدوره يجعل السرد مناقضا للمألوف حينما يكشف تناقضات الخطاب ويحفر في الاعماق لإبراز الوعي بجدية الكلام وتناقضات الاشياء، ويكشف عن مفارقة الواقع أو المظهر والباطن أو الاقتراض، وفي كل ذلك ثمة ما هو لا معقول ولا واقعي يحيل نحو مفارقة لها صلة بوجود نوعين من التهكم، تهكم لفظي وتهكم موقفي (أو تهكم سلوك)(٢٣) مما يسمح بإدخال مستجدات توحي الى اقتناص خفايا النص او دلالاته للوصول الى (معنى المعنى) في لعبة كلامية تستهدف تأويل الكلام، كما في استحضاره لحكاية (الحية) عبر موجهاتها التوراتية القديمة في قصة الخليقة في حكاية شعرية نسجها أمية بن أبي الصلت:

وكانت الحية الرقشاء إذ خلقت
كما ترى ناقة في الخلق أو جملا
فلاطها الله إذ أطغت خليفته
طول الليالي ولم يجعل لها أجلا
تمشي على بطنها في الارض ما عمرت
والترب تأكله حزنا وإن سهلا(٢٤)

قراءة في السرد العربي القديم

في إشـــارة الى ان الحـــية كانت في خلق الجمل او الناقة(٢٥) لدورها في طرد بني آدم من الفردوس فقـد كانت "أمكر وحوش البـرية صنعها الرب"(٢٦). وإن جعلت منها بـعض الشـعوب ملاذاً ورمزاً للحـيـاة الجديدة(٢٧). مما يشير الى ان الاحالة السردية في هذه الحكاية هي إحـالة معرفية موغلة في البحـث عما هو كامن، كما في إحالات الى الخضاب ودلالات التجميل والتجديد، وصلة الحـية بـالتجدد كل عام وهي تتزع جلدها ليتواصل السـرد الحـكائي بشـكل مفصلي وتفصيلي يمكن السارد من إحـداث اختراقـات تطيل مسافة السـرد وتوحـي بـوجود اتصال مضمر يجدد الافكار عبر حوار القـارئ مع الاخر وهو يسـتوعب جانبا من سياقات الكلام التي تؤثر على حركة السرد في وقت يرد فيه على خصومه كقوله: "وأما قولك انه كان يسـتعين بـالغراب على طلب المياه(٠٠٠) وأي علة للغراب بمكان الماء وهو يسلك طريق القفر فيموت من العطش"(٢٨). موحيا بأنه كان من المستحسن ان يقول انه كان يستعين بالهدهد كما استعان نبي الله سليمان بـه في احالة الى (منطق الطير) وإلى ما يدلل عليه الغراب من نذر بالشؤم كما ورد في التوراة لاقترانه باسـتمرار مياه الطوفان(٢٩)، أو شهوده مقـتل أول إنسـان على وجه الطبيعة وما الامر بيده لان الله سبحانه لم يبدد الماء حتى اطلق نوح الحمامة في استحضار الاسطوري لانه يسلك سبيل الحيوانات في التعبير عن سبل الكلام، فقـد سردت أولى الحكايات على ألسنة الحيوانات وهنا لا بد أن نتساءل: لماذا اقترن سرد الحكاية بلسان الحـيوان، مع أن الحيوانات لا تتكلم؟ وإن بقي الناس يعتقدون حتى الان انها كانت ناطقـة، وهذه الفرضية هي جزء من تعمية تاريخية ولعبة كلامية تحاول الخروج من سطوة الحاكم، فتشير الى خوف الانسان من اخيه الانسان منذ الازل، بعد ان تقبل الرب القدمة من (هابـيل) ورفض تقدمة (قابـيل) لانه اختار افضل حـملانة(٣٠). وهذا يحدد انه يجعل الحيوان اكثر تلمحـاً وترميزاً، كما في دلالة القط في البيت الاسلامي، حـين يرغب أهل الدار بأن تكثر القطط لغير الحـاجة لها لان تدجين الهر هو الراحـة من الرثائه(٣١) أي (القـوارض والفئران) ليتشكل السرد على ألسنة الحـيوانات على مجموعة أصوات تتسـجم مع عاهة العمى لدى المعري وهي تتحـاور من أجل المثاقـفة، فتتعش البـناء السـردي وتستنطق الافكار كما في حكاية البومة وهي دوبية على هيأة السنور من دواب الفلاة في حكاية مقتضـبة مكثفة تقول فيها: أران، أران، رأس وأذنان، وسائرك أكلتان. وقالت للارنب: يا وبر يا وبر، منكبان مصدر، وسائرك حفر نقر(٣٢). من هنا استخدم السؤال لتفجير الصراع لكي يتمكن من الاجهاز على خصمه، فيتسـاءل: وهل تطمث الرجال؟ وهل تلد الحمير البقـر؟ ثم يسـتدرك: فزعمت ان الظباء بنواحي البـصرة تلد الخفاش(٣٣). في إشارة الى الممسوخات ابتداء من سـهيل الذي كان عشاراً يهودياً، وذي الخلصلة باليمن الذي مسـخ نعامة ثم هراً وكذلك الضب ومسخ الانسان الى حـيوان مثل ابـن مقـرض وابـن عمرو والغراب والفيل، في ظل استعداد ديني وسحـري لتقبـل ظهور الجن في صور الحيوانات والحـيات وغيرها(٣٤). وهو الذي يقـود القارئ نحو التأول الفاسـد(٣٥)، الذي يراد بـه غير معناه، كالإشارة الى الصوم الذي ينبـذ الصلاة(٣٦). والصوم نوع من النبات، وهو ما فعله مع بعض الامثال بوصفها تلميحات الى حـكايات مضمرة كما في المثل القائل: "الصيف ضيعت اللبن"(٣٨)، لان المثل يسـيّر السرد نحو مرامية البـعيدة، كما اللغز والصفات التي تحـتاج الى تغير سـردي، كالجفر وهو النهر الكثير الماء، والاعرج وهو كناية عن الغراب، والاعمى وهو السيل، ليدلل على قوة حجته الكلامية.

لايخفى ابو العلاء تمسكه بفضاء الكلام كبعد مضاف الى بلاغة السرد حين ينحاز الى محـدثه (عزيز الدولة وتاج الامراء) بما يجعل السرد وسيلة من وسـائل الرد على الخصم، وهذا بـدوره يجعله محـملا بـالرؤى والافكار التي تدافع عن عقـيدته المضمرة، فيما يرد على منتقدي ممدوحة بزعمهم انه يثني عليه وأنه "يثني

عليه الدرة وتفر منه الصدفة خشية العقوبة"(٣٨)، لينتهي به هذا الدفاع التصريح بالقول: "وإن كانت الصدفة قد ضمت درة أو لؤلؤة وأدتها الى بنى آدم فقد استحقت الشكر بأداء الامانة لانها حفظت لهم النفائس"(٣٩) وهو هنا يطرح وجهة نظره من خلال أسلوب تداول الحديث، كما فعل في تتبع نفرة الحيوان من الدبق والذبان، والاعتقاد بأن الذباب وإن كان مكروها فإنه دليل الخصب وكثرة النبات في إحالة الى قول المتلمس:

فهذا أوان العرض جن ذبابة

زنابيره والازرق المتلمس(٤٠)

وهذه الصورة مستقاة من صورة شعرية رصدها الشاعر عكست حاجته للخصب في ظل توافق نفعي بين الانسان وخصمه، لذا يمكن ان يعد هذا النوع من الحكاية محملا بالتقاطع المضمرة، أي الحكاية التي تقف لدحض ذاتها في شيء من التناظر العقلي الذي يميل نحو تحقيق المنفعة من خلال استكشاف تناقضات الطبيعة، لذا غدا أبو العلاء يوصل الهامش بالمتن، والنقيض بنقيضه، مستفيدا من دلالات الالفاظ غير المباشرة، كما فعل حين أفاد من دلالة الذباب بأنه يعني بقية الدين، والجمل في التجمل وهو الاحتمال، ليستطيع الكشف عن رمز (الصاهل) بالقول المباشر: "والصاهل عجز عن حمل الاخف وهو المنظوم، فكيف أحمل الاثقل من النثر ولو بيوتا من الشعر كثيرة"(٤١). في ظل طموح لتحميل الجملة السردية دلالات مضافة، تشتغل اشتغالا خفيا، لان النص النثري مثقل بالدلالات، حتى تبدو بعض أقطاب الحوار، وهو (الشاحج) الذي أعجب المعري بمخاطبته (للجمل) فعلم فيه الفهم والمعرفة فسأله عن الضبع التي يعلم الشاحج انها من احمق البهائم، فتجيبه في حوار متعمق: أي ثلاث كنى متجانسات في اللفظ: أم عامر وهي المشهورة وأم عويمر وأم عمرو(٤٢). فوجد أن المباشرة أفضل من المعاشرة(٤٣). ولكن أبا العلاء يخشى ملل (الشاحج) فيقصر سرده عن الاطالة في نوع من الدفاع فيقول: "ولو لا خشية ملكك أيها الشاحج، لأطلت. وكأني بأهل ملة هذا الرجل الذين يقيمون بين المسلمين، إذ بلغهم عني مثل هذه المقالة حسبوا إني اعتقدت فيهم شرا اعتقاد. ولست أبغض على الملة، لانها بين ابن آدم وبين ربه. وإنما أحب الناس إلى أكثرهم نفعا لي، وأبغضهم إلى نفسي من كثرت منه مضرتي. ومن أمن شره من المخالفين"(٤٤) فكشف اللثام عن فحوى الكلام وفائض الحديث في أن السرد وما يوازيه له غايات ومنافع وما تقلصت مناقصة كان فائضا.

قراءة في السرد العربي القديم

الحوار والمناظرة في الكلام

يعد الحوار عنصراً مهماً من عناصر البناء القصصي، لأنه يفتح فضاء النص للاتصال بين الشخصيات، ويعمل على كسر حدة السرد واستمراريته ليخلق جوا نفسيا يمكن من خلاله تكوّن شبكة من الاتصالات التي تربط الافكار والصور والرموز بطريقة تناظرية مؤثرة، إذ تتوفر في رسالة (الصاهل والشاحج) مجموعة من الحوارات والمناظرات بين (الصاهل) أو الفرس الحر الطليق وبين (الشاحج) أو البغلة المعصوبة العينين والمستضعفة أو المستعبدة والمسخرة لمهمات شاقة، وهو إسقاط جلي لشخصية المعري ومعاناته، حتى يظل البعد النفسي كما تظل معه الرحى المعذبة في طحنها المكتوم(٤٥) حين يبدأ الحوار بين طرفي الخطاب الذي لا يكاد يسمع، إذ كان (الصاهل) في طريقة من مصر الى حلب حتى يطعمه الرجاء لحمل خاله

الى الحضرة العالية بحلب، مظلمة شعرية من نظم الشاحج الى شخص يكتب له، وهو افتتاح نحو الاتصال وخلق مثيرات تكمن في الاعماق، تكشف عن الغاطس وغير المرئي في نفس وجسد الكاتب حين يبدأ استرساله بالاسئلة عبر ضمير المتكلم قائلا: "فاستحييت ان اعلقهم في اليوم القصير لمسات روب وسألوني شيلاء هي في العمر كالبدر في الهالة والغراب في الخلة والمتقارب في الدائرة فأردهم عنها مكسوتين، وإنما هي الزهرة في الاقق والوضيعة من الشقر"(٤٦)، إذ استخدم اسلوب (المناظرة) حين يوجه خطابه بالسؤال الى الطرف الاخر، كجزء من إثارة المتلقي بوصفه محاوراً مفترضاً لان الثقافة السردية هي ثقافة استلام واستماع اكثر منها ثقافة تدوين وقراءة، فضلا عن كون ثقافة المعري ترتبط بعاهة العمى، وتقوم على حاسة السمع، مما يجعل الصوت حاضرا في مناظرات الكلام ومساجلاته حين يقول: "رتمر عليها الدجالة من الرفاق، فإذا سمعت صوت الحافر هاج ذلك عليها طربا وحزنا"(٤٧)، لان الاستماع يثير الطرب والحزن إن كان يريد بالطرب الفرح، إنما الاستجابة الى وقع الصوت حزينا او غير حزين، لكنه هنا جاء مقدما على الحزن ومعطوفا عليه مما يوفر لمن يتأمل ضرورة الفصل بين حالتين مختلفتين لكل منهما وقعها النفسي الخاص ومن يتوفر لديه الحوار بين جانبين يمثل كل منهما وجهة نظرة، وهو يروي حكاية ذات دلالات خاصة في ظل هاجس المناظرة لان الخلفية الفكرية لاي منهما هي خلفية معرفية يحاول تمريرها بطريقة الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م) في كتابه (الحيوان) عبر استخدام المناظرة الفلسفية النابعة من ارتباطه بأصحاب علم الكلام، لان الجاحظ يعبر عن صراع فكري كامن بين اتجاهين مختلفين ينتميان الى حقيقة ثابتة هي ترجيح العقل على العواطف والاهواء، والمعري يعكس واقعا تاريخيا كان يعيشه وإحساسا ذاتيا بالاغتراب هو نتاج الاثر النفسي للاصابة بفقدان البصر، ذلك انه يتحرك على محورين يستوعبان قضيتين أساسيتين قد تبدوان من الخارج متناقضتين متضادتين، ولكنهما تتهلان من منبع واحد:

أ- تكريس حس الفجيعة والحزن والمأساة.

ب- تجسيد الحس التهكمي الساخر واللاذع(٤٨)

وهذه الحركة الحوارية هي متسمة لحوار (الشاحج) و(الصاهل)، وهما يتواصلان كأنهما شخصيتان على مسرح الاحداث في ظل حوار عادي مباشر، ولكنه حوار فكري يدور بين طائفتين، إذ يقوم الحوار العادي على التداول بين المتحاورين(٤٩)، ولكن ميزة هذا الحوار وما يحيط به هذا النص، إنه نص سردي/ حكائي، وهو في الوقت نفسه نص إحالي، لأنه سرد يحيل إلى آخر أو كلام يتكئ على كلام، وهذا بحد ذاته هو نوع من التناظر أو الحركة الحوارية الماثلة في باطن النص. فالحوار يكون بين اتجاهين، أو رداً عقلياً على وجهات نظر مختلفة، كقوله: قالت طائفة: لا يكون النبي عليه السلام إلا عالما بجميع أصناف الشيعة واحتجوا بأنه فقد المعرفة بهذا الجنس، معدود في أده من النقص(٥٠)، ثم يشير إلى ما قالته الطائفة الاخرى: قد يجوز أن يكون الامر على ما ذكر هؤلاء، ويجوز أن يكون غير»(٥١)، في محاولة للبقاء خارج اللعبة الكلامية، وعرضها من الخارج وكأنه يراقبها مراقبة البعيد غير المكترث، لكنه في حقيقة أمره جزء لا يتجزء منها.

***

يأخذ الحوار مداه عبر رموز الحيوانات، وصورها، ودلالاتها التي تخفيها خلفها، كقوله: ولعلك تزعم أن الديك مغنٍّ، وتحتج بالابيات التي أنشدها أبو ربيعة في "كتاب النسب"(٥٢)، في محاجة عقلية واضحة تحاول أن تبرئ الحيوانات مما وصفت به في الحكايات التي توحي بها أسماؤها، والتي يريدها أن توافق الاسماء لا يوجب اتفاق المعاني المقصودة، ما فيه كفاية(٥٣). حينما يؤكد قوله: "ولا ريب أنك لم تر الحمامة أهلا لتعلمها أحكام الدين، كما رأيت البازي أهلا بذلك، لان الحمامة بظنك مغنية، وتستدل على مذهبك بإجماع

قراءة في السرد العربي القديم

الشعراء، لأنها توصف بالغناء في سالف الدهر، وقد لزمها ذلك إلى هذا العصر، وإذا لم تظهر التوبة من المغنية وجب أن لا يحكم عليها بالدين وهؤلاء هم الذين شهدوا عليها بالغناء، يصفونها أيضا بالنياحة والبكاء، فهذان القولان متناقضان: أحدهما وصف بالفرح، والآخر وصف بالحزن والترح"(٥٤). فكان يشير إلى أن الفرح والحزن لا يتوفران في قول واحد، لأن اللفظة لا تحمل معناها ونقيضه، كنوع من الملاسنة في الكلام للوصول الى حقيقة ثابته بعيدة عن المزاج الشخصي، وهو ما دفعه الى استخدام اسماء الحيوانات والنباتات الملغزة لكشف ما فيها من تورية، والتي تعني فيها اللفظة معنى ظاهراً وآخر باطنا يختلف اختلافا بيّنا، وهو نوع من الايغال نحو المجالات الموغلة في التعبير عن حقيقة الاشياء ومجاهلها العميقة. لهذا يأخذ الكاتب على عاتقه مهمة الكشف عما هو مخبأ وملغز من أسماء النباتات والحيوانات، فيقول: "إن الشكلين متباعدان أربها اسمها وتريثي القمر"(٥٥)، لان العرب لا تعني ظواهر القول في هذا، وإنما تعني خفاياه وبواطنه، مثلما ألغز عن الحسن والحسين بكثيبين من الرمل(٥٦). وألغز عن جعفر الصادق بالنهر الكثير الماء. وألغز عن أم الصبيين عن المرأة التي لها صبيان، وألغز عن علي بالأعرج، وهو الغراب أو الذئب لأنهما أعرجان وقتلهما مباح في الحرب، لأن علياً كان يكره دخول هذه الاشياء إلى المسجد. وألغز عن البقرة التي هي جمع باقر، وهو ينقر بطن المرأة أو الرجل كما فعل الجحاف بن حكيم السلمي، لأن علياً كان يلعن من فعل ذلك(٥٧). وحين يسأل الشاحج الناس (الضبع) قائلا: أنشدك الله هل تعلمين انك تهرّين عند المطعم؟ فيقول: اللهم نعم(٥٨).

يعد هذا التساول الداخلي جزءاً من مساحة أحد محاور الرسالة وهو مما يعني أن الحوار ينتقل من طرف إلى آخر، ثم يتفرع داخليا ليصبح حوارا آخر يفصح ويتوسع في المشهد، وفيه يجري الحوار بين الحيوانات، حتى أنه يناجي (الضابح) في البلد، فيقول: ألا تعلم لنا الخبر يا ثعال. فيبتدر الكاتب بوصفه راوياً لمتابعة حركة الثعلب الذي يرد عليه قائلا: العامة يخبرون أنه زعيم الروم قد نهد إلى أرض المسلمين(٥٩). في ضربة خاطفة لمحور الصراع بين المسلمين والروم. ثم يتابع ذلك مشيراً الى سوء فهم العامة الذين زعموا أن زعيم الروم أسمك عن الاجابة لأمر لا يعلم، وإن المسامع ظن ن الكلام قد انفصل بعضه من بعض، وإن زعيم الروم كان يخاف إن برز الى بلاد المسلمين أن يفعل به (السيد عزيز الدولة) ما فعل بابن الصعق(٦٠).

المعرفة وحساسية التأويل

تحتوي هذه الرسالة على محمولات معرفية عديدة يحاول أن يدخلها ضمن سرده للحكاية، وهو في هذا يطرح منهجه السردي عبر ما يعرف بنظرية المعرفة، لانه يرى في التأنق نبضا حياتيا للفكر في رسالة مبنية بناء خاصا وهو توالي الحكايات في إطار خاص مما يهيئ الظرف لان تكون هذه الرسالة مشبعة بالافكار الثقيفية والتوجيهية كالامثال والنقد والاراء اللغوية والنحوية والالغاز، بهدف خلق حركة ذهنية تحاول أن تنبض بما هو ظاهر الى الكشف عما هو خفي وغاطس، عبر عمليات الانتاج المعرفي التي تجعل الحكاية ذات أهداف غير معلنة، تجمع بين السرد والتفلسف للنهوض بما هو عادي الى ما هو باطني وتأويلي، لان معرفة المعري متلصقة بالواقع العربي الذي يعيشه وليست ما ورائية، لأنها تعبير عن رؤية "ايديولوجية"(٦١) مضادة للساند والمألوف، لانه يعكس وجهة نظر مناهضة للفكر العباسي المهيمن، وتتفق مع

عزيز الدولة الذي تولى حكم حلب للفاطميين أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر، وقد قتل عزيز الدولة هذا على يد غلام هندي سنة ٤١٣هـ/١٠٢٣م(٦٢). مما يكشف عن خفايا التوجه السياسي لدى المعري ومحاولاته في التعبير عما هو خفي ومسكوت عنه.

***

غالباً ما ترتبط الحكاية بالمثل أو اللغز، لأن الاخير تلخيص مكثف لها، فهو جوهرها الذي يحمل معه إحالاتها المضمرة التي هي تعبير عما هو كامن ومغيب، لأن الرسالة هي كتأليب سردي يقوم على توالي الحكايات، يستخدم فيها الكاتب التلميح والاشارة في لعبة كلامية غايتها الكشف عن خفايا الأشياء، إذ إن الأمثال التي تحيل إلى ما هو خفي ومأكر، تبدو فيه لعبة (المغيب والمعلن) ساخرة في كتابات المعري بالتعمية عن مقاصده الحقيقية، وإظهار سواها، وإيهام القارئ(٦٣). فإذا كان المثل مرتبطاً بالتشبيه وما يتصل به من استعارة أو تمثيل(٦٤)، فإنه بالتالي يتضمن الحكمة والعبرة، مشفوعتين بالإيجاز، لأنه ينطبق مع القول الشائع "أفضله أوجزه"(٦٥). ولأن المعري يتحرى الإيجاز والتلميح والإشارة، فإنه أثر استخدام أساليب الكناية والتورية والرمز، لأنه يعتقد أن الكلمات والعبارات على غير ظاهر ألفاظها، لذا فهو نادراً ما يتجاوز شرح الألفاظ - تفسير البعيدة وإيماءاتها الخفية(٦٦). فأمثال من قبيل: كل الصيد في جوف الفرا، أين أذهو إذا صبحتموني، القول ما قالت حذام، وغيرها تلخيص لحكايات معروفة، كما أن سرد المغري المركز هو عبارة عن سرد يستند إلى بلاغة المثل وما يعنيه من إيثار لما هو عميق ودال، كقوله: "ولو كنت بالغا في الادب أطواري، لكنت في تلك الحضرة كالقطرة تحت الصبر، والحصاة الى جانب "ثبير" فما بالي وأنا مثقل استعان بذقن، وطفل بهش الى بفن، وذليل عاذ بقرملة، وعبد هتف بأمة؟ والربيع أغفلت الكمأة، وعند المنهل نسيت المزادة(١٠٠) وقد أضاء الصبح لذي عينين، فهل يضيء لمن لا عينين له"(٦٧).

يحتوي النص مجموعة أمثال تشير إلى حكايات تقف عنها مغاليق الكلام، ولو سرد الحكايات لطال الكلام، واتسعت مساحاته نحو الثرثرة والكلام الفائض، لكن الكاتب أثر المعنى بأقل الكلمات مستفيداً من قوة تأثير المثل وقدرته على الضرب في الأعماق، نحو: "معنى المعنى" الذي لا يمكن التوصل إليه إلا عن طريق صور البيان، كالتشبيه والتمثيل والمجاز(٦٨). لذا يرى في المثل القائل "ربما كان السكوت جواباً"(٦٩) تلخيصا لمحور كلام (الشاحج) الذي يرى أن "الاكثار مظنة العثار"(٧٠)، وهو يحاور صاحبه (الصاهل) حين يقترب من منصرفه فيجيبه الذي يرى في جوابه يرى، وهو يقول: "أقرب من البرة الى الناقة ومن المرضع الى الافاقة"(٧١)، مما يعني أن تشكلات الكلام هي

تشكلات معرفية تقوم على استمرار التناصات للخروج من المباشرة إلى التأويل والباطن. ولكن هذا الباطن لا يفسر إلا من خلال الإحالة العميقة، كقوله: "لا فارقت مسمعك قصيدة إما قصيرة وإما طويلة"(٧٢)، للكشف عما هو ظاهر إلى ما هو غامض في قوله: "ما معنى هذا الكلام المتناقض؟ ولا تشعر إني عنيت بالقصيدة: العصا، لأنها تقصد من الشجر أي تكسر، قصدت العودة فهو مقصود، قال أبو زيد الطائي:

فدعا دعوة المخنق والتليد

سب منه بعامل مقصود"(٧٣).

في دعوة لتأمل ما هو غامض وغير معلن، فالتلاعب نوع من التورية، كقوله: طارت حمامتك ووقعت رخمتك(٧٤)، ثم يعقب كاشفاً عن ذلك: وقصدي بالحمامة هنا: سعدانتك، وكركرتك. تسمى بهذين الاسمين أستعيرا لها من الطائر، لان الحمامة يقال لها سعدانة. فيما يرى أن الرخمة نذيرا بالهلاك والموت والشيب حكاية مشافر الابل عند الشرب في قول الراجز:

قراءة في السرد العربي القديم

والشيب منهن بنادي الشيب(٧٥)

وأول الملح بالبركة، لأن العرب كانت تقسم بـه(٧٦)، وكذا في تأويل الفأرة والعنبر والقصبة والصبي والذباب والتنين... وغيرها.

***

بإمكان الحكاية أن تكون وسيطاً لتوصيل المعرفة، وخصوصاً وأن المعري يكتب رسالته إلى شخص معني بينهما لقاء في المعتقدات غير معلن، يبث إليه اعتراضاته على السلطة العباسية، مستخدماً المثل وحكايته المضمرة، للتعبير عما هو مستتر . لهذا جعل الحكاية محوراً لتجاوز الاتصال الافقي بين الحكايات عبر أسلوب يبث العديد من الافكار النقدية والمعرفية، كقوله: "وأما دعواك نظام الشعر، فخلة لا تفتقد معها زلة. إذ جاء الروي فضح الغوي. ولو قيل إن القافية سميت قافية لأنها تقفو الجاهل بها، أي تعيبه، لكان ذلك مذهبا من القول. والقريض مشابه أم دراص، ومن سلكها غير خبير فكأنما سقط من بئير"(٧٧). فالسرد الذي يعلق به على النص الشعري، وهو نقد معرفي فيه تلميحات وإشارات توحي بها الألفاظ إلى امثال أو أمكنة أو أحداث، ليمتد سياق الكلام إلى فك مغالبقه الأولى، فقد شبه القريض وهو الشعر بالداهية (الحية الاقمى) التي اضاعت حجرها (نقفها)، ليوكد أن القريض يحتاج إلى دربة وخبرة من فقدها سقط من الأعلى كما يسقط الجاهل عن جبل ثبير بمكة. فكشف عن موقف نقدي هو خبير به وعارف لمتعرجاته، وهذا يجعل الحكاية جزءا من النص، سواء من دلالة المثل أم من سياق الكلام، في ظل حركة حوارية تحاول استثمار الشفاهي لصالح تراتبية المنطق في ظل سجال ينمو باتجاه تعقيد مغزى الكلام ومفرداته، تدعمه نظرة استعلائية أو علانية تستفز المتلقي لإظهار جهله بما يكتب، وكأنه يتهم المبصر بأنه يهتم بما هو ظاهر أمام البصر، ولا يجتهد في البحث عما هو معبر عن البصيرة في ظل شعور خفي بفائدة العمى ولقاء الحكاية مع التلقي الشفاهي المرتبط بها، مع ميل نحو معرفة أدبية تجمع النثر مع النظم تفزع الشاعر وتصفه بالمعاضلة في المدح، والذم في الهجاء، لان المدح ونقيضه إنما يكونان لمن عُرف وشهر، والنفوس بنيت على السخط وحلى الذنوب(٧٨). في ظل تعبير واضح يمقت الكسب وطلب النوال، ومن هنا جاءت كتابتة للرسالة البعيدة عن التكسب والتملق بوافر الكلام وسلاسة اللفظ، فركب الصعب ليبلغ غايته، لهذا يحاول أن يرد عن بعض الادعاءات غير المقنعة للعاقل فيرد على محدثه المفترض بالقول: وادعيت أن الهدهد كان يكلمة (أي يكلم النبي سليمان) بكلام يفهمه الحاضرون، فكذبت

الحاضرون، فكذبت وأخلت. ما زعم ذلك زاعم سواك. ولو إن علياً فهم كلامه بخاصة يفهما الله له، لما جاز أن يفهم كلامه غيره. لأنه يعني بـه علم الموسيقـى لأنه تغلغل في معرفة الحروف واللغات والاصوات(٧٩).

مما يثير أكثر من تساؤل إن الرسالة تتضمن آراءً نقدية خاصة بالشـــعر ومنظوم الكلام ونثره. وإن المنثور جنس للمنظوم وعلى حسب ما يتسع في القـوم المتكلم، يتصرف لدى النظم الشـاعرة. ولذلك صح إن العرب أوفر الأمم حظاً في الموزون لأن لغتهم تستبحر وإن لم تَبن منها أوزان الشعر(٨٠). مما يشير إلى أنه يعتقد إن المنثور يمكن أن يكون في سـياق خاص أن ينتظم في بحار خاصة لأن لغة العرب تحتمل ذلك وإن لم بين منها أوزان الشعر في إشارة إلى الفرق بين الوزن والبحـر وإن الشعر نوع من جنس، وذلك الجنس هو الكلام. وإذا صح ذلك قيل إن الشعر جنس، والرجز نوع، وإن الذي ينشئ الرجز راجز، والذي ينشـئ غيره من القـصيد شـاعر، وإن الرجز أضعف القـــصيد ولكنهما جنس واحد(٨١).

١- نظرية المنهج الشـــكلي- نصوص الشـــكلانيين الروس، ترجمة: ابراهيم الخطيب، مؤسســة الابحـاث العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٢م، ص١٤٦

٢- رسـالة الصاهل والشاحج، أبـو العلاء المعري، تحقيق: عائشـة عبـد الرحمن، دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٣٩

٣- القارئ والحكاية، امبرتو ايكو، ترجمة: انطوان ابو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البـيضاء، ١٩٩٦م، ص١٤٥

٤- فاكهة الخلان ومفاكهة الظرفاء، ابـن عرب شـاه، تحقيق: محمد رجب النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، المقدمة ص١٣ـــ١٤

٥- رسالة الصاهل والشاحج، ص١٢٦

٦- المصدر نفسه، ص١٣٠

٧- المصدر نفسه، ص١٤٣- ١٤٤

٨- المصدر نفسه، ص١٧١- ١٧٢

٩- المنتظم، ابن الجوزي، ١٠ لدار الوطنية، بغداد، ١٩٩٠م، ٨/٨٥

١٠- رسالة الصاهل والشاحج، ص٢٢٨

١١- المصدر نفسه، ص٢٣٠

١٢- المصدر نفسه، ص٢٤٩

١٣- المصدر نفسه، ص٢٤٩

١٤- المصدر نفسه، ص ٢٥٦-٢٥٧

١٥- الاساطير بين المعتقـدات القـديمة والتوراة، علي الشوك، دار اللام، لندن، ١٩٨٧م، ص١٠٥

١٦- العقد الفريد، ابن عبد ربه الاندلسي، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت، د.ت، ٢/١٣٩

١٧- رسالة الصاهل والشاحج، ص٢٥٦

١٨- المصدر نفسه، ص٢٥٧

١٩- المصدر نفسه، ص٢٥٨

٢٠- المصدر نفسه، ص٢٥٩

٢١- المصدر نفسه، ص٢٦٢

٢٢- النقد الثقافي، عبـد الله الغذامي، المركز الثقـافي العربي، ط٢، بيروت، ٢٠٠١م، ص٢٠٦

٢٣- الفكاهة والضحـك، شـاكر عبـد الحـميد، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٣م، ص٤٦

٢٤- رسالة الصاهل والشاحج، ص٢٦٥

٢٥- المصدر نفسه، ص٢٦٤

٢٦- التوراة، سـفر التكوين: كتاب الحـــياة، ترجمة تفسيرية، ط٥، القاهرة، ١٩٩٢م، ٣/١

٢٧- الاساطير، الشوك، ص٧٤

٢٨- رسالة الصاهل والشاحج، ص٢٧٠

٢٩- سفر التكوين: ٨/٨

٣٠- المصدر نفسه: ٥/٤-٦

٣١- رسالة الصاهل و الشاحج، ص٢٧٧
٣٢- المصدر نفسه، ص٢٨٠
٣٣- المصدر نفسه، ص٢٩٣
٣٤- المصدر نفسه، ص٣٠٦-٣٠٧
٣٥- المصدر نفسه، ص٣١٠
٣٦- المصدر نفسه، ص٣١٧
٣٧- المصدر نفسه، ص٣٢٥-٣٢٦
٣٨- المصدر نفسه، ٣٤٧
٣٩- المصدر نفسه، ص٣٤٨
٤٠- المصدر نفسه، ص ٣٤٤-٣٤٥
٤١- المصدر نفسه، ص ٣٧١-٣٧٥
٤٢- المصدر نفسه، ص٤١٠
٤٣- المصدر نفسه، ص ٦١٠
٤٤- المصدر نفسه، ص٤٩٢
٤٥- المغيب و المعلن، نادية عزازي العزاوي، دار الشؤون الثقافية، ط١، بغداد، ٢٠٠٢م، ص١٨-١٩
٤٦- رسالة الصاهل و الشاحج، ص٨٥
٤٧- المصدر نفسه، ص٩٠
٤٨- المغيب و المعلن، ص١١
٤٩- نسيج النص، الازهر الزناد، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٣م، ص٣٢
٥٠- رسالة الصاهل و الشاحج، ص١٨٣
٥١- المصدر نفسه، ص١٨٤
٥٢- المصدر نفسه، ص٢٥٥
٥٣- المصدر نفسه، ص٥٤
٥٤- المصدر نفسه، ص٢٥٦
٥٥- المصدر نفسه، ص٣٥٠
٥٦- المصدر نفسه، ص٣٥١
٥٧- المصدر نفسه، ص٣٥٣-٣٥٤
٥٨- المصدر نفسه، ص٤١١
٥٩- المصدر نفسه، ص٤١٥
٦٠- المصدر نفسه، ص٤١٩
٦١- الميثافيزيقيا- العلم والايديولوجيا، عبد السلام بن عبد العالي، دار الطليعة، الشركة الغربية للناشرين المتحدين، ط١، الرباط - بيروت، ١٩٨١م، ص١١٢
٦٢- رسالة الصاهل و الشاحج، ص٨٣ الهامش.
٦٣- المغيب و المعلن، ص٥٧
٦٤- معجم النقد العربي القديم، احمد مطلوب، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩م، ٢/٢٤٨
٦٥- العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقد، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢، القاهرة، ١٣٧٤ه/١٩٥٥م، ١/٢٨٠
٦٦- رسالة الصاهل و الشاحج، مقدمة التحقيق، ص٧٤
٦٧- المصدر نفسه، ص٨١-٨٢
٦٨- معجم النقد العربي القديم، ٢٠/٣٢٦
٦٩- رسالة الصاهل و الشاحج، ص١٦٦
٧٠- المصدر نفسه، ص١٦٥
٧١- المصدر نفسه، ص١٦٦
٧٢- المصدر نفسه، ص٣٨٨
٧٣- المصدر نفسه، ص٣٨٩
٧٤- المصدر نفسه، ص٣٩٠
٧٥- المصدر نفسه، ص٣٩١
٧٦- المصدر نفسه، ص٣٩٦
٧٧- المصدر نفسه، ص١٥٦ ام دراسي: الراهية، ويثير : جبل بمكة.
٧٨- المصدر نفسه، ص١٧٥
٧٩- المصدر نفسه، ص٢٧٠ -٢٧١
٨٠- المصدر نفسه، ص١٦٢
٨١- المصدر نفسه، ص١٨١-١٨٢

خرجت بها تمشي تجر وراءنا
على اثرينا ذيل مرط مرحلِ

الشرح:

قـولـه: (خـرجـت بها تمشي) أي خـرجـت مـن البـيـوت لأخـلو بها، و المرط : ازار خز له علم، و يكون من صوف ايضاً، وانما تجر مرطها ليخفي اثرها و أثره فلا يستدل عليهما(١).

غواية المعنى وجمالية الخبر

عقيل عبد الحسيب

السردي في الشعري

يحل المعنى، في العادة، عادة القـارئين للنصوص في جسد النص، و لا تكون الاساليب و الصياغـات غير شفرات تعبر عنه، وقد يجهز القارئ بالمعنى قبـل ان يصادف النص، و لا يكون النص، من ثم، غير حـامل ووعاء يتخذ شكل المعنى ويؤديه اداء واضحا. ان الاثر في هذه الحالة، او ما يطـلق عليه اللسانيون الاشارات المقيدة التي تصل الدال بمدلوله ايصالاً مباشـراً، يظل حـاضراً في جسـد النص، ومعلماً، ومؤشـراً عليه بمسـاعدة المتن النصي. او عائلة المكتوبـات، كما بمساعدة النظرية النقدية و البلاغية.

يصير الاثر ضروريا، ومعتنى به، تتوجه الكتابة إليه، وتعنى بتشكيله وتأكيده- او تبريزه- ليقود المتـلقي: القـارئ- إلى المعنى، ويسـاعد على انجاز وظائف الكتابة . يبرز الأثر ليكشف الواقعة، او المواعدة بين

قراءة في السرد العربي القديم

كاتب جري، والمعنى الانوثي، والقلق، والخائف من القتل، اذا ما ذُري به واحيط من القراء الذين يبالغون في تتبع المعنى المكنون كذرة، والمصون من ان يُنزى عليه ويُدعى.

تسلل الكاتب إلى المعنى، ولا تتم لذته إلا بتبريز الاثر ليصل القراء إلى المعنى وليشهدوا بعد ذلك على سبقه وعلى قدرته- أي الكاتب. ولكن ماذا لو عمد إلى محو الاثر؟ سوف يخل ذلك بالعقد الضمني بين القارئ ومنتج النص، والنص نفسه. فالقارئ يحرس المعنى، والمؤلف يتسلل إليه "ويتجاوز احراس معشر حراص عليه، يودون مقتله" وبحبسه في الكتابة، ولكنه يترك وراءه دائما اثرا يقود إلى المعنى ويؤكد للقراء، انه لم يتلاعب بالمعنى او يغيره. فإذا ما محي الاثر او غمض او تشوهت ملامحه فسوف يضيع المعنى. ان تضييع المعنى غير مرحب به، لا من النقاد ولا من القراء ولا من الكتاب فهؤلاء لا يريدون ان يستسلموا لغواية المعنى، ولا يفضلون ان يغيب الاثر.

إذا استجاب الشاعر لغواية المعنى، دون ان يعي، واذا ترك له "ان يجر اذيال ثوبه يمحو الاثر وراءهما" فانه سيضل القراء ويعجزون عن اللحاق بهم، كما سيضطر الشاعر إلى السرد، سرد بطولاته، ومغامراته مع النساء- في معلقته يتذكر ايامه- وسيضطر إلى اثبات فحولته، دون ان يصدق به احد، بل قد يتشكل سرد آخر يثبت انه غير فحل، فغيره شاعر يفوقه شعريا، ويستولي على امرأته، ليحوز لقب "الفحل" ويدعي علقمة الفحل(٢). وربما تكرهه النساء- على خلاف ما يدعيه في قوله "اذا بكى من خلفها انصرفت له بشق وشق تحتي" - وتقول له امرأة ثانية: انك لسريع الاراقة، بطيء الافاقة، خفيف العجز، ثقيل الصدر. كما ستكون لعرقه رائحة كريهة- كما ستترى امرأة اخرى- لأنه رضع حليب انثى ذئب(٣) وتذكر رواية اخرى انه كان منانا لا ذكر له(٤).

ستقع العقوبة بالغة على من يضيع الأثر، المتلفق عليه، ويستجيب لغواية المعنى، ويأخذه من حضوره المتعاقد عليه. فيجلب عليه الاختلاف والتأويل، عقوبة تصل إلى حد نسج متون سردية موازية لصياغاته الشعرية، متون تنقض غزل الشعر، وتلك ما ينسجه فتدعي خنوثة الشاعر وتدعي تهاوي جسده- ربما المتخيل- بتأثير بردة بديعة مسمومة تهدى إليه من قيصر (ليسها... فاسرع فيه السم وسقط جلده)(٥) وليست البردة في سياق التأويل هذا ببعيدة عن نصوص الشاعر نفسها، فالنصوص في كمال صفتها ودقتها، وجمال نسجها تشبه عند العرب كثيرا بالبرود وبالثياب، يقول الاصمعي عن شعر أعجبه (ان هذا لهو الثوب الحسراني)(٦). ويقول الجاحظ: (الشعر نسج)(٧).

ان من مزق جسد امرئ القيس الفحولي وادى إلى تساقطه وهو حي، يرى ذلك التساقط وذو لسان يتحرك، ويصف ما يحل بـ"نفس تساقط انفسا".. ان من فعل ذلك لهو استجابته لغواية المعنى، ولما يترتب عليها من مغايرة في الكتابة. انه شعره نفسه، والبردة المسمومة هي النصوص التي يصفها وينقل فيها علاقته بالمعنى، الذي يتسلل إليه ويغريه، ويحمله على مغادرة مكانه، من بين القراء الحريصين والشعراء ليطيل مواعدته اول الأمر ثم يضعف امامه ويتقبل غوايته، فلا ينتبه إلى انه يضيع الاثر ويبعد عن الاعين، فيخسر مكانه شاعراً ويضطر إلى السرد، والى التذكر، والى التصريح بالواقعة في كل مرة، معلنا فحولته، التي لم يعد احد يعترف بها.

قارئ غير شرعي

يذكر الخبر القديم بقدرة العقل على فضح العلاقة القائمة بين الاثر والشيء إلى درجة تحول الاثر في العين المميزة الخبيرة إلى مرئي وكأنه ماثل حاضر ليكون الاثر هو ما ينسج الشيء ويثبت حضوره، ويصرح بابعاده ومكوناته وملامحه.

يذكر كتاب قصص العرب في خبر اولاد نزار ان نزاراً اوصى ابناءه (مضر وإياد وربيعة وانمارا، وقال لهم: يا بنيّ: هذه القبة الحمراء- وكانت من ادم- لمضر، وهذا الفرس الادهم والخباء الاسود لربيعة، وهذا الخادم- وكانت شمطاء- لإياد، وهذه الندوة والمجلس لانمار يجلس فيه؛ فان اشكل عليكم كيف تقتسمون فاتوا الاقعى الجرهمي ومنزله بنجران)(٨).

وهذه وصية ليست كالوصايا الاعتيادية، فهي وصية تتخذ الطريقة الشعرية شكلاً لها، وتتضمن مجازاً يحتاج إلى قارئ يفك رموزها، ويوزع المعنى- الميراث على الابناء، ابناء المؤلف/ صاحب الوصية.

واغلب الظن عند انمار ان المنتسبين بالدم إليه- أي إلى المؤلف- لن يتمكنوا من قراءة الوصية وتقاسم المعنى، ولذا يحيلهم إلى حكيم هو الاقعى الجرهمي، وهو قارئ عارف بهذا النوع من الوصايا يستطيع الوصول إلى تقسيم المال الموروث، حتى مع غياب التصريح، أي يستطع الوصول إلى المعنى حتى مع غياب الاثر، أو مع تغييب الاثر.

ويبدو ان الخبر سوف ينحرف انحرافاً غير مقصود في الظاهر، وذا دلالة في الباطن. فبعد ان يموت نزار يفاجأ الابناء بكثافة سطح نص الوصية، وبعدم قدرتهم على النفاذ إلى الموروث- المعنى، إذ لم يترك المعنى اثراً وراءه ويضطرون إلى التفكير بالقارئ الذي يصل إلى الارث فيرحلون إليه، وهم شاكون بذكائهم وبقدرتهم على ممارسة النصوص، وربما بعدم جدارتهم بالمعنى/ الميراث.

ولكي يثبت لهم عكس ذلك- كما يقول ظاهر الخبر- فلا بد من ان ينحرف الاخير إلى ما يؤكد انهم قادرون على القراءة (فبينما هم في مسيرهم، إذ رأى مضر أثر كلأ قد رُعي؛ فقال: إن البعير الذي رعى هذا لأعور؛ قال ربيعة: انه لازور؛ قال إياد: انه لابتر؛ قال أنمار: انه لشرود. ثم ساروا قليلاً فإذا هم برجل ينشد جمله، فسألهم عن البعير، فقال مضر: أهو اعور؟ قال: نعم، قال ربيعة: أهو ازور؟ قال: نعم، قال إياد: أهو ابتر؟ قال: نعم، قال أنمار: أهو شرود؟ قال: نعم! وهذه صفة بعيري فدلوني عليه. قالوا: والله ما رأيناه، قال: هذا والله الكذب! وتعلق بهم)(٩).

يذهل الرجل صاحب الجمل- وربما صاحب النص- لقدرة هؤلاء على الوصول إلى هيئة الجمل المفقود- هيئة المعنى، انهم يستحضرونه ويحددون ملامحه وصورته وكأنه ماثل امامهم. أي قارئ يستطيع أن يقبض على المعنى الذي يضمره المؤلف في نفسه إلى هذه الدرجة؟ يتيقن صاحب الجمل انهم يعرفون جمله، وقد صادفوه، فيسئل بهم، ويتهمهم به، ويقاضيهم، ليتضح انهم احسنوا قراءة الأثر (قال مضر: رأيته رعى جانبا وترك جانبا؛ فعلمت انه اعور. وقال ربيعة: رأيت احدى يديه ثابتة الاثر والاخرى فاسدته؛ فعلمت انه ازور؛ لانه افسده بشدة وطئة لازوراره. وقال إياد عرفت انه ابتر باجتماع بعيره، ولو كان ذيالا لمصع به. وقال انمار: عرفت انه شرود، لأنه كان يرعى في المكان الملتف نبته، ثم يجوزه إلى مكان ارق منه واخبث نبتاً؛ فعلمت انه شرود)(١٠).

يظهر ان الانحراف إلى هذه المسافة من جسد الخبر غير مقصود، وقد يراد منه اثبات ذكاء اولاد نزار والقول ان الاقعى ذاك- الذي سيذهبون إليه- ليس أكثر ذكاء وحكمة من اذكياء كهؤلاء. ولكن هل يصح الاطمئنان إلى مثل تلك التصورات الظاهرة؟ لعل آخر شيء يمكن ان يثق به القارئ المميز، هو ما يعلنه النص.

يصل اولاد انمار إلى بيت الاقعى الجرهمي منتشون بقدرة القراءة الفذة- المدهشة التي كشفتها لهم رحلتهم، وتحت هذا التأثير يقرأون من سيرة الاقعى وسيرة ابيه

اشيائه ما لم يقرأه هو أو يتوقعه، فبعد ان الزلهم (وذبح لهم شاة، واتاهم بخمر، وجلس لهم الاقعي، حيث لا يُرى وهو يسمع كلامهم. فقال ربيعة: لم ار كاليوم لحماً اطيب منه، لو لا ان شاته غذيت بلبن كلبة، فقال مضر: لم ار كاليوم خمرا أطيب منه لو لا ان حبلتها- كرمها- نبتت على قبر. فقال اياد: لم أر كاليوم رجلاً أسرى منه لو لا انه ليس لابيه الذي يُدّعى له، فقال انمار: لم أر كاليوم كلاماً انفع في حاجتنا من كلامنا. وكان كلامهم بائنه)(١١).

يلوح الخبر على لسان انمار إلى ان الكلام عن الاقعي ونسبه ونوع اشيائه نافع في حاجتهم، فلعله يؤكد غاية الخبر الاساسية المضمرة، وهي العناية بالاثر والقراءة التي تنتج عن الاثر، فالمعنى حاضر - ما كان الاثر حاضراً ولن يبقى غير التأكد من المعنى إذ (دعا القهرمان- القائم بامور الرجل- فقال: من حيلة غرستها على قبر أبيك لم يكن عندنا شراب اطيب من شر ابها، وقال للراعي: ما أمر هذه الشاة؟ قال: هي شاة صغيرة أرضعتها بلبن كلبة، وذلك ان امها كانت قد ماتت ولم يكن في الغنم شاة ولدت غيرها. ثم اتى أمه فسألها عن ابيه فاخبرته انها كانت تحت ملك كثير المال، وكان لا يولد له، قالت: فخفت ان يموت و لا ولد له فيذهب الملك)(١٢).

قراءة في السرد العربي القديم

الاقعي، إذاً، ابن غير شرعي، يظهر ذلك ابناء نزار الذين يتبعون الاثر ويصلون إلى الحقيقة (=المعنى) ويصلون إلى ما لا يستطيع ان يصل إليه، القارئ، الذي تحدده وصية نزار. يحل الاقعي اللغة المجازية للوصية ويعطي كل واحد من الابناء نصيبه من المعنى (=الارث): (فقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر، فذهب بالدنانير والابل الحمر، فسمي مضر الحمراء لذلك. وقال: أما صاحب الفرس الادهم والخباء الاسود فله كل شيء اسود، فصارت لربيعة الخيل الدهم، فقيل: ربيعة الفرس. وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد، فصارت له الماشية البلق من الحبلق- غنم صغار لا تكبر- والنقد- غنم قبيح الشكل - فسمي اياد الشمطاء، وقضى لانمار بالدراهم وبما فضل، فسمي انمار الفضل)(١٣).

ينتهي الخبر هنا ويبدأ التأويل. ايهما القارئ: الذي يصل من الأثر إلى المعنى؟ ام الذي يصل إلى المعنى من غير أثر؟ ربما يجيب خبر آخر عن هذا السؤال. فقد تراهن رجلان زعم كل منهما انه اعرف بالاثر من صاحبه. فادعى الاول ان الأثر لجمل، في حين ادعى الثاني انه لناقة. وجدا في طلب الاثر، فلما وصلا إليه، علما انه خنثى، فاصابا جميعاً، كما يقول الخبر (١٤). سوف تكون الاجابة: كل مضيع للاثر مصيب، برغم الاختلاف الظاهر، فالمعنى اقرب "للخنثى" الذي يحتمل كل التقديرات. ولكن ماذا عن ذلك الذي يقرأ نصوصاً أو مكتوبات مُحي الاثر الذي يقود إليها؟ ألم يضع نزار وصية لا تشبه الوصايا المعتادة، المباشرة والصريحة، فهي وصية مجازية، ألم يمح الاثر الذي يستدل به على المعنى؟ ألم يراهن نزار على ان هناك قارئا اذكى منهم يستطيع ان يصل إلى المعنى من غير أثر؟ لقد افترض نزار ذلك ولكن الخبر انتظم في نسق آخر، نسق يثبت تفوق قارئ الأثر وشرعيته وصحة نسبه إلى ابيه (=ثقافته) وتراجع قارئ النص ممحو الاثر، ونغولته، وفساد نسبته "فهو ابن غير شرعي منسوب لاب يمتلك المال والنسب و لا يمتلك العقب".

سيرة ممفتوحة

يغيب الأثر فتحل غواية المعنى ويضيع المؤلف ويدفن قرب انقرة ويرى،

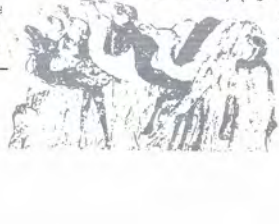

ضائعاً مدفوناً في هذه البقعة فيقول: "إنا غريبـــان ههنا، وكل غريب للغريب نسيب". لتظهر نسبـــة غير نسبـــة النص إلى المؤلف إذ لم يعد النص ممهوراً باسم صاحبه أو دالاً عليه، فليس كل شعر امرئ القـــيس له بـــل هو لصبيان كانوا يلهون معه، وهو لرجل يدعى عمرو بن قميئة رافقه في رحلته إلى بـــلاد الروم ولم يمت ميتته لأنه لم يرتد الحلة(١٥). سوف ينفي الشعر اسم صاحبه عنه.. ولا شيء يدل على الشبه ما دام الشاعر يجر ثيابه على الاثر فيمحوه. عـــلـــى المؤلف ان يبرز الاثر، كـــما قلت، حتى لا يفوت القارئ التصديق، ولا يفوته أن ينسب النص للمؤلف، لأن القارئ يشبه اولاد نزار، يبحث عن النسبة، ويحـــرص على الا يكون الآخر - نغلاً- ايا كان الآخر، منتج نصوص أو منتج قراءة.

لنتذكر هنا خبراً من نوع آخر، هو خبر زرقاء اليمامة، وهو خبر طويل يظهر ما يظهر ليخبئ أكثر مما يظهر. انه يوحي بأن المقصود زرقاء، وقدرتها الخارقـــة على الابصار، ويضمر غير ذلك. فماذا يضمر الخبر؟ كان في طسم ملك عاتـــم يدعى "عملوقـــا" يأخذ من جديس المرأة فيقتضيها قبـــل ان تزف إلى زوجها. وقـــد ظلت جديس تتحـــمل هذه المهانة إلى ان وصل الأمر إلى عفيرة (وقيل الشموس بنت عفار الجديسي اخت الاسود بن غفار، وقع عليها عملوق، فافترعها وخلى سبـــيلها فخرجت على قـــومها في دمائها، شاقـــة عن قبـــلها ودبرها)(١٦) مظهرة التأذي محرضة اخاها وقـــومها بشعر منه: (فإن انتم لا تغضبوا بعد هذه، فكونوا نساء لا تفروا من الكحل)(١٧). تغضب جديس وتقرر التخلص من عملوق ومن قبيلة طسم لما داليها من مذلة.

لنؤكد على أن المرأة تصوغ حكايتها صياغة حســـنة، ومؤثرة، فلا تنســـى ان تظهر الاثر، اثر اغتصاب عملوق لها. وان اضطرها ذلك إلى ابراز نقاط اللذة في جسدها، والمجاهرة بها، مقدرة ان ذاكرة قومها ســـوف تختزن هذه الصورة بـــعناية، مثلما تختزن مثيلاتها الموجودة في النصوص(١٨). ومقـــدرة انهم ســـوف يستجيبون لما تقول (=تؤلف) من دون مقاومة كبـــيرة، وسوف يتحقق لها ما تسعى إليه، فتحتال جديس للقضاء على طسم وتدعوهم إلى وليمة، يقول المســـعودي: (ثم ان الاسود صنع طعاماً كثيراً، وأمر قـــومه فاختـــرطوا سيوفهم ودفنوها في الرمل حـــيث اعدوا الطعام... ثم دعا الاسود بعملوق الطســـمي ومن معه من رؤســـاء طســـم... فلما تواقوا إلى المدعاة وثبـــت جديس، فاستثاروا ســـيوفهم من الرمل، وشـــدوا على عملوق واصحابه فقتلوهم حـــتى افنوهم عن آخرهم)(١٩). الا واحداً كان اسمه رباح بن مرة الطسمي.

يفكر الرجل الناجي في ان عليه ان يقنع حسان بن تبـــع الحميري ملك اليمن، الذي استعان به، فيعمد إلى جريدة نخل رطبـــة فيجعل عليها طيناً رطبـــاً، ويحـــملها معه ويخرج معه كلبة (فلما ورد على حسان كسر يد كلبته، ونزع الطين عن الجريدة فخرجـــت خضـــراء)(٢٠) وذلك ليؤكد للملك قـــرب منازل قبـــيلة جديس، وانه لن يتعب جيش الملك كثيراً تتبـــعهم والقـــضاء عليهم. انه على اية حال يعرف جيداً كيف يحبك حـــكاية- او نصاً منسجماً ومقنعاً، ويُرّي الملك قريباً ما بعد عنه بمساعدة اثر ظاهر، يجلب لحكايته التصديق ويضمن الاستجابة.

بقي على الناجي- مؤلف الحكاية اتمامها، وهو يعلم ان ما يمنعه من الوصول إلى غايته وجود امـــرأة تدعى زرقاء لها قدرة ابصار خارقة. وان عليه ان يشوش تلك الرؤية. وفيما هم على بـــعد مســـيرة ثلاث ليال بأمر الرجال بالتخفي وراء الشجر المقـــتلع. وســـوف ترى زرقاء حركة الشجر فتخبر قومها، فلا يصدقها احد.

اننا هنا ثانية امام سرد لا يصدقه احـــد، ولنفس السبب، الذي وجد عند امرئ القيس، اعني غياب الأثـــر. فهل من المعقول ان شجراً يمشـــي! لا.. ولكن ثمة شـــيء يتحرك. ان زرقاء تحـــكي، وتســـرد- كما فعل امرؤ القيس- واقعة تحت اغواء الحكي، ناســـية ان هناك من يغيب الاثر- المعنى ربما- وناســـية ان عليها ان تجد الأثر، وتبرزه ليتضح للآخرين المعنى (=الحقيقة). يُدّعى ان غياب الأثر يقـــود إلى موت الآخرين، مثلما حصل في هذا الخبر، فهو ينتهي بموت "طسم" التي

بوغتت بـجيش الملك، ولكن، وأهم من هذا، يُدعى انه يقود إلى سـمّ عيني المؤلف. ويُظن ان امرأ القـيس عاش حتى كبر(٢١)- وربـما عمي- كما هو اوديب ، ويقال ان له صلة باوديب حكاية او خرافية(٢٢). مثلما يقود غياب الاثر إلى موته- أي المؤلف- فقد صلبـت زرقاء على ابواب اليمامة وسـميت زرقـاء اليمامة. وتقول سيرة امرئ القيس انه مات شاباً وغريباً

صلة

تقوم سيرة امرئ القيس على غياب الاثر . فهي سـيرة مجاورة للشعري وليست مفارقـة له- كما يتصور طه حسين-(٢٣) ناتجة عنه. تحاول ان تفسر سردية المتن الشـعري وتضيئة ليكون ذا دلالة، ويكون مألوفا في الشعر الذي يميل إلى الوصف، اكثر من السرد. ولتفسر بعد ذلك طبيعة الخبـر، فهو استجابـة لغواية المعنى وتغييب للاثر، خلاف الشعر، الذي هو تقـييد للمعنى، واحـضار للاثر، ليكون علامة اتفاق توجه القـراءة وتحـددها، وتميل إلى الاتفاق. يتضمن الخبـر تأكيدا واضحاً على اهمية الأثر، مع تصريح بان غياب الاثر يؤدي إلى السرد، و يولد نوع الخبر.

١- ديوان امرئ القيس، تحقيق:محمد ابـو الفضل ابـراهيم، ص١٤.

٢- الاغاني، ابو الفرج الاصفهاني، طبـعة دار الكتب،ج٧، ص١٢٨.

٣- المصدر السابق.

٤- المصدر السابق.

٥- المصدر السابق.

٦- الموازنة بين الطائيين، الآمدي، تحقيق: السيد احمد صقر، القاهرة، ١٩٦٥، ج١، ص٢٣.

٧- الحـيوان، الجاحـظ، تحقـيق: عبـد الـسلام هارون، ط٢/١٩٦٥، ج٣، ص١٣٠.

٨- قـصص العرب، جمعها باحـثون في التراث العربـي، ص١٢٢.

٩- المصدر السابق.

١٠- المصدر السابق، ص١٣٢.

١١- المصدر السابق.

١٢- المصدر السابق، ص١٢٤.

١٣- المصدر السابق.

١٤- المستطرف في كل فن مستظرف، الابشـيهي، ج١، ص٨٣.

١٥- ينظر: الطبقات، ابن سلام الجمحي، ص٣٧.

١٦- مروج الذهب، المسعودي، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة- مصر، ط٢/١٩٤٨، ج٢، ص١٣٧.

١٧- المصدر السابق.

١٨- يرى بـارت في كتاب "لذة النص" ان جمالية المـردود التقليدية تعتمد على مناطق اللذة التشبيهية بـمواضع الاثار في الجسد، و هي مناطق موزعة على النص يتوقف عندها القارئ و لا يمر عليها مروره على ما سواها من المناطق الحيادية في اثناء القراءة.

١٩- مروج الذهب، ج٢، ص١٣٩.

٢٠- المصدر السابق.

٢١- تاريخ الادب الجاهلي، تأليف: د. توري حمودي القيسي و د.عادل جاسم البياتي و د. مصطفى عبد اللطيف،طبع وزارة التعليم العالي و البحث العلمي العراقية، ١٩٨٩. و فيه بحث للدكتور مصطفى عبد اللطيف عن امرئ القيس يحاول فيه قلب التصور التقليدي السائد عن سيرته، فيرى- في صفحة ٢٨٩ - انه "عاش طويلا حتى بلغ شيخوخة عالية شكّ من متاعبها" ودليله على ذلك طغيان السرد التذكري على نصوصه.

٢٢- لكنز و التأويل (قراءات في الحكاية العربـية)، سـعيد الغانمي، المركز الثقافي، بيروت، ط١/١٩٩٤، ص٣٧.

٢٣- في الادب الجاهلي، ط، حسـين، دار المعارف- مصر، ط٩/١٩٦٨، الصفحات ١٩٦ وما بعدها.

"الرؤيا من الله والحلم من الشيطان"
حديث نبوي

الرؤيا مكونا سرديا

مخطط أولي لبيان وظيفة الرؤيا في كتب التراجم

سعيد عبد الهادي

بذبة الرؤيا في الفكر الاسلامي

يتفق المسلمون على أن الرسالة المحمدية أولها رؤيا، إذ يروى عن أبي ذر "أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة"(١) وتروي كتب السنن أن رسول الله قال إن "الرؤيا ثلاث: منها أهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم، ومنها ما يهم بها الرجل في يقظته، فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة"(٢)، فيما أشار حديث آخر الى العلاقة بين الرؤيا والنبوة "لم يبق من النبوة إلا المبشرات؛ قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة"(٣).

الحديث الاول يقدم لنا صنافة أولية ثلاثية الشعب تركز على عوالم ثلاثة (الشيطان، الانسان، الله) السماء، الارض، العالم السفلي، هذه العوالم هي المشكلة للفضاء التأولي لنصوص الرؤى، والمتأمل في النص القرآني يعلم أن العلاقة بين العالم الاول والثالث علاقة صراع، فيما يشكل عالم الارض الفضاء الذي يتجلى من خلاله

هذا الصراع، وبعيش الانسان فعل التمزق نتيجة وجوده (توسطه) في هذا الفضاء. وقد ولد هذا المجال معجمه الخاص، فقد استعمل مصطلح "التعبير" لفعل تأويل الرؤيا، وقد أريد به العبور من ظاهره الى باطنها، وقال البعض "النظر في الشيء فيعتبر بعضه ببعض حتى يحصل على فهمه"(٤). وقد أكد الراغب على أن أصله من العبر (بفتح ثم سكون) وهو التجاوز من حال الى حال، وعبر القوم إذا ماتوا كأنهم جاوزوا القنطرة من الدنيا الى الاخرة، قال والاعتبار والعبرة، الحالة التي يتوصل بها الشاهد الى ما ليس بمشاهد ويقال عبرت الرؤيا بالتخفيف إذا فسرتها وعبرتها بالتشديد للمبالغة في ذلك(٥) اما الرؤيا فقد أشار الواحدي أنها في الاصل مصدر كالبشرى، فلما جعلت اسما لما يتخيله النائم أجريت مجرى الاسماء(٦) وإذا كان هذا التحديد يبقى لنا الاصل اللغوي، فان الراغب يحاول أن يبين فضاء هذا الاصل بقوله "والرؤية بالهاء إدراك بحاسة البصر، وتطلق على ما يدرك بالتخيل نحو: أرى أن زيدا مسافر، وعلى التفكير النظري نحو: إني أرى ما لا ترون، وعلى الرأي وهو اعتقاد أحد النقيضين على غلبة الظن"(٧)، وتقول العرب رأيت رؤية إذا عاينت ببصرك، ورأيت رأيا إذا اعتقدت بقلبك، ورأيت رؤيا بالقصر إذا عاينت في منامك، وعلى المستوى الاصطلاحي حدها القاضي (ابو بكر بن عربي) بقوله "الرؤيا ادراكات علقها الله تعالى في قلب العبد على يدي ملك أو شيطان، اما باسمائها أي حقيقتها، اما بكناها أي بعبارتها، واما تخليط ونظيرها في اليقظة الخواطر فانها قد تأتي على نسق في قصة وقد تأتي مسترسلة غير محصلة"(٨)، فيما ذهب ابن الطيب الى أنها اعتقادات وليست ادراكات " فقد يرى الرائي نفسه بهيمة أو طائرا مثلا، وليس هذا ادراكا، فوجب أن يكون اعتقادا لأن الاعتقاد قد يكون على خلاف المعتقد"(٩)، وهذا الامر يؤكده ابو عبد الله المازني بقوله "مذهب أهل السنة في حقيقة الرؤيا أن الله يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان"(١٠) ولارتباط الرؤيا بالنوم برزت طقوسية خاصة لفعل النوم، إذ على المؤمن أن يردد قبل ان ينام "اللهم اني اسألك رؤيا صالحة غير كاذبة، نافعة غير ضارة، حافظة غير ناسية"(١١)، وعند الاستيقاظ عليه أن يردد "اللهم اجعله خير، ومكنا من تأويله، إذا هي منك، اللهم ارشدنا الى الصواب، اعوذ بالله من تفسير اضغاث الاحلام"(١٢)، في حين يجب أن يردد إذا ما رأى رؤيا سيئة "اعوذ بالله من تفسير اضغاث الاحلام"(١٣).

وقد ميز المسلمون فيما بعد بين الرؤيا والحلم، فالحلم بضم الحاء وضم اللام هو الرؤيا، او هو اسم للاحتلام وهو الجماع في النوم إلا ان الرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه، ويروى عن ابي قتادة عن النبي أنه قال "الرؤيا من الله والحلم من الشيطان" ثم اضيف الى ما سبق قوله عليه الصلاة والسلام "الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان، فإذا حلم فليتعوذ منه ولييصق على شماله فإنها لا تضره"(١٤). علينا ان نتوقف عند- مع هذا الحديث- عند أمرين! أولهما، العلاقة بين الشيطان والشمال، وثانيهما العلاقة بين الحلم والبلوغ، فغير البالغ رؤياه لوالده، وكأن بلوغ الحلم يراد منه امتلاك الرؤيا (١٥).

وفي أعلى دائرة الاحلام تقع الكوابيس، فقد عرفوه بانه الحلم المفزع المخيف الذي يقلق منام الحالم وقد يجعله يستيقظ على بكاء أو صراخ وسمي التهويل في المنام (قال بلغني أن خالد بن الوليد قال يا رسول الله إني أروع في المنام، قال: قل أعوذ بكلمات الله التامات من شر غضبه وعذابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون) ويدخل مصطلح الالهام في هذه الدائرة ايضا،

قراءة في السرد العربي القديم

فهو يعني تلقين الله الخير لعبده أو إلقاءه في روعه، وما يميزه عن الرؤيا وقوعه في اليقظة.

على وفق هذه المعطيات نشـــأت منظومة متكاملة تتمحور حول الرؤية، إذ حدد وقت الرؤيا، يقول ابـن سـيرين في أحـكام الرؤيا "أصدق الرؤيا بالاسـحار وبالقائلة، وأصدق الاوقات وقت انعقاد الانوار ووقـت ينع الثمر وادراكه، واصعبها الشـتاء. ورؤيا النهار أقـوى من رؤيا الليل"(١٦)، وحـددو ا، كذلك، المكان الافضل لوقـوعها "إذا أراد الانســان أن يرى رؤيا صادقة، تظهر له ما في ضميره ينام على وضوء، على جانبه الايمن ويذكر الله"(١٧).

فيما وضعوا درجات للرؤيا تحكمها طبيعة الرائي نفسه (الانبياء، رؤياهم كلها صدق، ثم الصالحون، والاغلب على رؤياهم الصدق، من عداهم، وهؤلاء يخضعـون للتصنيف الاسـلامي للآخر؛ المسـتورون، والغالب استواء الحال في حقّـهم، وفسقـة، الغالب على رؤاهم الاضغاث، وكفار، يندر في رؤياهم الصدق، هكذا انتقل التقسيم الاسلامي للعالم ليشـمل دائرة الاحـلام ايضا، وحددوا اخلاق الرائي ايضا (التحلي بالصدق، الدقة في سرد الرؤيا، التواضع والادب، لا يجهد نفسه بـالتذكر، فالرؤيا الصادقة لا تنسى، شـرح حـالته الاجتماعية للمفسر، الاجابة على اسئلة المفسر بـصدق، الاخبـار الكلي للتفاصيل، الصبر وامهال المفسر)، فيما نهوا عن طلب التفسير من جاهل أو كافر أو حسود، أو عدو أو لا يستطيع كتمان السر. وكذلك حـددوا وقـت التفسـير الانسب، إذ ذهبوا الى أن افضل وقت لتفسير الرؤيا بعد صلاة الصبح، ورأوا أن لحظة طلوع الشمس، ولحظة غروبها، وعند الزوال من أوقات الكراهة (وقد فسـر سبب الكراهة لهذه الاوقات بانها الاوقـات التي تجتهد فيها الكفرة لتقديس الجن والشياطين وفعل المحـرمات والخبائث).

وقد ذهبوا الى أن هناك مستويين تتحرك بينهما الرؤيا؛ الحق وهو مرتبط بالانبياء والصالحين، والبـاطل وهو مرتبط بالمنجمين والسحرة والكهنة. ووضعوا شروطا عدوها مداخل، ابرزها إن الطفل إذا رأى أي شيء وهو ليس بـأهله فهو لابـويه، والمرأة لزوجها، والخادم لمالكه، وهذا يعني أن هناك أهلية اجتماعيـة للرؤيـا، فضمن المركزية السابقة للسيد دخلت الرؤى والاحلام ايضا.

وقد قسـمت الرؤيا الى نوعين؛ رؤيا تخبـر عن أمور انقضت، وأخرى عما سيأتي.

وذهبوا الى ان الرؤيا في اصلها جنس وصنف وطبـع، فالجنس كالشجر والسبـاع والطير، وهذا كله الاغلب عليه انه رجال، والصنف إن يعلم صنف تلك الشـجرة من الشجر، وذلك السبع من السبـاع وذلك الطائر من الطيور، فان كانت الشـجرة نخلة كان ذلك الرجل من العرب لان منابت اكثر النخل من بلاد العرب...والطبع ان ينظر ما طبع تلك الشجرة، فتقـضي على الشـجرة بطبعها.

وهناك طرائق للتأويل على أن تبـــدأ عملية التأويل بتجريد الحـلم من شوائبـه ويركز فيه على البشـارة أوالنذارة أو التنبؤ وفق ما يأتي: التأويل بالاسم الظاهر، رجل اسمه فاضل يؤول بالفضل، والتأويل بـالمعنى، النرجس التغير للاحسـن، التأويل الضد، رجل يدخل القبر فاتـه يسجن، ومن يسـجن يموت، وكذا الغم الفرح والكبر المذلة والذل العز.

الشخصية المركزية في الرؤيا هي شـخصية الرائي، مثلما ان الفعل المركزي فيها هو (رأيت) أو تنويعاتـه (اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي سـاجدين)، فيما تتحـرك الرؤيا على ثلاثة محـاور، استكشاف الحـاضر، والتنبـؤ بالمستقبـل، ومعرفة الماضي، ولكن تبقـى العلاقـة واحـدة، اذ ثمة هاتف سماوي (بشرائيل، او روحانيل) يبلغ رسالة الى الرائي، وهنا نلمس التناظر بين الرؤيا والنبوة:

الله ← جبرائيل ← النبي

الله ← روحانيل ← الرائي

قراءة في السرد العربي القديم

وطالما ان عصر النبـــوة انتهى فان عصر الرؤى هو البديل الاسلامي عنه، وهذا ما نلمسه من طبـيعة توزع الرؤى في العالم الاسلامي، ففي مغربه حل مالك بـن أنس بديلا نبويا بحضوره عن الرسول، في حين حل ابو حنيفة في الاقسام البعيدة منه (الهند وما جاورها) وشغل جعفر الصادق واحمد بـن حنبـــل العراق وايران والشافعي مصر والشام (١٨)، يروي العطار أن النبي نفث في فم الامام الفقيه الشافعي في المنام (سأله النبـي من أنت؟ فقـال واحـد من امتك، فطلب النبـي منه ان يقترب اليه ثم نفث في فيه وتركه وهو يباركه. بعد ذلك رأى الشافعي وكأن عليا بن ابـي طالب يضع اصبـعه على اصبعه)(١٩)، يروي الهجويري انه قـد اخذته سنة من النوم عند قبر بلال رأى النبي وهو يحمل شيخا واهن الجسد؛ وقد قال له النبـي ان هذا ابـو حـنيفة، ويروى ان ابن حنبل ابى ذات مرة ان يغتسل عاريا في دجلة، فأتاه النبي في المنام وقـال له: ايه يا احـمد، لانك لمنتني انبـعث، ومن الغسـل عاريا استحييت، فانى جعلتك عمادا من اعمدة الاسـلام، ونرى مئات الرؤى بشـان مالك في المغرب اما الائمة من نسـل النبـي فهم محـور لالاف الرؤى في مختلف بقاع العالم الاسلامي.

ولم يقف الامر عند هذا وانما اصبحت الرؤى وسـيلة للبرهنة على صحـة المذاهب الفكرية منها، والدينية، والسياسية، ولنا في رؤيا المأمون لارسـطو وما بنـي عليها من تمجيد للاعتزال، والاشـــعري الذي كان معتزليا، متشـككا بـرؤى المنام ولكن بـعد ان جاءه الرسول ثلاث مرات، وخاطبه في الاخيرة قـائلا: إن ظللت تنظر الى محبيني البك على انه لا يعـدو كونـه رؤيا في المنام، أو كانت رؤيتـي لجبريل بمثابة رؤيا في المنام فحسـب؟ إن ظللت كذلك فلن تراني بعد الان، كذلك فلن تراني بعد الان، قم يا اشعري وافعل ما امرك به، وليكن الله في عونك. بعد هذه الرؤية اتجه الاشعري الى تأسيس ما عرف بعد ذلك بالاشعرية. والرؤى عند الساسة لا تقل عنها عند الاخرين، إذ اتخذوا من الاحلام وسيلة لكسب المشروعية. اما المجال الصوفي فهو قائم على الرؤى والاحلام في أسه وأساسه.

مما سبق نستطيع ان نتحدث عن تصنيف آخر للاحلام، خاصة وعامة، وهذا يعيدنا للحـديث عنها بـــوصفها رسالة، مع تغير طبيعة المتلقي (المرسـل اليه)، وقـد تكون هذه الرسالة جملة بسيطة او سلسـلة من الجمل، ولكن لهذه الرسالة على الصعيدين العملي (الواقـعي) والنظري (المذهبـــي) وجودا فاعلا ومؤثرا في صنع الاحداث، فهي في معظم الاحيان تأتي لتمنح الشـرعية للاحداث والاشياء، او تكون الحافز المحرك لها.

الرؤيا مكونا سرديا

لم يكن ما سبق الا مدخلا قـادنا اليه النظر في سـيرة المؤرخ والمفسر الكبير محـمد بـن جرير الطبـري (ت٣١٠هـ)، إذ وجدنا أن السرد السـيري بـني على وفق العلاقة بين الرؤى (بوصفها محـفزات سـردية) وبين الوقائع. ثلاث رؤى شكلت بالنسبة للقراءة مفتاح الدخول لسيرة الطبري.

تقول الرؤيا الاولى:

"رأى لي (الطبري) أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسـلم) وكان معي مخلاة مملوءة حجارة وانا أرمي بين يديه. فقال له المعبر: إنه إن كبر نصح في دينه وذب عن شريعته، فحـرص أبـي على معونتي على طلب العلم وانا حينئذ صبي صغير"(٢٠).

اما الرؤيا الثانية فتقول:

"جمعت الرحلة بين محمد بن جرير الطبري، ومحمد بن اسحاق بن خزيمة، ومحمد بن نصر بن المروزي، ومحمد بن هارون الروياني بمصر، فارملوا وافتقروا ولم يبق عندهم ما يمونهم، وأضر بهم الحال فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون اليه واتفقوا على أن يستهموا، فمن وقعت عليه القرعة سأل الناس لاصحابه الطعام، فخرجت القرعة على محمد بن اسحاق بن خزيمة فقال لاصحابه: امهلوني حتى أتوضأ واصلي صلاة الخيرة، فاندفع بالصلاة فإذا هم بالشموع وخصي من قبل والي مصر يدق عليهم فاجابوه، وفتحوا له الباب، فقال: ايكم محمد بن نصر؟ فقيل هذا واشاروا اليه، فاخرج صرة فيها خمسون دينارا ودفعها اليه، وقال: ايكم محمد بن جرير؟ فاشاروا اليه، فدفع اليه خمسين دينارا، ثم قال ايكم محمد بن هارون؟ فقيل هذا، فدفع إليه مثلها، ثم قال: وايكم محمد بن اسحاق بن خزيمة؟ فقيل هو ذا يصلي، فلما فرغ من صلاته دفع اليه صرة فيها خمسون دينارا ثم قال: إن الامير كان قائلا فرأى في النوم خيالا أو طيفا يقول له: إن المحامد طلوا كشحهم، فبعث بهذه الصرر وهو يقسم عليكم إذا نفدت أن تبعثوا اليه ليزيدكم"(٢١).

وتأتي الرؤيا الثالثة في السياق التالي:

"اخبرني (الفرغاني)- شيخ من جسر ابي عتيف- قال: رأيت في النوم كأني في مجلس ابي جعفر والناس يقرأون عليه كتاب التفسير، فسمعت هاتفا بين السماء والارض يقول: من أراد أن يسمع القرآن كما أنزل فليسمع هذا الكتاب"(٢٢).

هذه الرؤى الثلاث ربما لانعدام نظائر لها ترد في ترجمات الاخرين من المشاهير، لكن إلى أي حد يمكن عد هذه الرؤى ممثلة لحياة الطبري.

تشير الرؤيا الاولى الى أن والده تكفل باعداده إعدادا علميا، وما من شك أن الرؤيا إذا ما ربطت بزمن تلقيها استطعنا ان نتبين أن الاعداد العلمي فعل تأويلي للرؤيا، يتضمن القول بان زمن الدفاع العسكري عن الاسلام اصبح فعلا من أفعال الماضي، فالاسلام يعاني من الحروب الداخلية، فضلا عن المواجهات الفكرية المتعاظمة داخليا بين المذاهب الاسلامية، وخارجيا مع ابناء الملل والنحل المختلفة.

فقد ولد الطبري في أواخر سنة (٢٢٤ هـ أو أوائل سنة ٢٢٥ هـ)(٢٣) أي في خلافة المعتصم (محمد بن هارون) الذي تولى سنة ٢١٨ هـ، وتوفي (الطبري) سنة (٣١٠ هـ)، أي في خلافة المقتدر بالله (قتل ببغداد سنة ٣٢٠هـ)، وهذا يعني أنه عاصر لحظات أفول الدولة العباسية، (فقد امتدت حياته لتغطي خلافة الواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين، والمعتز، والمهتدي، والمعتضد، والمكتفي) وهذه المرحلة امتازت على المستوى السياسي بصعود الاتراك في عصر المعتصم، إذ جمع ٤٠٠٠ منهم وبعد أن بدأت أذيتهم تتعاظم أضطر لبناء (سُر من رأى) مستقراً لهم وعاصمة له، وفي عهده خرج بابك الخرمي في بلاد الران، وخرج العباس بن المأمون في بغداد، والمازيار في طبرستان، وتواصلت الخروجات حتى وصلت التهديدات الى أبوب سامراء، وأصبح أمر الخلافة لعبة بيد الاتراك يعزلون من شاءوا وينصبون من شاءوا، حتى قال أحد الشعراء واصفا ما آلت إليه الأمور:

لله در عصابة تركية
ردوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد
وكسوا الجميع ثوب الخوف
وطغوا فاصبح ملكنا متقسما
وإمامنا فيه شبيه الضيف

وبين الحركات العلوية، والقرمطية، والخارجية في المشرق والعراق والشام وبين الاخرى في المغرب ضاعت هيبة الخلافة، إنه عصر ما بعد الوصول إلى الذروة، أو الهبوط، وعلى المستوى الفكري تواصل الضغط على الحنابلة وتصاعد إذ قام المعتصم بسجن أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) ثمانية وعشرين شهرا وضربه ثمانية وثلاثين سوطا (٢٤)، واستمر الواثق في السير على الدرب نفسه، فيما شهد عصر المتوكل،

إنقلابا على ما سبق إذ انتصر للحنابلة وطارد المعتزلة والعلويين، وفي ظل هذا الصراع الاقصائي برزت الدراسات الفلسفية على يد الكندي، وابي بكر الرازي، ووصل الدرس التاريخي الى قمة نضجه، أي أن تفكك الدولة وانتشار الفقر وضعف الحالة الاقتصادية، لم يقف حائلا من دون استمرار عجلة التقدم العلمي في مختلف المجالات المعرفية، ولكن هذه الصورة الموجزة تمنحنا القدرة على بيان أن تفسير الرؤيا من قبل الأب (جرير) بالدفاع العلمي عن الاسلام، جاء متسقا مع توقف الفتوحات وانشغال المسلمين بحروبهم الداخلية واقتتالهم، من جهة ومحاولتهم الصمود في مناطق الثغور امام الزحف المتواصل للمتربصين من دول الجوار، فضلا عن بروز الكثير من الخلافات الهدامة داخل المجال الاسلامي نفسه، وتواصل الصراع الفكري (العقائدي) مع اصحاب الديانات الاخرى. في ضل صراع كهذا لم يفكر والد الطبري بغير الدفاع العقائدي عن الاسلام، لهذا عمل على تنشئته (الطبري) على وفق هذا.

قراءة في السرد العربي القديم

في حين تأتي الرؤيا الثانية لتفسر لنا جانبا مهما من حياة الطبري، بل ومن حياة مختلف العلماء المسلمين آنذاك، انها حياة الرحلة في طلب العلم وجملة ما يصاحبها من معيقات، وقد كانت رحلة الطبري وارتحاله علامات فارقة في سيرته وانتاجه العلمي "رحل من بلده في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة، ولم يزل طالبا للعلم مولعا به الى أن مات"(٢٥) فبعد تتلمذه في آمل على شيوخها ارتحل صوب الري وما جاورها، فكتب الحديث عن محمد بن حميد الرازي والمثنى بن ابراهيم الايلي ثم اتجه صوب بغداد وكان في نفسه أن يسمع من ابي عبد الله أحمد بن حنبل فلم يتفق ذلك له لموته قبل دوخله إليها فأقام فيها وكتب عن شيوخها ثم انحدر الى البصرة، فسمع

انحدر الى البصرة، فسمع على معظم شيوخها، وكان كتب في طريقه عن شيوخ الواسطيين، ثم صار الى الكوفة، وبعدها غرب باتجاه مصر (يذكر ابن عساكر انه دخل مصر سنة ثلاث ومائتين وستين)(٢٦)، وقد مر مرور التلمذة والسماع بالشام وثغورها وسواحلها (٢٥٣هـ) ولم يطل مقامه في مصر، إذ سرعان ما عاد بعد أن أخذ عن بقية الشواهد وأئمة المالكية، وناظر بعض علمائها، عاد الى بغداد ثم رجع الى طبرستان مرورا بدينور وغيرها من القصبات، لقد عاد يجمع بين المعلم والمتعلم، ثم رجع الى بغداد، فكانت محنته مع الحنابلة، ثم وفاته (٣١٠هـ). هكذا نرى بوضوح أن حياته كانت عبارة عن حل وارتحال في سبيل العلم، وإذا اضفنا أنه لم يتزوج وعرف بتجميد الاخلاق، فلم يقبل عطايا الخلفاء والامراء ولا طرق ابوابهم، ولم يقبل بمناصب القضاء او غيرها مما كان يعرض عليه، فقد نأى بنفسه عن السلطة (ولنا فيما عرضه عليه الخاقاني بعد استزاره ورفض الطبري لعرضه دليلا على ما ذهبنا اليه)(٢٧) لكنه لم يتخوف في ابداء ما يؤمن به والدفاع عنه، وهذا الامر جلب عليه المصائب، وبالذات مع الحنابلة، حتى قيل انه لما مات دفن سرا خوفا من نبش قبره من قبلهم(٢٨).

ونستطيع أن نتحدث عن سببين لخلافه معهم؛ الأول انه لما دخل بغداد (عائدا من طبرستان) قصده الحنابلة ليسألوه عن أحمد بن حنبل وحديثه في الجلوس على العرش، وذكر العلماء له في الاختلاف... فأنكر ذلك على ابن حنبل، فثارت الحنابلة واصحاب الحديث عليه ورموا داره بالحجارة.. الى ان تدخل صاحب الشرطة نازوك في عشرات الالوف)(٢٩) والامر الاخر انه وجد حديثا رائجا للنواصب في التشكيك في صحة حديث الغدير، فكتب كتابا في تصحيح حديث غدير خم(٣٠).

الرؤيا ومحنة الطبري

الناظر في كل ما كتب عن الطبري يرى أن ثمة اتفاقا بينها على أنه كان يرفض أن يقبل من احد أجرا أو مكافأة و هناك حكايات كثيرة رواها البغدادي وابن عساكر والحموي وغيرهم تؤكد هذا الأمر، وقد كان ميسور الحال بسبب ماورثه عن أبيه من بعض الاملاك، فيما اضطر في بعض أسفاره الى بيع أكمام قميصه ولم يفكر في أن يسأل الناس لنفسه، فما تذكره كتب التراجم أنه كان عزيز النفس حد التطرف، والامر الاخر يتمثل بكون الطبري أشهر من أن لا يجد من يقف معه في مصر "قال ابو جعفر (الطبري): لما دخلت مصر لم يبق احد من اهل العلم إلا لقيني وامتحنني في العلم الذي يتعلق به"(٣١)، فهو لم يدخلها مغمورا، فكيف نفسر هذه الواقعة؟ من المعلوم تاريخيا أن الطبري عاش محنتين، الأولى وقعت بعد عودته من رحلة قام بها الى طبرستان يروي الحموي أن ابا عبد الله الجصاص، وجعفر بن عرفة، والبياضي، تعصبوا عليه وقصده الحنابلة، فسألوه عن أحمد بن حنبل، في الجامع يوم الجمعة، وعن حديث الجلوس على العرش، فقال أبو جعفر: أما أحمد بن حنبل فلا يعد خلافه، (المراد انه محدث ولا يأخذ خلافه مع الفقهاء على محمل الجد لكونه لم يكن فقيها) فقالوا له: فقد ذكره العلماء في الاختلاف، فقال: ما رأيته روى عنه، ولا رأيت له أصحابا يعول عليهم. وأما حديث العرش فمحال، ثم أنشد:

سبحان من ليس له أنيس
ولاله على عرشه جليس

فلما سمع ذلك الحنابلة منه، وأصحاب الحديث، وثبوا ورموه بمحابر هم وقيل: كانت ألوفا، فقام أبو جعفر نفسه، ودخل داره، فرموا داره بالحجارة، حتى صار على بابه كالتل العظيم. وركب (نازوك) صاحب الشرطة في عشرات الالوف من الجند، يمنع عنه العامة، ووقف على بابه يوما الى الليل، وامر برفع الحجارة عنه. هذه الحادثة تعطينا صورة عن حجم سيادة الحنابلة وتغلغل هذا المذهب في أوساط العامة، مثلما تعطينا صورة عن تواصل المحن ضد المفكرين الفقهاء(٣٢).

وكان فعل الامر نفسه عندما دخل طبرستان، ويروى عنه انه قال "دخلت طبرستان وقد شاع سب ابي بكر وعمر... فسألوني أن أملي فضائلهما، ففعلت وكان سلطان البلدة يكره ذلك، فاجتمع اليه من عرف ما أمليته، فوجه الي.. فبادر هذا وارسل الي من اخبرني أني قد طلبت، فخرجت من البلدة، ولم يشعر بي أحد"(٣٣).

ندرك، من كل ما سبق، أنه قضى عمره كله وقفا للعلم والدفاع عن الاسلام، هكذا نستطيع ربط الرؤيا الأولى بالثانية للوصل الى الفضاء الموحد الذي يجمع بين الرؤيتين.

فيما تعطينا الرؤيا الثالثة صورة عن الجزاء الالهي والبشري عن فعل التكريس هذا، فهي جعلت من تفسيره الشهير معادلا للقرآن الكريم نفسه، وهذه قمة الجزاء. إذ تماهى في الرؤيا الثالثة مع الرسول نفسه، وكان ابو بكر الخطيب قال: وما أعلم على أديم الارض أعلم من ابن جرير(٣٤).

من المهم التنبه الى كون الطبري ليس هو الراني في الرؤى الثلاث، انما هو الشخصية المحورية فيها (بطل الرؤى)، وهذا الامر يحمل بذرة تناقض مع الجال التاريخي نفسه، إذ ارتبط الصلاح الذاتي بسعة الرؤية الفردية، هذا الامر لا يمكن فهمه بعيدا عن التصور بأن هناك بعدا قدريا حكم حياة الطبري، تجلى من خلال هذه الرؤى.

الرحلة العلمية ← فسيرة الحركية ← الجزاء

فليس الطبري من اختار هذا إنما هو اختيار إلهي، ورسالة سماوية بلغت للمحيطين به، من اجل خلق المجال المناسب له، هكذا يمكن تصور أن ثمة تقابلا أو

قراءة في السرد العربي القديم

توازيا في الحس العام بين كبار العلماء والرسول نفسه، واعتقد أن المقابلة بين المكونات الرؤيوية تعزز ما ذهبنا اليه:

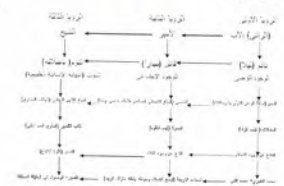

على وفق ما سبق نستطيع القول إن هناك مخططا سرديا يحرك هذه الرؤى مجتمعة، ومن أجل بيان الروابط التي تحكم البنى الداخلية لنصوص هذه الرؤى، وبيان علاقاتها بالموضوع الكلي المدروس (سيرة الطبري) سوف نستعين بالمخططات المستمدة من منهج (غريماس) لبيان طبيعة تشكل البنية الداخلية لهذه الرؤى، ومن المهم بيان أن السيمياء الغريماسية تقوم على ثلاث مسلمات رئيسة هي: النظر الى النص بوصفه كيانا دلاليا مستقلا بنفسه، لا نحتاج في وصفه وبيانه الى معلومات خارجة عنه، ومكوناته (الوحدات الدالة) فيه لا تحدد بماهياتها إنما بعلاقاتها الصدية ببقية الوحدات في صلب نظام النص، والأمر الأخير بيان المستويات المشكلة للنص، فهناك ثلاثة مستويات يجب استجلاؤها (المستوى السردي، المستوى الخطابي، والمستوى المنطقي الدلالي) يمثل المستويان الأول والثاني البنية السطحية للنص (حركية العوامل) والحالات والتحويلات التي تطرأ عليها والمسارات الصورية المقترنة بها، فيما يمثل المستوى الثالث البنية العميقة للنص التي تضمن البناء الدلالي له. التي نعتقد أنها مشكلة على وفق السياق الآتي:

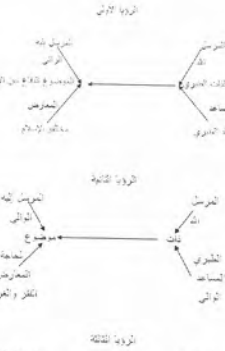

تشير المخططات السابقة الى اننا نستطيع أن نتحدث عن الرؤيا بوصفها حكاية صغيرة تخضع لما تخضع اليه باقي الحكايات تحليليا، ولكن ما يهمنا هنا التأكيد على وحدة التشكل السابق أي أن الرؤيا الاولى شكلت لحظة التعاقد (التحريك) بكل حمولتها الايديولوجية، فثمة البشير، والرسول، والاب الصالح، والموؤل العارف، اننا امام حاضنة اسلامية متكاملة، وقد تم تأويل الدفاع عن الرسول على وفق الايديولوجيا الساندة بالدفاع الفكري، أي ان الانشقاقات الداخلية والتوقف الذي عرفته حركة الفتوحات، بل الانحسار، كانا من اسباب هذا التأويل، ولكن ما لم نتوقف عنده فيما سبق هو علاقة بناء عقد كهذا بو لادة الطبري، فهو ابن مدينة آمل من إقليم طبرستان هذا الاقليم الذي عانى الكثير بسبب الحروب والصراعات الداخلية، وهو إقليم يعد الى حد كبير من الثغور إذ انه يمثل طرفا قصيا من العالم الاسلامي، وكان الاكثر واقعية أن يتم أخذ الرؤيا بظاهرها، بحسب الاثر الجغرافي، وأرى أن تأويلها يؤكد ما حاول الكثير رده وهو فارسية الطبري، فبروز مقاتلا لا يعني سوى استمرار الحروب ضد البقية الباقية من اهله انفسهم، ومعظمهم متهم بالزرادشتية، لهذا كان التأويل محاولة للخلاص من حروب مارثونية شهدتها طبرستان(٣٥) من هنا يفهم حديث الطبري عن اصرار ابيه على تعليمه بانه قبول، كما اشرنا، بالتعاقد، هذا القبول على وفقه تم بناء المسار السردي، فضلا عن توفر جانب رئيس الا وهو الاهلية، فمعظم ما كتب عن الطبري يؤكد أنه كان نابغا، يروى عنه أنه قال "حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين"(٣٦)، أي ان نبوغه المبكر وفر الشرط الضروري لبناء المسار اللاحق، ومن المهم بيان جملة أمور متصلة بما سبق اهمها ان النبوغ من دون الارادة الذاتية، فضلا عن القدرة والمعرفة عند الطبري اللذان شكلا المدخل "يحكى أن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة"(٣٧) أو "ان قوما من تلاميذ ابن جرير حصلوا أيام حياته منذ بلغ الحلم الى أن توفي وهو ابن ست وثمانين، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة"(٣٨) في حين شكلت الرؤيا الثانية الفعل الاختباري الرئيس، اذا ما عدنا حب المعرفة تجاوزا للفعل اختباري أول هو الاختبار الترشيحي، فهو هنا (في الرؤيا الثانية) يجتمع مع ثلاثة من الرجال الصالحين، المحامد الثلاثة (من المهم التأكيد على الاسم نفسه في المسار السردي)، وكأن التربيع المحمدي في الرؤيا مرتبط بدفاعه عن التربيع الخليفي (خلفاء الرسول)، فالجوع هنا مرتبط بأمرين، أولهما إنه يوضح جانبا مهما من بنية المعرفة الاسلامية في جانبها التداولي القائم على الرحلة، وثانيهما طبيعة سلوك المحامد (الذين طووا كشحهم)، فهم من جهة غربـــاء في عالمهم، ومن جهة أخرى واجهوا المعضلة بالايمان والصلاة، اي كلما إزدادت الضغوط عليهم إزداد تمسكهم بمنظومة القيم. هنا قد يبدو أن ثمة تعارضا بين الاختبار الرئيس على المستوى الرؤيوي وبينه على المستوى النوافعي، إذ انه على المستوى الواقعي كانت المحنة مع الحنابلة هي الاختبار الرئيس، وانه فشل في تجاوزه إذ اضطر الى الاعتذار اليهم وقام بتأليف كتاب في الاعتذار، في حين ما نراه أن التنازل المذكور غير مؤكد وإذا ما أخذنا بما رواه الحموي من أنه دفن سرا ولم يصل عليه أحد خوفا من الحنابلة، فنكون أمام شك أقرب للتوكيد من أنه حاول تجنب غضب العامة لكنه كان بينا في ثباته على موقفه بالنسبة للخاصة لهذا نستطيع أن نعد (داود) البطل المعارض، وقد مات الطبري ولم يغفر له. على وفق هذا نستطيع أن نتحدث عن صورة (معادل) جسدتها الرؤيا. في حين مثلت الرؤيا الثالثة الاختبار التمجيدي إذ عبرت عن الرضى الإلهي الكبير عنه، بعد التفسير الذي قدمه للقرآن مساويا فيما للقرآن "حمل هذا الكتاب مشرقا ومغربا وقرأه كل من كان في وقته من العلماء، وكل فضله، ومن المهم معرفة انه خصص جزءا من تفسيره للرد على اهل البدع. وهذا يمثل

المكافأة الاكبر إسلاميا.

اما فيما يتعلق بالمعارض فانه حصره لاتي "يذهب في الامامة الى امامة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وما عليه اصحاب الحديث في التفضيل، وكان يكفر من خالفه في كل مذهب إذ كانت أدلة العقول تدفع كالقول في القدر، وقول من كفر اصحـاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم من الروافض والخوارج ولا يقبل اخبـارهم ولا شـهادتهم... وكان لا يورث من الكفرة منهم"(٣٩).

تستطيع بحسب المخطط السابق أن تبني

المربع السيميائي

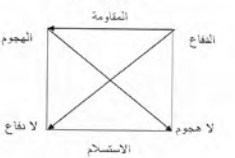

هذه المخططات السابقة تقـدم أمرين، الأول: انها تمثل تصور عن حركة الفواعل (القائمون بـالفعل) والأمر الثاني: انها تصور البنية العميقة التي تتشكل بمقتضاها سيرة الطبري نفسه.

الهوامش

١- سنن ابن ماجه، ج٢، ص ٨٥.

٢- المصدر نفسه، ج٢، ص ١٢٤٥. وفسر البـعض هذا الحديث بالقول إن الله اوحى الى نبيه في المنام ثة اشهر، ثم اوحى اليه بعد ذلك في اليقظة بقية مدة عمره، ونسبة الوحي في المنام الى الوحي في اليقظة جزء من ستة واربعين جزءا.

٣- مفردات القرآن الكريم، الراغب الاصبهاني، ج٢، ص٩٨.

٤- المصدر نفسه، ص ٤٠.

٥- المصدر نفسه، ص ن.

٦- المصدر نفسه، ص ن.

٧- فتح الباري (شرح صحيح البخاري)، ابـن حـجر العسقلاني، كتاب التعبير، ج٦، ص ٤٥.

٨- المصدر نفسه، ص ن.

٩- الانكار النووية، يحيى بن شريف النووي، ص٩٤.

١٠- تفسير الاحلام، ابن سيرين، ص١٥.

١١- كيف تفسـر أحـلامك بـون معلم، موقـع فائق الالكتروني، محدث بتاريخ ٢٠٠٤/٣/١٨.

١٢- صحيح مسلم، ج٧، ص٢٦١.

١٣- المصدر نفسه، ص٥٠ـ ٥١.

١٤- المصدر نفسـه، ص٥٠ـ ٥١. وعن جابـر ان الرسول قال: إذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثا، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه.

١٥- ورد الحلم في النص القـرآني بـمعنى العقـل/ الطور ٣٢ "أم تأمرهم احلامهم بهذا أم هم قوم طاغون" ينظر: الرؤيا في النص السردي العربي (حافز سردي أم وحدة دلالية)، نصر حـامد ابـو زيد، فصول (مجلة النقـد الادبـي)، مجلد١٣، عدد ٣، خريف ١٩٩٤،

النقد الادبي)، مجلد١٣، عدد ٣، خريف١٩٩٤، ص١٠٧.

١٦- تفسير الرؤيا (باب الكوابيس)، ابن سيرين، ص١٥.

١٧- ورد هذا الحديث عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، تفسير الاحلام للامام الصادق، ص٧.

١٨- ينظر: أنا مارى شميل، احلام الخليفة (الاحلام وتعبيرها في الثقافة الاسلامية)، ص٣٧٦ــ ٣٧٧.

١٩- الكرماني، تذكرة الاولياء، ج١، ص١٢٠. ومن المهم ان نقف امام رؤيا ام الشافعي التي رات كأن نجما يخرج من كبدها وينثر ضياءه، وقد سقط الجزء الاكبر منه على مصر.

٢٠- المصدر نفسه، ج١٨، ص٤٩.

٢١- معجم الادباء، ج١٨، ص٤٦ــ٤٧.

٢٢- المصدر نفسه، ج١٨، ص٤٩.

٢٣- يذكر البغدادي في تأريخه (٢/١٦٦) والحموي في ترجمته هذه المحاورة بينه وبين ابن كامل: فقلت له كيف وقع لك الشك في ذلك؟ فقال: لأن أهل بلدنا يؤرخون بالاحداث دون السنين، فأرخ مولدي بحدث كان في البلد، فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث، فاختلف المخبرون لي.. فقال بعضهم: كان ذلك في آخر سنة أربع. وقال آخرون: بل كان في أول سنة ٢٢٥. والبادية التي ولد فيها هي أمل عاصمة أقليم طبرستان وتقع في الركن الجنوبي الغربي لاقليم مازندران، على الضفة الغربية لنهر هارهاز، على بعد اثني عشر ميلا جنوب بحر قزوين، في محلها اليوم مدينة جهارجوى.

٢٤- ينظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ابو الحسن المسعودي، ج٤، ص٥٩.

٢٥- لسان الميزان، ابن حجر، ج٥، ص١٠٢.

٢٦- تاريخ دمشق، ج٥٢، ص١٩١.

٢٧- ينظر: المصدر نفسه، ص١٩٩.

٢٨- يذكر الخطيب في تاريخه انه لما مات شيعه خلق كثير وصلى على قبره عدة شهور ليلا ونهارا. ينظر: تاريخ بغداد، ج٢، ص١٦٤. في حين يذكر ياقوت الحموي ما يزيد حديثنا السابق، اما ابن عساكر فيعيد ذكر هذه الحادثة التي اوردها البغدادي من قبل (...قال: الحسين بن يحيى الدارمي أول ما سألني ابو بكر محمد بن اسحاق قال لي كتبت عن محمد بن جرير الطبري قلت: لا، قال: لم، قلت: لأنه كان لايظهر وكانت الحنابلة تمنع عن الدخول عليه)، تاريخ دمشق، ج٥٢، ص١٩٥. وينظر: تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ج٢، ص١٦٢.

٢٩- معجم الادباء، ج١٨، ص٥٧ ــ ٥٨. والرقم مبالغ فيه لكنه لا ينفي صحة الواقعة.

٣٠- ينظر: لسان الميزان، ابن حجر، ج٥، ص١٠٠، ويذكر الذهبي في التذكرة عن الفرغاني انه لما بلغه إن ابن ابي داود تكلم في حديث غدير خم، عمل كتاب الفضائل، وتكلم على تصحيح الحديث. تذكرة الحفاظ، ج٢، ص٢٥٢.

٣١- المصدر نفسه، ج١٨، ص٥٦.

٣٢- المصدر نفسه، ج١٨، ص٤٩.

٣٣- طبقات الشافعية، ج٢، ص١٣٧.

٣٤- تاريخ بغداد، ص٥٦.

٣٥- ينظر بشأن هذه الحروب: تاريخ الطبري، ج٣، ج٤.

٣٦- معجم الادباء، ج١٨، ص٤٩.

٣٧- معجم الادباء، ج١٨، ص٤٢.

٣٨- المصدر نفسه، ج١٨، ص٤٤.

٣٩- المصدر نفسه، ج١٨، ص٨٣.

تُعلن الرسائل، بوصفها نصوصاً، ولاءها شبه المطلق لقوانين الثقافة التي تندرج ضمنها. وتحترم بدرجة كبيرة وجهة نظر المنتمين إليها(١)، إنها تستجيب في فاعلية إنتاجها لأنظمة التعامل وتحافظ على أخلاقياتها لما توجبه طبيعتها من انتماء لفضاء عام،

جمالية المواجهة في شعريّة الرّسالة

د. لؤي حمزة عبّاس

فالرسالة مثلما تقدّم صورة بيّنة عن مرسلها تحافظ في مهمتها الاتصالية على صورة متلقّيها، حيث تختلف وتتغيّر شفراتها السوسيو- ثقافية واللسانية باختلاف منزلة المتراسلين ومكانتهم، في إشارة صريحة منها لارتباطها بأنظمة الثقافة وآلياتها، إنها تتشكل ضمن قوانين عامة مستجيبة لمستويين من التواضعات: مستوى جزئي وآخر كلي، أما الجزئي فهو ما تجترحه رسالة بعينها بالنظر لمناسبة موضوعها ومنزلة المتراسلين، بما يتطلّب حضوراً خاصاً هو من أولى سمات الرسالة ومتطلبات حركتها ضمن المستوى الثاني الذي تحافظ فيه على سنن الرسائل وأساليب كتابتها ضمن فضاء عام هو فضاء الثقافة بما يمكن معاينة أثره في تغيّر أشكال الرسائل وأنظمة أدائها مع تغيّر الثقافة المنتجة.

تقدّم الرسائل، وهي تحافظ على القوانين وتحترم وجهات النظر، مثالاً مناسباً في امتثال الخاص إلى العام

واستجابة الذاتي للموضوعي، وإن كانت من أكثر فنون الأدب تعبيراً عن الخاص، وأوضحها في كشف الذاتي وإضاءة كوامنه وهي بحسب تعبير ابن حزم وجه من وجوه اللذة التي تتعدد بتعدد وجوه المراسلة فإن "الكتاب للسان في بعض الأحايين، إما لحصر في الأنسان، وإما لحياء، وإما لهيبة"(٢) بما يمنح الرسالة- في العشق- دوراً بالغ الأهمية إلى الدرجة التي يُستغنى بها أحياناً عن الحوار المباشر بين متحابين لما فيها من سرور يعدل اللقاء. إن الذات تواجه في الرسالة حضورها عبر مواجهة الآخر مثلما تؤمّن للآخر حضوراً لا ينقطع إلا بانقطاع الكتاب ولا يغيب إلا بغياب أثره. وتعيننا حركة المدلول اللغوي للرسالة من الاستعمال الحسي إلى الاستعمال المعنوي على تحديد معنى المواجهة والتوجيه لفاعلية الإرسال في الوقت الذي تكون فيه الرسالة والرسالة بسما لها(٣)، وهي تهيئ من إمكانية اللغة وقابليتها البلاغيّة ما يضيء رغبة صاحبيها في استجابته للأنظمة والأعراف التي يعتمدها الترسل في زمان ومكان معينين، فإذا كان المرءُ مغيباً تحت لسانه وطي رسالته فإنه يُعلن ويُكتشف حال كلامه ونشر صحيفته، لتمرّ الرسالة بمراحل يتغيّر فيها المرسل إليه بتغيّر آلية الارسال وزمنيته، إنها توجّه في أول أدوارها إلى الذات (المرسلة) بما تقوم به من مواجهة بعض ما يخالجها من مطامح أو رغبات أو مخاوف... ستمثل الرسالة غير المفضوضة، والرسالة الموضوعة في قنينة، والرسالة المنقوشة على حجر صورة مثلى للرسائل الموجهة إلى الذات، إن الأخر المُنتظر الذي سيفضّ في زمن مجهول غلافاً، أو يفتح غطاءً، أو يرفع جِجراً، هو أمل الذات، رجاؤها غير المنقطع وقد تمثّل بسمرسل إليه، إنه يغدو مُتضمّناً في رسالة الذات وهي تؤدي، في هذه المرحلة، دوري المرسل والمستقبل في أن فتتشئ رسالتها على أساس ما ترضى به وتركن إليه، وهو ما يماثل عبر مفهوم التواصل بعض نتائج نظرية (التحفيز) في علم النفس المعرفي، فإذا أرضى مرسلٌ تحفيزه الخاص من خلال شروعه في انجاز (رسالته) فهو في الوقت نفسه يُضمّن (رسالته) كل ما يعمل على إرضاء شخص آخر توجّه إليه(٤)..

تواصل الرسالة رحلتها حتى تصل إلى المرسل إليه فتتسع دائرتها وتكتمل أركانها الموضوعية محققة مرحلتها الثانية، حتى إذا تعدّت مجالها الثاني منشورة أمكن لعدد لا نهائي من القرّاء أن يقوم بمهمة المرسل إليه على اختلاف نواياهم وأمزجتهم وازمنتهم ووسائل اكتشافهم، إن البُعد والغياب في أصل الاشتياق في الترسل(٥) يؤكدان حضور الفسحة الزمنية بين مراحل حياة الرسالة بناء على التباعد المكاني بحسب تغيّر المرسل إليهم وتبدّل أحوالهم، إنها تحقق، عندئذ، حضورها النصي لتدخل ضمن الرصيد الثقافي، فإن تحوّل الرسالة إلى نص سردي، ثقافي، مرتبط إلى حد بعيد بانكشاف مخبوئها وشيوع ما سُتر فيها، الأمر الذي يغيّر من فاعليتها السردية ويؤثر في انتظام أركانها فتتغيّر، تبعاً لحركتها في فضاء الثقافة، أدوارها وتتعدد مهماتها وهي تشكّل من منشئها مركزاً لحركتها الجديدة، إنها تمولّ أهمية حضورها من أهمية حضور مرسلها إلى الدرجة التي يخفت معها دور المرسل إليه أو يغيب، وبغيابه تختفي المناسبة التاريخية للرسالة مع استمرار مناسبتها الموضوعية واتساع مجال دلالتها، فتشتق، عندئذ، مناسبة تنسجم وموقعها في الثقافة بناء على انتقالها من وثائقية التاريخ التي لا تكون فيها غير جملة في سياق تحافظ فيه مؤثرات وعوامل خارجية على دورها في إنتاج الرسالة وتأمين مجالات حركتها، إلى المعرفة بما تنطوي عليه من خصوصية وابتكار يؤمّنان للرسالة حضوراً في فضاء تتخلص فيه، إلى حد، من المؤثرات والعوامل الخارجية لتتصت إلى صوتها وتنظر إلى سبل صياغتها التي تعد مسوغاً مهماً من مسوغات حركتها ضمن سياق الثقافة التي كثيراً ما غيّرت مجرى النصوص وعدّلت من مناسباتها، فلا تتطلب الرسالة، عندئذ، أكثر من مناسبة عامة هدفها بيان موضوعها أكثر مما تهدف لتوثيقها وتسمية إليه

أركانها، خصوصاً المرسل إليه الذي ينسحب أمام قوة حضور المرسل وجلاء بيانه، فتطالع في "رسائل أبي العلاء المعري" جملة مثل "ومن كلامه" تتكرر ثماني مرّات بين اثنتي عشرة رسالة بوصفها عتبة للدخول إلى الرسائل وهي تعد (كلاما) من بين كلام مرسلها وليس ثمة مرسل إليه معينا في توثيق الرسائل وكشف مستقرها، وقد يصرّح به في تضاعيف هذه الرسائل أو لا يصرّح فيكتفي بالإشارة إليه بالضمير مرّة "كتبه عندي تترى" دالة على أن مودته ليست مما يُفترى"(٦)، أو بالدعاء مرّة أخرى "وقد علم عالم الخفيات أن مودتي له أدام الله عزه ورفع في الخير درجته، إذا انفردت كفت بنفسها"(٧)، ليعمل هذا النوع من الرسائل على تأمين موقعه داخل الثقافة بوصف رسائله نصوصاً ثقافية تتلقى وتستعاد لما يميّزها من قدرة على المحاورة والاتصال لا مع الذات، وهو الشكل الأول من أشكال الحوار التي تفترضها الرسالة، ولا مع الآخر الذي يعد المستقر التاريخي لها، بل مع الثقافة نفسها بتجدد قرائها وتغيّر نظم قراءتها.

قراءة في السرد العربي القديم

التحقق النصّي للرسالة

نكون مع التحقق النصي للرسالة إزاء فاعلية ثقافية لا تكفي عملية نشر الرسالة وتغيير قنوات حياتها لإنجاز حضورها الثقافي، إنها تتوجه، قبل ذلك، للانشغال بإمكاناتها وملاحظة سماتها، متجاوزة مضمونها الخاص وشكلها الفردي، إذ إن "على الأدب أيضاً أن يشير إلى شيء مختلف عن مضمونه وشكله الفردي، ويكون هو جزمه الخاص أي ذلك الذي يفرض نفسه بصفته أدباً"(٨)، وهو ما سيوجّه الرسالة لملاحظة حضورها وتجديد كثافتها اللغوية التي لا تبدو معها منشغلة التي لا تبدو معها منشغلة على نحو كامل بانجاز إبلاغها وإيصال محمولها، الأمر الذي يمكن معاينته من خلال انضواء الرسائل الإسلامية تحت فاعلية نثرية متغيرة، تستجيب في أول أدوارها لمألوف الفصاحة العربيّة، كما في رسائل الرسول (ص)، وهي تحتوي الكثير "من عناصر الجمال الفني والمعنوي، كاستخدام المجاز والتشبيه والازدواج والجمل القصيرة المتوازنة، ولكنها تخلو من الصنعة البديعية والتكلف"(٩)، إنها تتشغل، لأسباب عديدة بيّنة، بتحقيق فعل إبلاغها عبر مستوى من (النثر البليغ) لا (النثر الفني) الذي سيُلاحظ على الرسائل مع استقرار الدولة الإسلامية وثبات أركانها، حيث ستحقق الرسائل حضورها النوعي وتنظم ممارستها الجمالية إلى الدرجة التي تقتضي الحاجة معها "إنشاء ديوان خاص للرسائل يقوم عليه كتّاب بأعيانهم، ثم تنتشر الظاهرة فيصبح للولاة أنفسهم دواوين للرسائل، يقوم عليها كتاب مختصون"(١٠).

إن حركة الرسالة الإسلامية بين نوعين من النثر: بليغ، يتجاوز الزخارف، ويختار أقصر الطرق اللفظية وأكثرها وضوحاً لأداء موضوعه، وفني، يحرص على فصاحة القول وبلاغته بما يتجاوز أحياناً نطاق موضوعاته، يكشف وعي الرسالة لنفسها، ومعاينة أدبيّتها عبر معاينة جوانبها الجماليّة، كأن أصحابها قد وضعوا نصب عنايتهم توجيه ما يُنجزون من رسائل إلى المرحلة الثالثة من حياة الرسالة، حيث تغدو الرسالة، بحق، عبر تجليها الثقافي، النموذجاً أدبياً يكشف على نحو صريح قدرة العصر الصياغية، ويشير مع استقلال الكتّاب في إنشاء الرسائل خلال العصر الأموي، واعتمادهم على أنفسهم في صياغتها، إلى تبلور الرسائل فناً أدبياً راقياً، تغيرت معه أساليب النظر للكتابة والكتّاب، مثلما تغيرت منزلتهم وهم يفترقون من الخلفاء والأمراء والقادة

وأولى الأمر ويتعزز نتيجة لذلك الجانب المعنوي في العملية الكتابية التي تمنح درجة من التقدير تقرّبها بجملة عبد الحميد الكاتب من النبوّة في إمكانية تلقيّها الوحي فـ"إن كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب"(١١).

ومثلما أولى فضاء الثقافة عناية للرسالة وأساليب أدائها وخيّر من نظرته لكتّابها ومكانتهم وجّه عناية لحاملها وهو يمثل قناة الاتصال بين مترسلين، إن الرسالة تتضح ويشتد تأثيرها بما يحققه سبيل الاتصال من إبانة لفظية، إن أذن للرسول بالكلام أو استفسر منه ليُسهب باضاءة وجهة الرسالة وإنجاز أهدافها أو إبانة حالتهّ إذا صمت فدل حاله على بعض محموله؛ إن حامل الرسالة يتساوى في دلالته على عقل صاحبه، بجملة يحيى بن خالد، مع الكتاب وإلهذية "ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدل على مقدار عقل كاتبه، والرسول على مقدار عقل مرسله، والهدية على مقدار مهديها"(١٢)، إذ يرتفع الرسول في الدلالة إلى ما تدل عليه الرسالة نفسها من جهة الاختيار والتكليف، فدقة اختيار اللفظ وقدرته على الإبانة عن غرض الرسالة تعادلان من حيث علاقتهما بعقل صاحب الرسالة دقة اختياره رسوله وقدرة هذا الرسول على إنجاز ما كُلف به على أحسن وجه، مثلما يتوحد الرسول في تطوّر المصطلح وتعدد مرادفاته مع مصطلح الرسالة نفسه، فقد أكد القرطبي هذا التقارب في إشارته إلى ما ذكره ابن الأنباري من أن الرسول والرسيل والرسالة سواء(١٣) وعلى ذلك أنشد قول كثيّر:

لقد كثُر الواشون ما بُحت عندهُمْ
بليلى ولا أرسلتهمْ برسيلِ(١٤)

ومما ورد في مجيء الرسول بمعنى الرسالة بيت الأسر الجعفي

ألا منْ مبلغٌ عني خُفافاً
رسولا، بيت أهلكَ منتهاها(١٥)

وقد يتسع دور الرسول وتتفتح مهمته إلى الدرجة التي يسمى فيها (سفيرا) فتضاف إلى مهمة نقله الرسالة أو تماهيه معها مهمة "الإصلاح بين قومين"(١٦)، بما يتطلّب ميّزات خاصة ينبغي أن يكون فيها "ذا هيبة، حاذقا، يكتفي بالاشارة، ويقرطس عن الغائب، ويُحسن من ذات نفسه، ويضع من عقله ما أغفله باعثه"(١٧)، وربما كانت الجملة الأخيرة من كلام ابن حزم تعليلا لتسمية الرسول بالرسالة فهو يكمل نقص المكتوب ويبين غوامضه، فالرسالة بيان صامت، على ما فيها من فصاحة وبلاغة، والرسول رسالة ناطقة، بما يُتطلب معه أن يكون أكثر من دليل على عقل المرء فإن "بعيد حياته وموته، وستره وفضيحته بعد الله تعالى"(١٨).

مثلما يشير ابن حزم إلى صفات من يستعمل المجون في إرسالهم إلى من يحبونه، فهو إما أن يكون "خاملا لا يؤبه له، ولا يُهتدى للتحفظ منه.. وإما جليلا لا تلحقه الظنن..أو ذوات صناعة يقرّب بها من الأشخاص.. أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يُشق بها عليه"(١٩)، بما يكشف عن مطابقة الرسول لحال الرسالة وانسجامه مع ظرف إرسالها ليبدو جزءاً من مجاليها الموضوعي والاجتماعي، مثلما يعد علامة منتظمة ضمن السياق الثقافي لعلاماتها، وإذا كانت الصفات السابقة تقترح لرسول بين متحابين فإن اختلاف الرسائل وتباين موضوعاتها يدعو للتفكير بالصفات المطلوبة لكل رسول وهي إنما تشتق من مجال الرسالة نفسه وتعبّر عن موضوعها.

إن اشتغال الرسول وسطاً بين طرفين، وتوحد اصطلاحاً مع الرسالة نفسها، وانشغاله بتأدية وظيفة شارحة (لفظية أو حالية) يقرّب المسافة بين العنصرين (اللفظ والرسول) في المنظومة الاتصالية للرسالة ويوجهها وجهة واحدة، موسعاً من عمومية الرسالة ومنظماً سبل اتصالها بما تتطلبه موضوعاتها وبما تقتضيه أوجه دلالتها.

الرسالة بين واقعتين يمثل التحول النصي للرسائل وهي تخرج من حدود الفرد إلى أفق الجماعة مسهمة، من جانبها، في تجسيد الرصيد الثقافي، مناسبة لتأمل إرتباط الرسالة بواقعتها السردية التي تمتد هي الأخرى وتتسع

مع حركة الرسالة وتحـولها، فالرسـالة لا تنشـأ إلا بارتباطها بواقـعة خاصة، بمقـدار ما تمثل (الواقـعة السردية) فعلا يحـافظ في معلوميته ودرجة حـضوره على ما يَنجز من خطابات "سواء كانت أدبـية أو غير أدبية"(٢٠).

تحقق الرسالة عبر ارتباطها بواقعة معينة صورة أولى لحضورها ونمط تداولها متحركة في فلك ملكية خاصة؛ إنها تتحرك وتحرك واقـعتها معها، بـما يُشـير إلى محدودية الواقعة التي تمثل هنا فعل مشاركة واتصال، بيد أنها تستجيب، مع ارتفاعها ضمن الرصيد الثقافي، لواقـعة كبـرى تكون مسـؤولة بطبـيعتها عن تنوع الخطابات وتغايرها، مثلما تكون مسـؤولة عن امتثال تلك الخطابات لأنظمة الثقافة وأخلاقـياتها، فإذا كانت الواقعة الصغرى تنتج نصوصها تحت غطاء من الخصوصية والتكتم، فـإن واقعة السرد الكبـرى لا تمنح نصا ما حضورا في أفق الثقافة إلا بما يتحقـق له من تداول منتقـلا من إطار الملكية الخاصة إلى ملك عام يشـيع ويتسـع بوضوح واقعته الصغرى التي تخضع بدورها لمنطق الشيوع والتداول، بـما يهيئ تعاملاً جديداً مع الأركان السـردية للرسـالة، يتناسب وحضورها في فضاء الثقافة ويستجيب لفاعلية أنساقـها، ولا عجب، في مثل هذا التصور، أن تكون أشهر الرسائل في تاريخ الأدب العربي رسالة بيضاء، غير مسطورة، على الرغم من دورانها قرونا في فضاء الثقافة العربية واستعادتها في أهم مؤلفاتها ابتداء من كتاب المفضل الضبي (أمثال العرب) الذي يورد حكاية المتلمس مع طرفة بن العبد من اللحظة التي كان الأخير فيها غلاما، متظما وحداتها السـردية التي لا يكون فيها قول طرفة الغلام (إستوق الجمل)

محـض اعتراض على أحد أبيات المتلمس، أشعر أهل زمانه بجملة المفضل، بقدر ما يكون تهيئة لإرصاد بنهاية حياة طرفة، بعد أن ينظر المتلمس غاضبـا إلى لسـانه ويقـول "ويل لهذا من هذا يعني نفسـه من لسانه"(٢١)، وهو بذلك يهيئ مجرى السـرد لتواصل الخبر ودخول الرسالة التي سيربط صمتها مصيريهما معاً وسيفرق بينهما كلامها.

إن الرسالة- صحـيفة المتلمس- هي المركز المؤجل للخبر، مثلما هي بـؤرته ونواة أحـداثه، ولأهميتها لم يستبعد طه حسين "أن يكون شخص المتلمس نفسه قـد اخترع اختراعا، تفـسيرا لهذا المثل الذي كان يُضرب بصحيفة المتلمس"(٢٢)، إن الثقـافة، بـجملة أخرى، تعمل على ردم فراغات أخبارها في سـبيل موضعتها وضمان فاعليتها ضمن حركة أنساقها، الأمر الذي يغدو معه بياض الرسالة تحييراً، وفراغها امتلاءً، وصمتها كلاما، فإن سـكوت مختلف المصادر عن ملفوظها لا يشير إلى عدم قدرة الملفوظ على التأثير، كما أن غياب حاملها لا يعني غياب محمولها، إذ إن الواقعة السـردية الصغرى، واقعة الرسـالة ومفاد خبـرها، تعمل على كشف الحامل عبر كشف المحـمول، بـما تقـيمه من وشائج مع الواقـعة السـردية الكبـرى، نظم الثقـافة وأنساقها، وهي تفكك الخبر، على نحو ما، في اللحـظة التي تتناقله فيها، تعيد كل عنصر من عناصره إلى حقله ومرجعه فتبدو حركته عندئذ مسوغة من خلال إصرار الثقافة على تأمين ما يمكن من الصلات بين واقـعتيه، مثلما يكون مسؤولا بدوره، مع عدد كبير من الأخبار، عن تأمين فاعلية النسـق وهو يوجـد العناصر وينظم المجريات ويتحكم بالمصائر والأعمار. فالشاعران وقد هجوا عمرو بن المنذر بن إمرئ القيس حـتى أحنقـاه عليهما، ثم وفدا عليه، فتلقاهما لقاءً حـسنا وكتب لهما كتابين (=رسالتين) إلى عامله بالبحـرين وأوهمهما أنه كتب لهما بـــالجوائز والصلات، فخرجا يقصدان هذا العامل، إنما يشـكلان

قراءة في السرد العربي القديم

صورة أولى من صور العلاقة بين الشاعر والملك، في مدحه وهجائه، مثلما يمثل الخبر صورة مبكرة لغضب الملوك وعقابهم الفوري أو المؤجّل. هذا العقاب الذي يُقرأ ولو عبر رسائل مسكوت عما سطّر فيها، شك المتلمس في كتابه فأقرأه غلاماً من أهل الحيرة، فإذا فيه أمر بقتل المتلمس فألقى الكتاب في النهر وألح على طرفة أن يفعل فعله فأبى، وافترق الشاعران: مضى أحدهما إلى الشام فنجا، ومضى الآخر إلى البحرين فلقي حتفه.

تضم الواقعة السردية الكبرى الرسالة وتحتوي واقعتها، لكن الواقعة الصغرى، وهي تنتج رسالتها، لا تضم، بالمقابل، الواقعة الكبرى وإن حافظت على سننها وأنظمة أدائها في ما تنتج من نصوص، إن رسالة لم تحقّق حضورها النصي تظل، مهما كانت أهميتها، نصاً مغفلاً خارج سياقات الثقافة ونظم تداولها، فالرسالة تتحرّك، بجملة أخرى، على طريق ذي اتجاه واحد هو اتجاه الذهاب الدائم مما هو شخصي وسري إلى ما هو عام ومباح، لتغدو، عندئذ، نصاً غير مرتجع بين واقعتين.

في سردية الرسالة

سنعمل ما تقدم على توجيه النظر إلى مقومات البنية السردية وهي تتجلى عبر ما تجترحه الرسائل من أنظمة وما تقوم عليه من أسس بوصفها "نصوصا متفرعة"(٢٣) تنشأ الرسائل الجوابية فيها متفرعة من الرسائل الأولى بطريقة لا تشبه التفسير أو الوصف عبر علاقة ضرورية إذ لا يوجد (ب) بدون وجود (أ) سابق عليه حتى وإن كان (ب) لا يتحدث عن (أ) نهائيا، فنكون مع الرسائل المتبادلة أمام حركة تفرّع تنسيطة تتعدى التعاقد الجزئي بين متراسلين لتفضي إلى تغيّر أدوار مكوّنات هذه البنية (الراوي والمروي والمروي له) في فاعلية التراسل، فإذا كانت هذه البنية تقوم في مجمل الأنواع السردية على تعاقد ضمني بين راو ومروي له، فإن الرسائل تقترح بطبيعتها نوعاً من التعاقد الصريح بين طرفين معلومين، تتحكم طبيعتا كل من طرفي المراسلة بسمات الرسالة مثلما تتحكم بالخصائص النوعيّة للمراسلة وأخلاقياتها وهي تبنى بالأساس على مهمة تبادل يؤدي كل من طرفي البنية السرديّة فيها دور الآخر، والمراسلة لا تنجز مهمتها ولا تتم فاعليتها من دون أن تكتمل دائرة اتصالها فيغدو المستقبل باثاً والمروي له راوياً، والرسالة فاتحة رسائل ينشعب خلالها المروي ويمتد بما تقترحه كل رسالة جديدة من محاور، إن الرسالة الجوابيّة تملك بما تحدده قوانين الترسل أن تغدو رسالة أولى بما تثيره من قضايا تتطلّب بدورها رسائل جوابيّة، وبذلك تملك الفروع أن تتحول بدورها إلى أصول منتجة بما تثير من موضوعات لم تثر من قبل، وبما تتضمن من أسئلة ومواجهات وحجج تظل مفتوحة بانتظار أجوبتها، أي أن مهمة تبادل المواقع لا تقف عند طرفي البنية السرديّة بل تسحب المروي نفسه لمنطقة التبادل وتغيّر الأدوار، وإذا كانت الرسالة في مفهومها العام تمثل مواجهة وحوارا بين طرفين بما تتطلبه سبل كل منهما من وضوح وبيان، فإن تأمل الخصائص النصيّة للرسائل وملاحظة سماتها السرديّة يشير إلى ما تنطوي عليه فاعلية المواجهة من تغيّر يشمل أركان البنية السردية جميعها.

تتشكل الخاصية السرديّة للرسالة بناءً على دعامتين:

الأولى: أن تنتظم ضمن واقعة محددة.

الثانية: أن تعيّن طريقة تنقل بها واقعتها.

إنها تقترح، مع توجيه دعائم السرد الأساسية بما يستجيب لخصائص الرسالة(٢٤)، موقعاً يمثل في أكثر مظاهره وضوحا تقاطع السرد مع التاريخ، وهو ينمو ويمتد بما تقدمه الواقعة من إمكانية على إدامة المواجهة وتحفيز الحوار بين طرفي المراسلة، فالرسالة لا تكون إلا جملة في حوار يستدعي هو الآخر نمط السرد ويحافظ عليه عبر ذاتية المرسل التي تكشف على نحو صريح ما تعتقده وتؤمن به، منقلة، بما تجترحه من

طرائق وأشكال من (الإبلاغ) إلى (الإقناع)، وإذا كان المرسل ينقل واقعة ويفصّل خبرا بغية إبلاغ متلقيه فإنه يجتهد في التعبير عن موقفه متوخيا الرسالة وسيلة لإقناع المتلقي الذي يُسهم بمعلوميته وحضوره في ذهن المرسل بتنظيم سبل الرسالة.

تولد الرسالة من رغبة، وتحافظ في تراتبيّة جعلها على مجرى رغبتها ومعياريّة فضاء ثقافتها، لتنظم فعل مشاركتها وتتم حوار طرفيها، محققة حضورها في واقعتها ومؤمّنة، عبر إجراءات النقل، ما يمكن من توافق "بين ستراتيجيّة المؤلف وجواب القارئ المُستهدف أساساً بستراتيجيّة النص"(٢٥)، ليتبيّن دور الجملة، عبر عاملي الصياغة والتراتب، في النهوض بمهمة توجيه الرسالة والإسهام بتحقيق أهدافها، مثلما تتبيّن مسؤوليتها في الإعلان عن نوع الرسالة وكشف ما تتخذه من سبل لإنجاز رغبتها.

تخضع الرغبة وهي تولّد رسالتها وتُجريها في فضاء الثقافة إلى ما يقترحه الفضاء ويقتضيه، أي أن الرسالة، بجملة أخرى، لا تكون بنت مرسلها على نحو كلي، بل إنها تستجيب في ولادتها ومجرى رغبتها لإرادة الفضاء وهي تمتد فتشمل أركان المرسلة جميعها:

- المرسل: في التعبير عن رغبة، ومجرى هذا التعبير.
- الرسالة: في انتظامها جملةً في حوار.
- المرسل إليه: في تلقيه الجملة، ووعيه الرغبة، وإقامة الحوار.

إن انتقالية المرسل من (الإبلاغ) إلى (الإقناع) تتطلّب تغييرا في إجراءات المرسلة السرديّة من (أبلغك) إلى (أدعوك أو أعرض عليك)، مثلما تقتضي تغيّرا في نظم التوجيه بما يتناسب مع حيادية الإبلاغ التي تعيّن بدورها موقعاً ثانوياً للمرسل في الواقعة التي تكشفها الرسالة وتنتظم داخلها، وانحيازية الإقناع التي يغدو المرسل فيها مركزاً من مراكز الواقعة، مثلما تشير إلى تغيّر في درجة النفعيّة التي تتضمنها كل منهما. وإذا كانت رسالة الإبلاغ تمثل شاهداً (أو شهادة) على حدث فإن رسالة الإقناع وجه من وجوه الحدث وصورة من صوره. إن المرسل يعلم في الحالتين كلتيهما أكثر من متلقيه، وذلك ما يشكل أفق الرسالة ويوجّه حواريتها، وهو إذ يكتفي بإيصال ما يعلم، كله أو بعضاً منه، في رسالة الإبلاغ، إلى متلقيه فإنه يُصرّح بمعلوميته ويعبّر عن أفضلية علمه، وربما تفوّقه بما يعلم في رسالة الإقناع، معلناً تورطه وكاشفاً موقعه في المجال التأريخي لرسالته.

لا تتوقف حركة الرسالة بين موقعي الإبلاغ والإقناع على وعي المرسل، ووجهة نظره، ورغبته في توجيه رسالته، ولا على الرسالة في علاقتها بجهتي المرسلة السرديّة، ولا على المرسل إليه، بل تعتمد ما ينتظم من علاقات بين هذه الأركان مجتمعةً وبين الواقعة الكبرى وهي تنشئ حدثاً، وتؤمّن مجالاً، وتنظم اتصالاً، فتتغيّر حركة الرسالة بين الموقعين إستجابة لموجهات سوسيو - ثقافية، تغدو معها كل رسالة ترجمة ايديولوجية لموقف، قد يظهر أو يستتر لكنه موجود على الدوام يعمل على إضاءة أغراض الرسالة وتحديد مهامها وهي تعمل على تنظيم خبرها ضمن سياق ثقافي معلوم، فالرسالة لا تنشأ في فضاء فارغ، ولا ترعى تفرعاتها خارج حكاية ما، إنها تقدم نفسها وحدة سردية متميزة ضمن مادة حكائية تتسع وتمتد بما يكون من تواشج واتصال بين واقعتيها الصغرى والكبرى، حيث تهيئ لها فرصة للإلتقاء مع أنواع سردية أخرى وإقامة حوار معها، وهي تسعى، بذلك، لتعيين موقعها في تأريخ الثقافة ومجريات أحداثها.

إن تجرد الرسالة من موقعها داخل المنظومة الخبرية وتجاوز موجهات حركتها في المجالين التأريخي والحضاري يجعل منها نصاً ذا طابع حيادي، بلا هوية "على مستوى اللغة، تفصح عن كونه رسالة، ولا زمان يُفصح عن مكان وقوعه بين المرسل والمرسل إليه"(٢٦) مثلما تجرّدها من قيمتها الخبرية بوصفها وحدة سردية وتغيّب تميزها.

١- الأدب والعرابة، دراسات بنيوية في الأدب العربي، عبد الفتاح كليطو، دار الطليعة، بيروت، ط١٩٩٧/٣: ١٣.
٢- طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ابن حزم الأندلسي، حققه وقدم له: صلاح الدين القاسمي، دار الشؤون الثقافية- بغداد، مشروع النشر المشترك١٩٨٦: ٩٤.
٣- لسان العرب، ابن منظور، إعداد وتصنيف يوسف خيّاط، دار لسان العرب، بيروت(د.ت): (مادة رسل).
٤- ينظر: الاقناع بواسطة التخييل، حميد لحمداني، مجلة (جذور) السعودية ج٤، مج٢، سبتمبر ٢٠٠٠.
٥- "وأصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يُرسل به من بعيد، فاشتق له اسم الترسّل والرسالة من ذلك".
البرهان من وجوه البيان، أبو الحسين اسحاق بن وهب الكاتب، تح د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي: ١٩٣.
٦- رسائل أبي العلاء المعري، شرح وتحقيق الأستاذ د. عبد الكريم خليفة، منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر ١٩٧٨ ج٣: ٦٥٥.
٧- المصدر نفسه: ٦٤١.
٨- درجة الصفر للكتابة، رولان بارت، ت. محمد برادة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٠: ٢٨.
٩- المكونات الأولى للثقافة العربية، د. عز الدين إسماعيل، وزارة الأعلام، بغداد١٩٧٣: ١١٣.
١٠- المصدر نفسه.
١١- عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، دراسة وإعداد د. إحسان عباس، دار الشروق، عمّان١٩٨٨: ٢٩١.
١٢- البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط٥- ١٩٨٥: ٢/١٠١.
١٣- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، أبو يوسف بن عبد الله القرطبي، تحقيق: محمد مرسي الخولي (الدار المصرية للتأليف والنشر) ط دار الجيل(د. ت): ١/٢٧٧.
١٤- اللسان: (مادة رسل).
١٥- الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، دار الكتاب العربي، مصر (د.ت): (مادة رسل).
١٦- اللسان: (مادة سفر).
١٧- طوق الحمامة، م.س:٩٦.
١٨- المصدر نفسه.
١٩- المصدر نفسه:٩٧.
٢٠- الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٧: ١٩.
٢١- أمثال العرب، المفضل الضبي، قدم له وعلّق عليه، د. إحسان عباس، دار الرائد العربي ١٩٨١: ١٨٤.
٢٢- في الأدب الجاحظي، طه حسين، دار المعارف بمصر (د.ت):٢٣١.
٢٣- ينظر: أطراس، الأدب في الدرجة الثانية، جيرار جينيت، تر: المختار حسين، مج (فكر ونقد) المغربية س٣ع١٦ فبراير ١٩٩٩: ١٣٠ وما بعدها.
٢٤- ينظر: بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، د. حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١٩٩٣/٢: ٤٥.
٢٥- كتاب المنازلات، طراد الكبيسي، دار الشؤون الثقافية، بغداد١٩٩٧ ج٣ منزلة القراء: ١٣.
٢٦- في معرفة النص دراسات في النقد الأدبي، يمنى العيد، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط٢/١٩٨٤: ١٨٠.

فريا ستارك

صور بغدادية

ترجمة : د. سعد الحسني

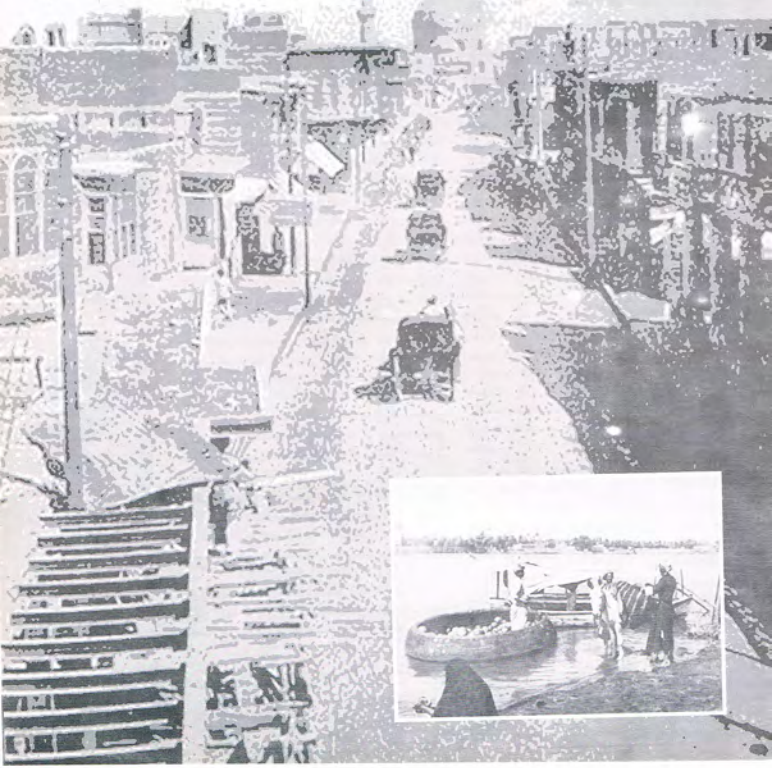

فريا ستارك: البدوية العاطفية

تعد الكاتبة البريطانية فريا ستارك من أشهر من كتب في أدب الرحلات سيما وأنها تنقلت من مكان إلى آخر في الجزيرة العربية والعراق وبلاد فارس. وقد عدها النقاد وكتاب السيرة من أكثر النساء المغامرات جرأة وقد وثقت رحلاتها وعملها وبشكل خاص في العراق في عدة كتب أفلتها بدء على شكل ملاحظات ومشاهدات يومية. ثم ان عملها كضابط استخبارات بريطاني أتاح لها حرية التنقل من وإلى أماكن كثيرة وكذلك الالتقاء بعدد كبير من الناس والشخصيات، تندرج ملاحظاتها ضمن إطار أدب الرحلات الذي أتاح لها توثيق بعض الأحداث وملأ الفراغ التاريخي الذي تتركه الكتب التاريخية عادة ولكن بمخيلة ديمو غرافية لها علاقة وثيقة بالسكان وطباعهم وعاداتهم.

لم تصور فريا ستارك وتصف انطباعيا من تلتقي بهم بل كانت تعطي تحليلا أخاذا من شأنه إن يلقي الضوء على كثير من القضايا السياسية والتاريخية من دون أن تغفل كتابة ذلك بشكل ادبي راق لا يتركز في مجرد السرد الممل والتحقيق الذي يخلو من الشفافية.

ولعل أفضل من كتب سيرة حياتها هي جين فليتشر جينيس في كتابها الموسوم "البدوية العاطفية: حياة فريا ستارك THE Passionate Nomad – The Life of Freya Stark" الذي صدر عن دار راندوم وفيه تتحدث الكاتبة عن مشاعر القلق والهواجس واحتقار الذات التي تعدها جميعا عناصر مكونة لشخصيتها دفعت بها إلى ترك بلدها والتجوال في قفار يخشى ارتيادها الرجال.

اصدرت فريا ستارك مجموعة كبيرة من كتب عدها النقاد فاصلة أدبية مهمة في القرن العشرين إذ جسرت من خلالها كثيرا من الفجوات التاريخية والجغرافية والسكانية لكثير من المناطق. يشكل مؤلفها "صور بغدادية " Baghdad Sketches وثيقة مهمة تقوم فيها ستارك بمسح جغرافي ديموغرافي شامل لكافة ألوية العراق في الثلاثينيات. وأهمية كتاب كهذا تنصب على إعطاء مؤشرات مهمة حول تفاعل هذه المرأة الاستخبارية الاستثنائية مع كثير من البيئات المختلفة التي زارتها. وقامت ستارك أيضا ببعمل ذي أهمية كبيرة في توثيق مشاهداتها بصور فوتوغرافية أو تخطيطية لكثير من المواقع وهو نشاط قامت به في اغلب مؤلفاتها مثل "شتاء في الجزيرة العربية Winter in Arabia" حيث ضمنته ٨٧ صورة فوتوغرافية التقطتها إضافة إلى ثلاثة خرائط كبيرة.

وينطبق نفس الشيء على كتابها الآخر الموسوم "البوابات الجنوبية للجزيرة العربية"The Southern Gates of Arabia الذي شرعت بتأليفه عام ١٩٣٤ حيث مضت في رحلتها عبر البحر الأحمر باتجاه عدن واستقرت على رأس شبه الجزيرة العربية. ومن ذلك الموقع شرعت ستارك بمشروع عد أهم مغامرة لها. فبعد أن سارت في طرق البخور لوادي حضرموت وهو أشهر موقع خصب في الجزيرة العربية إلا وكان في ذهنها أن تصبح أول امرأة غربية تحدد موقع المدينة المفقودة المسماة (شبوة) وتوثقها. وبتسجيل رحلتها هذه عبر المدن والمواقع التي مرت بها في حضرموت فإنها قدمت تسجيلا حيا ورواية مؤثرة عن الشيوخ والسلاطين وعن المأساة والانتصار. وعلى الرغم من الادعاء بأن اكتشاف (شبوة) لا يعود لفريا ستارك إلا أن كتابها يعد من كلاسيكيات أدب الرحلات الفذة إضافة إلى وصفها تحليلا معمقا في ذوات الشخوص والناس الذين التقتهم.

عودا على ذي بدء نقول إن كتاب (صور بغدادية) يطرح تسجيلا مسحيا للعراق في فترة الثلاثينيات تحلل فيه الكاتبة سيكولوجية كل فرد وكل بيئة وكيفية تأثيرها وتأثرها بعوامل الطبيعة مع تأكيد خاص على سلوكيات بعض الشخوص الذين قابلوا الكاتبة في أثناء تجوالها

سعد الحسني

بغداد شتاء ٢٠٠٦

FREYA STARK

BAGHDAD SKETCHES

JOHN MURRAY
ALBEMARLE STREET, LONDON, W.

في الحي الاسلامي

بعثت واحدة من رسائلي وكانت لصديق في دمشق ثم مصيت متجولة في الصباح بعد وصولي الى (بغداد) كي اجد بيتا.

ان ما تراه لاول وهلة في مدينة الخلفاء هو مظهر قذر، شارع مستقيم واطيء طويل، هو عبارة عن هجين بين الشرق والغرب من دون اية جاذبية لاي منهما. ويبدو حشد الناس الحليقين والنحيفين والاطفال شبرا الشفقة بسبلها الذكاكين هي عبارة عن خل وسط من الذكاكين الاوربية غير الجذابة. اما الغبار فهو شرير اذ انه يتحول الى سموم في ادنى فرصة ويحمل الفكرة الدبسية عن الجو الذي تقطنه الشياطين. لكن بوسعك ان تغادر الشارع الرئيس في الحال وتمضي الى الاسواق الطويلة وشقفها، وبوسعك ان تتحول يمينا عبر ازقة ضيقة وشرفات ذات ستائر في الاحياء اليهودية والاسلامية. بل ما يزال بوسعك ان تعبر جسر العوامات القديم باتجاه الكرخ والتي هي الناحية الجنوبية للمدينة المدورة التي بناها المنصور حيث يجلب حاصل الارض بقوارب كبيرة، اسفل قناة عيسى، وتوجب عليها ان تفرغ حمولتها في جنادب في ميناء قرب الدار عكركرجان حيث تقبع الصحراء الان طالما ان سارية السفن لا يمكنها ان تمر تحت العديد من الجسور الحجرية للمدينة.

لقد ذهب المجد لكن الحياة لم تغير. فالمهدو ذوو العمائم البيض واليهود التجار والارمن ما يزالون هنا على الرغم من ان حريرهم وبهاراتهم والفلفل والسكر وقطيفة خوزستان لم تعد تأتي عبر طريق حلب القديم. فالحجاج الفرس او احفادهم ما يزالون يمشون بأقدام عارية صامتة ووجوه مقطعة عبر ظلال الطرق المظللة الخانقة. بينما يرتدي احفاد النبي العمائم الخضر وعباءات فضفاضة ومسابح قهوائية ويبصون من دون وجل وهم قادرون من دون شك ان يصلوا الى ادق التفاصيل في الشريعة او العرف على الرغم من ان المستنصرية تلك المدرسة العظيمة مليئة ببيوتات الاعراف والتقاليد، اذ ما يزال الجدل القديم فيها يتملك حياة الرجال ونزول القرآن او وجوده الخالد وما الى ذلك غير ان كل ذلك قد اتاح سبيلا الان لمزاج ممتع للجدالين الاكراد تحت هذه الطرقات الملتوية.

بالطبع اني لم اكتشف كل ذلك في نفس الصباح فإنني في الواقع قد ضعت في متاهة الطرق الضيقة التي تملأها الحمير مع سائسيها الذين حملوها من الجانب الى الجانب. كنت افكر بالسوال عن الطريق الذي يؤدني الى البيت حسين وجدت دارا فارغة. لقد كان مكانا متداعيا يجدران من الصخر وشبابيك تتطلع نحو باحة صغيرة وكانت هناك ملحوظة باللغة العربية تقول ان الدار فارغة وهي للبيع، لكن ما جذبني كان البيت النائي. كان في باحة الحديقة الصغيرة وتحت ظليله وبصفوف متعددة قرابة عشرين الى ثلاثين طفلا يجلسون على الحصران كي يتلقوا دروسا من المعلمة العجوز الذي جلس متربعا بينهم. ولم يكن لديهم سوى عشرة كتب لذا جلسوا في مجموعات كل ثلاثة او اربعة حول كتاب وكانوا ينشدون بالكلمات المقدسة بأصواتهم الطفولية. بسبب الفينة والاخرى يمر بي على الباب كل قادم جديد صغير، يخلع حذاءه ويجد مكانا خاليا وزاوية في كتاب ليقرأ منها. بين الفينة والاخرى يصيب الصجر بعضا منهم فينحدرون بين النباتات والازهار ويعودون بعد فترة وجيزة بنشاط متجدد. ونقد كان المعلمة يرتدي عمامة بيضاء وهو ذو لحية حمراء مجدلة ووجه عجوز طيب، ولم يكن تلامذته يخشونه.

لقد كان منظرا ممتعا وتصورت ان من الممتع ان اعيش قربه بحيث قبلت بالمساعدة غير الضرورية لخمسة من المرة في ان احسل رموز عنوان صاحب البيت ثم اعود الراجي الى الجو الكئيب في الفندق الذي اسكنه مع شعور بالتيه المدمض.

وبعد العداء اعلن عن وصول نوري فلان في الحال وهو صديق دابغ الجلود. لقد وصلته الرسالة المعنونة فقط بعبارة (بغداد) بهذه السرعة الملحوظة. اما كيف يقومون بذلك في المدن الشرقية الكبيرة فانه سر بالنسبة لي دائما، اذ ان الايضاح الذي حظيت به في ذلك الوقت هو ان هناك لي معرفة (بمكتب البريد).

على اية حال، كان نوري شابا طويلا يوجه فارسي طويل وربطة ملونة جميلة وملابس اوربية ونوع من القبعات التي كان جلالة الملك فيصل قد اختارها غطاء رأس قومي للعراق. كان نوري متحمسا وطيبا جدا. بالطبع كان يوسعي ان احصل على بيت بستة دراهم في اليوم ان رضيت بذلك. فأخذ عنواني في الصباح ووعد بأن ينظر في ذلك ويرتب لي هذا المكان او افضل منه، وقد وفى بوعده.

في ايام قلائل كان قد وجد لي اصغر بيت رأيته وبسلم ضيق حاد الانحدار. اما الشارع الذي ينتصب فيه فلم يكن سوى بعرض ستة اقدام يدور حول زاويتين مظللتين من الشارع الرئيس وكان البيت مزين بباب جميلة من الخشب المطلي بلون ازرق فاتح ومقابض من النحاس ومدق. وفي الداخل كان هناك بئر صغير جدا لا تصلح ان تكون باحة مع فتحة مقابل الباب الامامي وممكن ان تكون هذه المطبخ. طاولة وموقد وحب للماء(١) هي كل الاثاث المطلوب هناك. وعلى

يسار الباب الامامي وخلف الجدار الداخلي الفاصل، انحدر السلم انحدار شديدا وفي اوقات الحصار يكون السلم جيدا لصب الرصاص المصهور على المهاجمين. لقد كان الموقف الستراتيجي، مع ذلك، ضعيفا على النهاية الاخرى حيث يستطيع اي احد ترتيب هجوم مركز من السقوف على الطرف الثاني، وينفصل سلقي عن هذه السقوف بسياج من حديد متموج منحرف جدا. لقد تم وضع هذا السياج بشكل بسيط ولكن فصول المرء قد يشيع بسلسلة من فتحات صغيرة للعيون قطعت على الفواصل.

تشكل شقتي بين السقف والمطبخ، مهجعان ربطا بجسر مفتوح عبر البئر في الاسفل. اما الغرفة الخلفية فقد كانت مظلمة ولكن كانت للغرفة الامامية ثلاث نوافذ مصبوغة باللون الازرق الفاتح. كانت الانصاف العليا منها مزججة اما السفلى فقد كانت مغطاة بمصاريع حديدية تتدلى الى الاسفل لذا لا يستطيع المرء غلق النافذة او أن يطل منها ايضا.

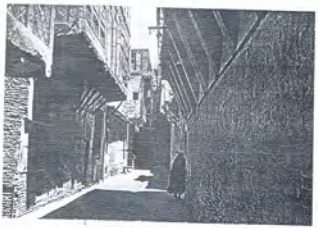

لكنها كانت غرفة صغيرة مفرحة اذ تشرف على الشارع والحداد والبقال ودكان القصاب في الاسفل وعلى الباحة الصغيرة للجامع على الجهة المقابلة ولها مدخل من الأجر الازرق وشجرة الدبق(٢) التي تلامس بشكل رقيق مصاريع نوافذي. ويبدو انها بيضت حديثا. واصبح اجرها ثلاثة دراهم يوميا.

لقد تركت كل شيء بيد نوري وبعد المساومة تم حسم المسألة. قضيت صباحا في ما يعرف (بسوق الحرامية) واشتريت بعض الاثاث الصغير للبيت وجدته محمولا على ظهر حمال كردي، مشيت معه برزانة الى باب بيتي الجديد حيث تجمع الجيران، ليوعدوني بالمساعدة والتعاطف طالما اعيش معهم. ويبدو جميعهم ودين ومسرورين جدا. والملة فقط رجل شيعي وهو عجوز ذو عيون صلدة كالحجار، كان ينظر عن بعد بتعابير متجهمة والتي كانت، كما توقعت، النظرة الطبيعية لملاصقه او ربما لممارسته الدين طوال فترة حياته. لقد تحمست ان اكون ودودة معه لان تجهيزي من الماء يأتي من الحنفية التي في باحة جامعه.

ماري الارمنية

لو عاش احدهم في حي فقير في بغداد فإن مشكلة الخادم ستكون هادة كما في اي مكان اخر على الرغم من طبيعتها المختلفة. فللوهلة الاولى سيدهشك التنوع الكبير الذي تصطفي منه: هناك رجال هنود ومسلمون وأرمن واثوريون وأكراد. وهناك نساء اثوريات او أرمنيات ويوسع المرء ان يحصل على اولاد صغار، لن اتدخل في اديانهم.

وجدت ذلك صعبا من الناحية العملية. اذ كان علي ان ارفض رجلا كرديا وسيما لان البيت كان صغيرا لا يسعني واياه معا. فقد كان رأسه يصل الى الطابق الثاني حين يقف داخل بابي الامامي.

اعارتني احدى معارفي الاميركيات خادمها الصغير الذي يدعى سليمان وهو بسعر الرابعة عشر. وكان سيحصل على عشرة روبيات في الشهر وكان يفتسل ايام الجمع كما انه كان يرتدي صدرية من الصوف حينما يشتد البرد.

لقد جاء مسرورا وهو يحمل سلة خلفه، وحين استدرنا الى شارعي بدا عليه الانزعاج وسرعان ما تحول في الزاوية الثانية الى مسحة من الحزن المستقر وعندما سحبت مزلاج الباب - وهو سلاح خطير بطول قدمي وثقيل جدا - وفتحت باب مسكني ألقى بنظرة ساخطة حول البيت ووضع سلته على الارض وجلس على اوطأ درجة من سلمي المصحك وانفجر باكيا. لملم نفسه وهرع الى الشارع الرئيس حيث يجلس صعاليك بغداد على الرصيف بانتظار ان يحملوا الرزم ثم عاد مع صديق عربي صغير واسع الوجه، اعتبره مناسبا لبيتي. وبعد ذلك اختفى سليمان وتلاشى في القراغ.

كان محمود وندا رائعا بوجه كالبدر مبتسما دائما لكن عناصر الخدمة لم تكن متوفرة فيه. كل اصدقائي الانكليز ايضا والذين كانوا طيبين ويقدمون يد المساعدة مثل اي شخص وكنت امكث معهم حين عانيت هذه المشاكل، كانوا

يعتقدون ان من الافضل ان تكون لدي امرأة يمكن ان تمكث في البيت عند الليل. لذا استاجرت ماري الارمنية.

كانت مخلوقة سوداء غير مرتبة مذهلة بحواجب كأنها خطت بقلم لتلتقي فوق انفها مع وشم على حنكها نقشه البدوي الذي كان قد حملها كطفلة صغيرة في غزوة او مذبحة او باعها لمسلم من دمشق. وقد ابقاها حتى صار عمرها اثنى عشر عاما ثم تزوجها. يبدو انه قد عاملها بلطف وربما اخرم بها اذ عندما هربت، تبعها الى بغداد وما يزال يبعث برسائل يتوسل لها ان تعود. هذه كانت على الاقل قصتها. وحين استأجرتها كانت قد هربت لتوها من عبد الله الخياط الذي كانت تخيط عنده سيدات بغداد. هو لم يفعل شيئا يستحق هجرانها المفاجئ لكن ماري كانت هكذا. تريد ان تعيش مع شخص من جنسها وعلى الرغم من اني لست واحدة من تلك النساء التي يمكن ان تقول بنظرة واحدة من هي صاحبة الخلق ومن التي لا خلق لها لكن لم يكن بوسعي ان اصل بالتدريج الى استنتاج بأن ماري كانت مناسبة اكثر لأن تكون بائعة خمرة للجود بدلا من ان تكون خادمة لسيدة.

كان لها ولما بالالوان البراقة فقد كانت مهتمة بالاشياء الاوربية الصوفية الرديئة التي تعرق الشرق والاحذية ذات الكعب العالي وقمصان الدرسيه باللون الاصفر والقهواتي الكريه لكن في المهجع الصغير مقابل مهجعي ولي حزمة مربعة كومت كل ممتلكاتها التي ربطت بأحكام كوسادة تنام عليها، وكان لديها مجموعة من كل نوع من المواد الرخيصة، تفتحها بين الفينة والاخرى وتسحب الاشياء الواحد بعد الاخر وتنظر اليها بفخر يثير الشفقة ثم تعيد طيها بعناية مرة اخرى. خلال حياة تجوالها من دون صديق كانت هذه الرزمة هي الشيء الوحيد الذي يذكرها بشعور الانتماء الى البيت ولقد اظهرت لي حبا استبداديا لم يكن مريحا فقط، وانما اعطاني شعوراً بسعدم الاستقرار، فمواطفها كانت كمواطف نمر. فإذا ذهبت للعشاء خارج البيت اعود لاجدها مغمورة بالحزن. عاشت متطرفة فهي اما قاسية الى ابعد الحدود او بسيطة الى ابعد الحدود، لذا اصبحت الحياة بين خيرانا المسلمين اكثر تعقيدا مما يجب ان تكون عليه، وكنت في بعض الاحيان اشعر بالسخط لاعتقادي بأن السبب الرئيس في وحشية الارمنيين هو الارمينيون انفسهم. "يوما ما سيقتلوننا" كما تقول وهي تنظر الى البقال الودي وغير المؤذي.

مرقت مع سلتها في الصباح، متأرجحة بأسوارها الثمانية والتي هي رأسمالها الوحيد وعولت عليها في اوقات الشدة، مشبحة بنظرتها الى اليمين واليسار، الى مساعدي البقالين وحطت بزق حاد بجانب الكراسي حيث يجلس المجزة ويتأملون زاوية الشارع. هم دون شك فكروا بها ودون ان يرمش لهم جفن، مركزين عيونهم بأشياء على اقدامها، كما فكر عيسى بنساء القدس. فهم لم يحبوها ولم تحببهم على الرغم من انهم قد يجيبوا بسلامهم.

"يوما ما سيقتلوننى بسبب هذه" تقول ماري ذلك عند عودتها من الاسواق محركة الذهب المتلوي حول ذراعيها النحيفة ذات الوشم، وافترحست عليها "لماذا تعطيها كمسلمة؟" لن اعطي نفسي من اجل هؤلاء الكلاب، سأهز ذراعي في وجوههم.

ولكن ان طرق احد منهم البباب، لن تجرؤ ان تفتح له وتفر هاربة الى الاعلى، الى الجسر الصغير بين غرفنا وبينهم، ساجبة اداة عربية الشكل متصلة مع البباب الامامي بخيط مترقلة لما قد يحدث. قمت بأفضل ما استطيع كي اضمن قيامها بواجباتها البيتية والباب مغلقة بدلا من ان تقف على عتبة الباب في الشارع. جاءني الحداد في احد الايام ليفتلني على هذه الجهود من التزمت والتي لو حظت بشكل واضح وأطريت من قبل كل الجيران.

فقد قال "ليس لها عقل" "انها جاهلة" "انها وحشية" "انها ارمنية" ومع كل تصعيد يهتز الحشد الصغير برؤوسه ليظهروا الموافقة. قال البقال بصفة قاضي "نحن جميعا نقول بأنها غير مناسبة لك" وقد أبدت هذا بنشاط امرأة عجوز ترتدي السواد والحجاب على جانب واحد من وجهها، تحمل جرة ماء نحاسية على كتفها. ان وجهة نظر الشارع كانت غير معروفة بشكل واضح. ولكن عند المساء، شعرت بعدم امكانية تركها لوحدها في الاسفل، فهي تجلس بجانبي وتخبط وتخبرني عن حياتها الغريبة المهملة، وعن طفولتها التي سمعت عنها من ناسها البدويين في الصحراء وعن ذكرياتها الاولى الصعيفة عن الخوف والجوع في بلاد الشمال وعن شعورها بالحرج والنفي الذي لم يستطع عطف سادتها محوه.

لقد تركت في هذا العالم لوحدها تلتقط منه ما تستطيع. لقد كانت طفلة عنف وان يدها كانت دائما ضد البشرية. كانت في طريقها العمياء تتوق الى العطف واشياء الروح الجميلة ولكنها كانت مغرقة عميقا بالاحقاد ولم تعرف سوى القليل من اللطافة كي تميز هم ان جاءوا.

لقد شعرت انها ربما لم تعرف امرأة ممكن ان تقبلها او تشعر معها بالاخوة العامة ولذا وعلى الرغم من ان لغتها العربية كانت مفرطة وعلى الرغم من انها لم تكن جذابة في الواقع وفعلت ما بوسعها لتجعل بيتها الصغير الهادئ يبدو مثل قلعة

حربية بين الاعداء الا اني احتفظت بسها معي الى حين ان ذهبت هي بمحض ارادتها.

الحياة في حي الفقراء

اعتدت ان استيقظ في الصباح في عرفاتي في حي المسلمين وانصت الى النساء في الاسفل يتعاملون بلغة عربية اعجمية من الصعب علي فهمها.

لكل حي وظائفه طرق مختلفة في الكلام، ولقد اخبرتني امرأة عجوز مرة عن قصة العروسة القادمة من الطرف الاخر للمدينة وكيف كان ينظر اليها على انها اجنبية، كنت بعيدة كل البعد عن ملاحظة مثل هذه التفاصيل والفروقات الدقيقة، لكني كنت احب ان اضطجع في فراشي وضوء الشمس ينحدر علي من فوق الستائر الزرق وأصغي الى البلاعة في الاسفل، اذ ان عدد المرات التي تذكر فيها الكلمات (والله) و(يا الله) تستوجب صرف ما يعادل ربع بنس من اللحم، وتنقل اخر الاحداث الى مجاميع صغيرة بأصوات درامية واطئة.

بعد شارعنا الشريان الرئيس الذي ينم عن طريقه نقل الاخبار وما يدور في العالم الصغير، ففي الوقت الذي تظهر فيه ماري مع وجبة الافطار يكون البقالون قد عرضوا بضائعهم ورتبوا الرفوف خلف مناضدهم حيث يعيشون خلال اليوم. وتكون الستائر القنبلية، التي اخترعت لاوقات فوضى المدينة قد اسدلت، ويقوم صانع الحداد بتنظيف المحل وإزالة الاتربة عن الشارع بكنسه بسعفات قليلة من النخيل.

وتأتي النساء الى الجامع للحصول على تجهيزهن اليومي من الماء للقيام بالاعمال المنزلية حاملات على كتف واحد جرات الماء جرة الماء اختصاراً النحاسية ذات الرقبة النحيفة ويمشين بأقدام حافية انيقة. ثم مد انابيب ماء في بغداد ولكن القليل من السكان في شارعنا لديهم حنفيات للماء في بيوتهم. ذهبنا جميعاً الى الجامع ولكن لحسن الحظ لم يكن هناك وعاء لاغتسال المؤمنين فدفعت ماري جرة الماء اختصاراً للوقت والمشاكل. اعتادت ان تجلب لي بعض الماء للاغتسال يوميا عدا يوم الجمعة حيث يخصص الماء للعبادة وتهمل الاشياء الاخرى.

كان الجامع اقرب جيراني وكان سقفه بمستوى سقف غرفتي ولم يصل عرض الشارع الذي يفصل بيننا الى ستة اقدام بالتاكيد. اعتادت القطط ان تنط عبر الشارع وتدخل غرفتي عبر النافذة المفتوحة وتلزعني الى ان اعتدت على عيونها الخضراء في الظلام وهي بقرب فراشي. كنت ارافب الملة وانا احتمي بستائري وهو يكوي او أراه يصعد الى الاعلى من الباحة السفلى ليدعو الناس الى صلاتهم. وبصوته الاجش ووجهه القاسي يتجه الى الاجهاء الاربعة للمدينة وتفيض الكلمات الجميلة منه عبر شعاع الشمس فوق السقوف المحجبة والطرق الظليلة.

كنت استغرب في العادة من كي الملابس التي يرتديها اذ كانت مغسولة قبل وقت طويل وتبدو كما لو انها لم تكو على الاطلاق. اتضح السر فيما بعد اذ انه كان خياطاً في وقت فراغه وكان يستخدم السقف كغرفة لكي تشاركه فيها جميع طيور الحمام، وكان صبره مع هذه المخلوقات هو الفضيلة الوحيدة الذي كان يوسمي ان الاحظها فيه والتي قد اذكرها هنا. فأول علامة على مجيئه هي رفرفة الاجنحة وتقدمه مع عصا طويلة مصفرا من زاوية حيث يضع طاولته ومكواه الفحم. كان هناك شيء يثير الشفقة في منظر المملة العجوز الصارم اليائي الاسمال المنحني الظهر، وهو يركز بحذق على ملابس

الناس الآخرين.

بدأت الحمامات بعد ان حطت على بضع بردات من مكانها الاول بالتقرب والمشي من جانب الى جانب مثل اطفال يمشون لتوهم ويتعثرون كل حركة له بسيزات سريعة من رقابها ونوحها. وفي الوقت الحاضر فانها تعطي سطح السقف بأكمله وهي تلتقط الحب من حول اقدامه وتمشي بطريقتها الدبدبة فيما بينها. ثم انه قد يرمقها بنظرة كراهية- ربما كان ذلك مجرد نظرة عين- ثم يمسك بعصاه الطويلة ويهشها بمنعومة ودون ان يصيبها ويضرب على الزاوية المقابلة في السقف. لقد كانت هذه المذورات تتكرر عشرات المرات او اكثر في الصباح.

في اسفل الباحة وتحت شجرة السرو كانت هناك مدرسته وهي لم تكن مفرحة كما يتراءى للناظر منّي حين رأيتها في الصباح الاول لي في بغداد بسل كان من الممتع فقط ان تسمع الاطفال وترقبهم يهرجون حينما ينتهي الدرس وعند ذلك الحين يكون التسوق الصباحي قد أتى على نهايته فيجلس الحداد والبقال معاً في صحبة صامتة بينما ينزو في القصاب تاركاً عدته بعيداً.

يأتي الآن الساعة المتجولون يتادون علي ما يحملونه فوق رؤوسهم في اوان كبيرة مدورة فهناك الموز والتمور والمخللات والقطن الاوربي ومن الساس(٣) من الموصل. ولو نسيني للمرء ان ينتظر اكثر لقلما فاته اي شيء من متع الحياة تأتي الى مقر داره. فمن الفينة والاخرى يأتي معتوهون جوالون او امرأة بدوية بأقراط ونقود فضية كي تخبرنا طالعنا في مرآة وكنا نشتري حاجاتنا كلما كانت تأتي او ربما اضفنا الى اثاث بيتنا قطعاً برغم ان صديقي نوري قد وفر كل ما نحتاجه. عند المساء وبعد يوم قضاه في دائرة الاشغال العامة كان يضع العلالة او الموقد او اي شيء كنت افتقده ويساعدني على تعليق الستائر وما الى ذلك والتي خططنا لي شقتاه. كان يأتين جميعهن لاجل قدح من الشاي ويعلقن عباءاتهن السود في غرفتي الصغيرة ويحبين كل ما يوسعين ان يجدنه محبوباً وهو امر اكثر من ان يستطيع اصدقائي الانكليز القيام به.

في الحقيقة كنت محاطة بعطف كبير وكنت سعيدة في بيوت الدمى هذا في حي القراء. فقد كان شعور بالصداقة يسود الشارع برمته وهو يصنع تناقضاً ممتعاً مع صحف بغداد التي كانت مقالاتها مدانة لبريطانيا في ذلك الوقت. فلم نكن لنتزعج حول قسوميتنا او ديننا ان وجدت كل طائفة متعة لو تركت المجال للطائفة الاخرى. كان الناس طيبين بشكل استثنائي.

بعد ايام قلائل من وصولي، بعث الحداد برسالة لي يقول انه سيحاول ان يوقد ناره فقط حينما اكون في الخارج لان الدخان سيملأ غرفتي. وكنت معتادة على ان اترك مفتاح الباب الذي كان مستحيل حمله في اي شيء فأتركه عند البقال. ان ذلك كان يرعب مازي لكنه يبعث السرور عند المسلمين لكونه- اي البقال شيعياً- برغم ان ذلك ليس علامة كبيرة عن الثقة كما تصورت اذ اكتشفت فيما بعد ان كل المفاتيح في البيوت المجاورة تفتح الباب الامامي لاي بيت من دون تمييز وكان بوسعي دائما ان استعيد مفتاح الجيران ان صادف ان كانت مازي تحمل مفاتيحي معها. يقولون "ليس بوسعك ان تتوقعي ان يكون لكل باب مفتاح مختلفاً".

فقلت "اذن لماذا ينبغي ان تكون هناك مفاتيح على الاطلاق؟" لقد كان افتراحاً ثورياً لم يفكروا به لان المفتاح هو مفتاح دائما سواء حمل بابك مقفلا ام غير مقفل. وقد سارت السيدة آل شاين على نفس المبدأ حينما ارتدت ملابس قطنية كي تسبح في المحيط الهادي.

على الرغم من روعة شارعنا الا اني لا اعتقد انه كان محترما جدا. ان السيدة في البيت المجاور وبدلا من ان تكون وراء نافذتها الشبكية كانت تجلس عند شباكها المفتوح وكنت اقوم انا بنفس الشيء. وبينما كان كلانا ظاهرين عبر الطريق الى نصفنا فقد كان بوسعنا ان نرقب بعضنا في اثناء قيامنا بالتطريز وتبادل الابتسامات والتعليقات القليلة ونشعر بالحمية على الرغم من اننا لم نتحظى عتبة بيت اي منا. ان الشباك المفتوح محترم كان ام غير محترم يبدو اكثر ودية من ثقوب التلصص المحفورة في الجدار والتي يحدق من خلالها شخص ما على العالم الخارجي.

عند المساء وحتى منتصف الليل يمتلأ الشارع بالهمس وقرقعة الحركة والضحك المكبوت المليء بالاسرار والذي يسر السامع والذي اعتقدت انه وبشكل غامض قد كان استثنائيا في مدينة شرقية إذ كان يتوجب على الناس ان يهجعوا في بيوتهم، بعد ذلك تبدأ الشرطة بالتجوال وهم يصفرون. فرجال الشرطة يملأون بغداد بالحياة الاستثنائية عبر ساعات الليل القصيرة. ليس هناك من سارق يشعر ان بوسعه ان يمضي دون ان يلحظه رجال الشرطة من ناحية اخرى. يعمل رجال الشرطة جيدهم لجعل اصحاب البيوت الشرفاء مستيقظين فهم يصفرون من شارع لاخر مثل طيور العندليب في غابة باستثناء ان صفير هم اعلى. واعتقد انهم يصفرون بنشاط خاص تحت شباكي لاني كنت قد دفعت الى العريف روبيتين لهذا الغرض الخاص.

صدمة الانسان الوطني

إلتقاني البقال يوما ما في الشارع واخبرني ان رب بيت عني بعد ان سمع عن اهتمامي بـالقمة العربـية قـد طلب الاذن بالزيارة. اذ بوده ان يعطيني دروساً وقد رغب في ان يوضح لي انه لا يرغب في اخذ الاجور بل ان كل ما يوسـعني هو ان اتحدث معه بالانكليزية احياناً.

كان ذلك ممتعاً فاستفسرت عن رب البيت هذا وسـمعت انه كان مدرساً في بعقوبة وقـد ورث مالاً من عمه وهو يعتزم الان مع زوجته وعائلته في بيت مجاور يقـوم على رعاية املاكه المكونة من عدة بيوت بالجوار، كان رجلا محترما. واكد لي البقال وبده فوق صدره انه لا حـاجة لي ان اخاف، في الواقع لم تكن لدي اية مخاوف فدعوتهما كلاهما لشـرب القهوة في اليوم التالي. كان اسم رب البـيت "ناصر افندي" وكان رجلا ممتلئ في منتصف العمر بشعر قصير ووجنات منتفخة وانف دقيق وعينين صغيرتين ذكيتين وتعبير محبب بالهدوء.

كان يرتدي الملابس الاوربية التي خاطها بانحناءات، جلس على كرسيه بانتصاب تسنده صلابته، وحـين كان يجيب عن سـؤال فان فمه يزم معاً بطريقـة طفولية كما لو كان يكـبح انبساطة يخشى ان تهرب باستمرار. كان يبـدو فيما هو عليه كرجل مسالم غير طموح وعطوف. بعد هذه الزيارة الاولى كان يأتي كل مساء تقريبا.

قال ان لديه عملاً في الصباح. وربما كان العمل رسـمياً من الطريقة التي قال بها ذلك. في الواقـع كان عمله الاشـراف على اثنين او ثلاثة من العمال الذين كانوا يصلحون سقـفا او شيئا من هذا القبيل في بيته. وبعد ان انتهى معهم قد ينشغل ء جيد المظهر.

ان كل الشارع كان ينظر باحترام ليرقـب ذلك. كان يحـفظ الصحيفة اليومية مطوية تحت ابطه مع السدارة(٤) والمفتـاح الطويل الثقيل والذي هو في الواقع نسخة من مفتاحي في يده. بعد ان ينسلق الى غرفتي ويدخن سيكارة ويحتسي قدح قهوة ويتبادل اخبار اليوم فانه قـد يفتح الصـحيفة على الصفحة ويوشـر لي مع كل توقـفاتي واعتراضاتي على قـدح ونـم صحفيي بغداد والموجه اساساً ضد جرائمنا البريطانية.

لقد كان شيئا سالوفا ان تكون متاونا لبريطانيا في بـغداد في ذلك الوقت. ان تكون متاوئا بجملك تاجدا اما كمحامي او سياسي او صحفي. فأنت قـد توفر لك دخلاً وتكون وطنيا وهو اقرب ما يكون للسياسة من أكل الكيك. اما لو كنت مؤيدا لبريطانيا فقد تتهم كخائن من قبل شعبك وتعامل ككم سيمثل من قبل اصدقـائك الاجانب المشغولين عن مصالحة خصومهم كي ينتكسوا من تهديد وتهم على مؤيديهم.

ان اغلب البـريطانيين في بـغداد لديهم رأي متدن عن المحامين والصحفيين والسياسيين. وانا لست متأكدة ان ليس هناك الكثير مما يقال عن الاسـطورة التي تستشلي الناس السابقين بحكم المنصب من الجنة. فمع اثيولنا الاعتيادية لا ندخر جهدا في صنع العديد منهم قـدر مسـتطاعنا. فنحن نصنعهم من ابناء شيوخ الصحراء والتجار اليهود واصحاب الاملاك والمسؤولين، جميع الناس اصدقاء لحين ان ينتسى لنا تعليمهم. ان الشاب في الحكايات العربـية يتعثر من دون دراية بطلاسم لا شك فيها ويثير الجني بطريق الخطأ. فلديه الحق ان يندهش. الا اننا مصيبنا في ذلك ونحن نعرف. اذ لا نشجع المثقفين على الجلوس عند اقدام فيلسوف ويستمعوا لحكمة غير مؤذية، نحن نهدف الى شيء اكثر حقيقة. قد يبدو غريبا الا اننا نحـاول فعلا ان نصنع محـامين وسياسـيين وصحفيين، وليس لدينا خبار كبير في هذه القضية. اما ما لا نفعله بأنفسنا فهو ما سيقوم بـه الناس الاخرين لاجلنا، اذ ان العالم عطش جدا للتعليم. لكن في اثناء ذلك وبعد صنع هؤلاء الناس بأعداد كبيرة فإنه ليس هناك عمل كثير لهم جميعا. فيبـ قراية مائتي باردة حتى يبلغ بابـي بـروح من الملكية التي تجعل المرء جيد المظهر.

يولدون ازعاجا للآخرين حين تطير شرارة الدار الى الاعلى. وهو نفس الشيء لو كنا اخترنا زبونا واحدا فقط لكل خمسة بالمعى سكانر لكانت هناك مشاكل على الرغم من بائع السكانر غير متعلم كي يكون مزعجا بسلفس الطريقة المحترفة للمذكورين اعلاه. فما هو خاص هو اننا قد نبدو مدهشين من هذه الحالة. فنقول (ياللهم من ناكري جميل). (جميع هؤلاء الناس الذين علمناهم يكتبون كل هذه الاشياء المقيتة ضدنا!) لكننا ننظر بانده اش ونحن- يسعل عظيم اعطينا للشرق شكلا واطلقنا من الحضارة الغربية- نحسب ان اثنين زائد اثنين تساوي اربعة.

ان لذلك علاقة قليلة بناصر افندي.

حين بدأت لغتي العربية نصيح افضل بالتدريج، من بساطة برقياته. رويترز في المقالات الافتتاحية فان ناصر افندي قد ينحى بعض نقاط القواعد التي تضجره جدا ويركز على تصاريح طويلة عن ظلم الحكومات، خصوصا حكومتنا. كان يقوم بذلك ببعض الصرامة المدهشة- حيث انه لحسن الحظ لم يكن لديه شيئا شخصيا يشكو منه- وبحس جيد من الفكاهة، لقد كان مناوئا لبريطانيا لان ذلك كان الشيء الواضح الذي يجب ان يفعله، فكل اصدقائه كانوا كذلك، كما اخبره المحررون ان يكون كذلك. وهو لم يكن من المفكرين المستقلين. لقد كان جزءا من ذلك الكيان الكبير الذي ندعوه بالرأي العام لان ليس له رأي على الاطلاق. كان يردد صدى عدم شعبيتنا لاننا كنا قد سمحنا بعدم شعبيتنا في ان نكون صيحة العصر وقليل من المقالات المحلية في الاتجاه المعاكس يمكن ان تغير من رأيه داخليا حالل شهر. في اثناء ذلك كان ضدنا واخبرني بذلك بلمحة صغيرة اصبحت واضحة حين اكدت له عن الكذب الفاضح لصحفه المفضلة ولم اكتشف ما اذا كان يصدقها فعلا ام لا او ما اذا كان موقفه نحونا هو موقف طفل يرتعب المد وهو يدمر قلعة بناها بحماسة كبيرة قبل وقت قليل. ها هو يقف بريئا دون وجل مع المسحاة الصغيرة(٥) التي استخدمت للبناء بيده وهو مستعد للمساعدة بضربة حين تظهر القوى الهدامة للطبيعة عن نفسها فعلا. في الواقع انها قوى الطبيعة وليس قوة المسحاة اللئيمة هي التي يجب ان تهتم بها.

ناصر يخبرني عن ايام بغداد حين كان الجيش البريطاني يقاتل في اعالي دجلة وكل شخص غير تركي كان يتوق لوصوله. كان لدى الاتراك كل الطعام. فقد كانوا يبعثون باحمال الحنطة الى اسيا الصغرى بينما كان المدنيون العرب في مدن العراق يتضورون جوعا.

اجبر ناصر على دخول الجيش التركي وحارب في سلمان باك. وكان مع العرب من جماعته في صفوف الجبهة ولكنهم لم يكونوا متلهفين للقتال في قضية ليست قضيتهم. فالاتراك من وراتهم والبريطانيون من امامهم كان كلاهما يعنون العمل وقد وصف ناصر الوضع في ان يكون بين كليهما. فالاتراك كانوا شجعانا كما قال، فهم قد يقفوا مرة اثر مرة امام العدو ويصمدون بغض النظر عن القوة الساترة. ناصر ورجاله من ناحية اخرى قد يحاولون عدم الاهتمام ويجعلون الامور تمر من فوق رؤوسهم قدر الامكان. ان هذه الرغبة بالحماسة جعلتهم دائما يتخيطون في مشاكل وقد اصبحوا في وضع بامكان المدافع التركية ان تدق اعناقهم بلحظة.

وعندما استولى البريطانيون على البلد اصبح ناصر مدرسا في بعقوبة وليس المالايس الاوربية. هو لم يفكر كثيرا بها. قال مرة في احد الايام الحارة (ليس هناك عربي لا يلوذ باله من ازعاج جوارتكم). لكنها كانت رمزا للنظام الجديد. لقد حاول ان يجد حلا وسطا بين ارتداء البالة من دون ربطة عنق ولاحظ بشيء من الوقع عدم فائدة الربطة.

قال الموظف السياسي على اية حال ان من الافضل ان تكون اما اوربيا بالكامل او اسيويا بالكامل في مسالة الملابس. لقد خضع ناصر الى ازالة الخاصة حول الملابس الرجالية كجزء من الحضارة الجديدة. في بيته يعود الى الشذاذة البيضاء الطويلة.

زرت زوجته يوما ما. وهي مخلوق وحشي مرتعب ذات صفائر طويلة تجلس بجبن في زاوية من النيوان المفروش بالقطيفة الحمراء ومن الواضح انها غير معتادة على الكراسي واخجل من ان تتطق بكلمة. اتكأت فاطمة، ابنتهم الصغيرة على ركبة والدها بعينين مندورتين. كان بحبها جدا. وكل غرائزه البيئية والتي آلمت به الى حياة هادئة وجدت متنفسا لها في فاطمة الصغيرة. فزوجته التي تزوجها طفلة كانت ابسط من ان تساعد اي رجل ان يشعر بالالفة البيئية.

من المثير للشفقة ان تراه يحاول ان يرتاب قذارة الغرفة ويرتب زاويته بكرسي واحد ذي مسند ومكتبة مضادة بمصباح بر اقين لديم حيث يتعثر في الاسبيات بخصوص الاقتصاد السياسي.

قد يقول وهو ينظر حول الغرفة الصغيرة التي يعتقد اصدقائي الانكليز انها بائسة (هل انت مرتاحة. اذا ايضا احب البيت المرتب لكن ما عساي ان افعل؟ فهذا عمل نسائي، ونساؤنا لا يعرفن ولا يردن ان يعرفن).

قلت (قليلا قليلا. فالامر يستغرق ثلاثة اجيال. انها حكومة بذلك فقط هي التي يمكن ان تتعلم في سنتين حسب قول

FREYA STARK

BAGHDAD SKETCHES

JOHN MURRAY
ALBEMARLE STREET, LONDON, W.

صحفك).

عند ذاك قد يزم فمه بتلك الاشارة ويقول وهو يسحب صحيفته "هناك مقالة طويلة ضد الانكليز هنا. انها تقول انهم لن يعلمونا كيف نقود الطائرات". كان ذلك قبل بضع سنوات الان. وقد يضيف لانه اصبح اكثر تسامحا "انهم خائفون، لكن ذلك امر طبيعي، فهذه هي السياسة".

زيارة في الصحراء

قال ناصر افندي ذات يوم (هل تودين زيارة ابن عمي، شيخ حبيب، رئيس عشيرة عزة؟).

من الصعب ان تصدق حين ننظر الى هيئة ناصر المريحة ومظهره المديني ان له صلة بدائية بابن عم بدوي، لكن هذا هو اسلوب الشرق حيث يجتمع الكل معا بطريقة حميمة وغير متوقعة. قلت انه يسرني ذلك ولاني ما زلت جديدة على بغداد وغير مدركة لموقفها الخاص نحو "امرأة سائحة" فقد بدأت اتساءل اي من اصدقائي الانكليز يجب ان ينظم إلي. ثم تسليم وثيقة لي طبعت بسعة ان تكون دليلا لكل السيدات في العراق ناصحة اياهن ان كان عليهن التجوال الا يقمن بذلك على الاقل لوحدهن. ومضت الوثيقة تقول بسلفة انيقة تكتنفها حذرة (ان على السيدات ان يكونن برفقة احد ما حين يسافرن مع رجل اوربي او اميركي).

لقد بدا ذلك لي اقتراحا غير مناسب من جانب الدوائر المدنية البريطانية التي كان من غير الضروري وغير اللياقة الانصياع لقواعدها.

على اية حال كانت الخطوة التالية اكثر صعوبة (لو تعرضت لمتاعب نتيجة القيام بمثل هذا العمل فان اية امرأة اخرى لن يسمح لها القيام بذلك بعدئذ) وهي احدى تلك التعليقات التي يوسع المرء ان يتبادلها لساعات من دون ان يفقهها.

لم تكن النساء الشابات غير متعاطفات بل ان ومضة مغامرة بدت في اعينهن مما جعلني لا اتمتع بشعبية بين الزواجهن. فالزوج في المنصب الرسمي هو مثل نائب فكتوري، لا شيء من شأنه ان ينحرف بمسيرة عمله الى الابد، وما هيك عن ذلك يتوقع الازواج في الدوائر ان يعملوا مثل مرسأة حينما تهدد التيارات القوية بإبعاد زوجاتهم وان عمل المرسأة قبل كل شيء هو ان تصبح غير مستجيبة و محكمة الثبات عندما يحاول المرء ان يسحبها. لقد بدأت اشعر كما لو انني سعكرة لصوف السلام. فهذه العصبية الكريهة حول اتصال النساء حسن يترتب لحالين يمكن الاعتماد عليها كما استخلصت من حقيقة ان بغداد تقع قرب موقع جنة عدن. اذ لا بد انها حالة صدمة غير واعية من الماضي. العديد من الناس لم يتفقوا معي بالمرة. وبدا الامر كما لو انني كنت شخصا خاصا وهو امر سخيف. لقد تصورت وبسرارة لو ان الجنة تدار من قبل المكتب الاستعماري فانه لن يكون هناك فرصة في الحصول عليها ابدا وشعرت بالامتنان انها لم تكن كذلك. عندئذ ذهبت ورويت احزاني الى من، قالت بكل شهامة انها سألتني وستخبر زوجها- وهو في الحقيقة الشخص الاكثر تسامحا- في صباح اليوم التالي في وقت الفطور مباشرة قبل ان نبدأ، ان ذلك من شأنه ان يؤخره عن دوامة في الدائرة. بعد كل ذلك فانه يمكن توقع كل انواع المخاطر والمواطف في ذهني تراكمت واحتشدت الافكار بشأن ناصر والسابق العزي والمالك اليهودي وطعامنا ومقامنا في سيارة صندوق قديمة. ولقد ذهب الشيخ قبلنا ليعد العدة لاستقبالنا.

اتجهنا شمال شرق نحو جبل حمرين عبر بقوبة وتيلتاوة. اما الجو الذي لم يكن مسببا مثل التعليقات التي تركناها وراءنا فقد كان بعذب ابيض كئيب وهو امر استثنائي وفاسد. لقد اخذنا الصحراء معنا كما يقال وسافرنا في رقعة صفراء بحيط بنا البياض من حولنا. لقد كان الطريق رطبا وكان الصباب مخيفا في غابات النخيل في تيلتاوة وما يتقطع كانت الطرق الزراعية بين جدران الطين صامتة والابواب ذات الاقفال الخشبية التي تزوق اقفالها الهائلة في ثقوب وهي بدائية كأي الة شرقية جميعها مقفلة. وقرب القرية اصبح

الطين سيئا اذ بعد ان حرجنا من السيارة وراقبنا لولبها يتزلق ألححنا على وضع السلاسل. بعد تيلتاوة انقضّ الضباب وظهرت الصحراء بخطوطها الحادة تحت سماء منطرة، لكن الضرر وقع وكانت كل حفرة صغيرة عبارة عن مصيدة للسيارات. وقد سألنا العربي بنطه على حافة طرق لزجة باحثا عن معبر، وهرع الى المعبر بسرعة وكانت هناك ضوضاء صاخبة في الوسط وبعد محاولة مرتجفة للامساك بالياسة التي كان لها صلابة معجون الاسنان انزلقت سيارتنا بخفة راجعه بينما استمرت دواليبها بالدوران مثل الالعاب النارية وهي ترش الماء بدلا من شرار النار. ثم حرجنا واندفعنا بينما استخدم السائق العربي طرق الالتفاع مع مسحق التزوس. اما المالك اليهودي فقد كان مهندما جدا بحيث لم يتمكن ان مساعدتنا انما وقف في الامام موشرا الى سيارتنا باصبع واحد كما لو انها كانت طفلا.

ما كدنا نخرج من ثاني حفرة لنا من هذا النوع الا واصبحنا متركين للضحين كردبين من اعضاء البرلمان وقد غرزت سياراتهم في الطين بشكل اعمق منا وقد غمرهم الرعب على حياتهم في الصحراء. ولم تسفر جهودنا المشتركة عن اي تأثير بشأن الصالون الزاحمة التي كانا يسافران بها وبينما كنا نبتعد اسفا عنهما رأينا المساعدة تأتي في شكل ثلاثة او اربعة رجال من البدو وهم يخطون عبر الضباب نحونا. لوحنا لهم واحتفلنا بهم وقد اصابوا شدا ! غيرا للمشاعر المتعكرة للمسافرين الذين احمرت وجوههم. وقد توسلا كما لو انها قضية موت (لا تتركونا للبدو). نحن على اية حال مثل القوى الاكبر التي تتشعر بالمثل ازاء حماية الاقليات وقد بدا البدويون مسالمين جدا. لقد غادرنا بسخمت برش له لكننا سألنا عن مصير الكرديين في طريق عودتنا في اليوم التالي وسمعنا انه تم انقاذهم بطريقة خلت من الحوادث.

لقد تحول الضباب الان الى غيوم وهرب رامها بظلاله تحت الشمس وتكشفت الصحراء في اتجاه (تلي عباس) عن بعض المزروعات واصبحت الارض اكثر صلابة تحت اقدامنا. وبعد وقت طويل من زماننا المتوقع وصلنا الى اول مزرعة لمح حيث كان يقف رسول من شيخ حبيب ليلتقي بنا وهو شخص بشرة سوداء ووجه يشبه النسر وبلحية سوداء يرتدي البياض ومظهره الحاد ربما كان سيجعل عضوي البرلمان يغمى عليهما.

وبعد ان جثم على دواسة القدم قادنا وبحس بنقشه سائق المدينة في داخل وخارج الحفر الى القرية الطينية حيث كان الشيخ وجماعته قد تركوا العادات البدوية واستقروا في هذه الارض. انهم في المراحل الاولى من العملية وما زالوا ينظرون الى البيوت على انها اقل دواما من الخيم اشياء- اي البيوت- تترك وتبنى مرة اخرى في مكان ما لاي سبب- كالنزاع مع جامع الضرائب او صعوبة الزرع او الري فيصبح الموقع كريها. لقد كان الشيخ حبيب يفكر في القيام بذلك في الحال كما اوضح بسبب بعض الاعمال مع الايجارات. لقد اخذنا وكان يتبعه مجموعة صغيرة من رجال العشيرة، حول القرية على تلة كان ارتفاعها عاليا يتضح انها ربما هجر هما سكانها وعادوا اليها منذ الايام البابلية.

من حولنا مزيج من اشياء جديدة وقديمة. والشيخ نفسه كان على هذه الشاكلة. فقد ارتدى عباءة مقلمة صفراء وسوداء او زبون(٦) ويحمل خنجرا واكمامه فوق يديه طويلة وناعمة كما رسمها فان دايك- وهي سمة تلاحظ في الغالب بين رؤساء البدو- فتحدث الينا عن عصبة الامم وعن مدرسته الجديدة ذات الصور التربوية الفرنسية المعلقة على جدرانها الطينية وعن الغزوات في التلال المصورة- وهي قصة ماضي. اما حقيقة الزراعة التي تثبت فيها القطيعة مع الملفوف فهي امر جديد بالنسبة الى عشيرته. ولكن قرب علامة التقدم هذه وفي غرفة مظلمة وضعت فتاة صغيرة، الحنطة على الارض بين حجرين، الحجر الاول فيه ثقب تدفع فيه عصا لتكون قبضة الدوير، وبينما هي تجلس تنوح بأغنية صغيرة لا نهاية لها على الرحى(٧). بدرك المرء لماذا ان هذا هو عمل الاسرى، لانه عمل حزين تكراري. فكم من الاسر الحزينة العديدة والتذكريات العزيزة الفاسية قد حامت فوق احجار الرحى من ايام كساندرا في بيت اغاممنون الى ايام نساتنا في كاونبور.

وقفنا قليلا على التلة نرقب سمعة عز الاثر يمرقن في البعيد بسرعة كبيرة حيث ان ذيولها تجعلها مرئية في الشمس ثم استدرنا مع الهواء البارد الى قاعة الشيخ وجلسنا بين رجال العشيرة في نصف دائرة حول الموقد المليء بخشب السمسم والاشواك ونحن نرقب وجوههم في لهيب النار ونستمع الى الربابة وهي الحفيد ذي الوتر الواحد للكمان وهي تطرب اسماعنا بواحد من اربع نماذج من الالحان، لحن الحب والحرب والسعادة والاسى كما يقولون.

خلال ثورة العشرين كان الشيخ حبيب قد اوى ضابطا بريطانيا وحظي بشكل واضح على معلومات مفيدة. وقبل ان يجلب الغداء نهض بايجاء من السربة وطلب منا ان نصحبه الى غرفته. وهنا يمتد رف يتصل بمنصدة توالت فرأينا قدحين واربعة فناني: براندي، ويسكي، بسركندي وكريم دوف، حسب ما اتذكر، قبل مضيفنا (انا لا اود ان اظهر ها امام رجال عشيرتي لكني اعرف ان هذا ما اقتم معتادون

عليه) و استمر ان ينتحي جانبا ويرقبنا فأكدنا له على اية حال ان القدس الوطني هو ادنى بالنسبة للنساء ونتيجة تأثرنا الشديد بكرمه فقد عدنا الى القاعة لتأكل اعظم و اطيب غداء يمكن ان تتذكره لوقت طويل.

ذهبنا لنزور زوجة الشيخ بعد الغداء وكانت لدي خيرة اذ رأيت جمالا حقيقيا- ليس من ذلك النوع الذي يعتمد في سحره على مصادفة الضوء والتعبير بل جمالا مطلقا ومقنعا. كانت ملتفعة بالسواد بحيث لا يظهر منها سوى وجهها- وهو بيضوي مدبب بشكل لطيف حد الحسك وحواجب ذات انحناءة رقيقة ومنتظمة على عينيها. كانت الملامح تامة ولم تكن سوداء البشرة بل شاحبة وهي خجلى جدا اذ قلما كانت تتحدث وفي تلك الغرفة المعتمة وفي عباءتها السوداء وبطريقتها الهادئة وجمالها الملكي ربما يمكن ان تكون (بروسبرابن) وقد سجنت في عباءة الدجى. لقد كانت سجينة في الغرفة في واقع الحال الا انها لم تكن تبدو كذلك وهذا ما يعكس تناقضا لافتا، وقد افترشت الارض وعلقت حولها كل انواع الجواهر والمسابح. لقد كانت ارمنية اشتراها الشيخ حبيب في زمن المذابح وهي تبدو سعيدة في دار سيدها حيث جلبت وزوجت واعطيت كل ملذات الحياة وهناك العديد من الارمنيات بين عشائر شمال سوريا والعراق وهن موضع حسن معاملة الا انني اتذكر واحدة منهن بين عشائر شمر لم يفارقها حزنها خلال تلك السنوات حيث كانت تجلس باكية يوما بعد يوم في خيمة زوجها (لانها كانت متزوجة من رجل غني من بينهم) وحينما مكثنا هناك استجدت منا اخبارا عن قومها الذين لم تسمع عنهم اي شيء منذ الانفصال الاجباري الذي حل بها حين كانت طفلة على طريق نصيبين. كان ذلك اخر بقاء لنا مع الشيخ حبيب. فقد عدنا للرتاج، وأخذ رجاله تمتد خارج عتبتنا ليحرسنا خلال الليل وفي الصباح التالي ومخافة المطر ومع تعليقات السلطة في ضماننا فقد عدنا عبر قناة الخالص الى بغداد.

عيد الميلاد السرياني

لقد كانت "لجلة" صاحبة الدار و"إلياس" النجار سيحيين سريان من ديار بكر وكانوا ينتمون الى الطائفة التي ضمتها روما اليها من دون ان تغير العديد من عاداتهم وطقوسهم القديمة وقرب حلول اعياد الميلاد (الكرسمس) اخبرتني لجلة انهم كانوا يزمعون قراءة الانجيل في الباحة امام نار كبيرة عشية عيد الميلاد كما تفعل كل عائلة وما اذا كنت ارغب بالانضمام الى هذه الطقوس؟

كنت خارجة تلك المساء وارتديت ملابسي في وقت مبكر ووجدت الوالدين الصغيرين يوسف وجارلس ينتظران على عتبة غرفتي ومشاعرهما مقسمة بالتساوي بين روعة مظهري بالفستان السنّي وإثارة النار لقد اخذ كل واحد منهما بيدي الى باحة الدار المفتوحة حيث علقت مصابيح صغيرة بين الشرفة ورقية حمراء وخضراء وكومة من الشوك الجاف في زاوية. قالت لجلة وهي تسلمنا بعض الشموع "الصغار ينبغي ان يقرأوا لكن جارلس لا يعرف الا أ ب ج لذا فالامر سيعهد الى يوسف، اتمنى ان تجلب الكلمات المقدسة كل ما يتمناه قلبك، يا نور عيوني" لقد قبلتني ثم جاء بعدها طفلاها بخجل ورفعا خديهما الي كي اقبلهم بينما اندفع طربوش إلياس الى الوراء فابتسم الينا جميعا بوجهه المدور العجوز. ثم قرأ يوسف الذي يبلغ من العمر العاشرة في الانجيل وقف منتصبا بشمعة مضاءة في يده وكان وجهه مليئا بالجدية وبدا شخصا صغيرا مؤثرا تحت النجوم. لم تكن هناك ريح وقد ا

تألق لهيب الشموع بوضوح واستقرار . ان الجدران الاربعة قد اغلقت على كل شيء سوى القمم الساكنة لاشجار النخيل في البساتين المجاورة واغلقت البساب الامامية باحكام، لذكرى العديد من الاضطهادات دون شك. وجاءت القصة القديمة بلغة عربية طفولية ذات هيبة جديدة فانصتنا من دون حراك صامتين مثل هياكل مذابح حية ونحن نحمل الشموع المضاءة وعندما انتهى ذلك انحنى الياس وعلبة الكبريت بيده بينما نطق الاولاد بذراعي قالت نجلة "راقبوا كيف سيحترق" لان حظ البيت يعتمد عليه. لقد انطفأ عود الثقاب.

حاول الياس مرة اخرى فبدت شعلة مترددة قفزت نجلة بصب البراقين على النقطة المركزية فقفزت النار الى لهيب كبير فاضاءت وجوه الاطفال البيضوية وضفائر نجلة المحناة قد غطت بكوفية شدت عليهما. لقد اتحدت الاصوات الاربعة في نشيد قديم وكان لهيب النار الذي ارتفع بصورة مستقيمة في السماء الصافية حمل المرء بفكر بالعبادات الاولى لقابيل و ابراهيم و اسحق، بل و اقدم من ذلك حين تحولت الانسوك الى جمرات حمر فأخذت نجلة بيدي وجعلتني اقفز ثلاث مرات فوقها وتمنى امنية تماما كما كانت السماء البابليات يفعلن تمجيدا لاربابهن.

في الصباح التالي وفي الرابعة والنصف حينما لاحت المنارات عبر الماء في وهن الفجر كنا انا ومضيفتي في طريقنا الى القداس في الكنيسة السريانية. كان جسر الطوافات مهجورا اما الخفير الذي كان مسيحيا ايضا فقد اعطى نجلة اجابات سريعة بان اخبرها بأننا قد تأخرنا كانت نجلة ترتدي حذاءها ذي الكعب العالي الذي تحتفظ به لمثل هذه المناسبات الكبيرة على الرغم من انها لم تكن مريحة جدا.

لقد وصلنا الحي المسيحي عبر الصمت المبكر للشارع الجديد ووجدنا طرقه المظللة مليئة بحشود هادئة من الناس وهم في طريقهم الى كاتدرائيتهم الكلدانية والارمنية واللاتينية والسريانية والبعقوبية المخفية بين متاهات البيوت وهي حديثة وقبيحة حين ينظر اليها في ضوء النهار ، لكنها الان وحينما جئنا من الخارج المضاء قليلا وفتحنا الباب الثقيل على ما بدا لي فارسا من الالحوان وقد اضيء بشكل ذكي وكانت ازرار النساء البراقة المتقاطعة بلون الحرير واحتشدت أولات النسوة في ضوء المصابيح والشموع.

في وسط الكنيسة وقف الكاهن الذي اخفاه حشد الناس وسط بقية القس وكانوا مشتعلين جميعهم بالنار الاخرى يحيط بهم رجال ينشدون ترانيم سريعة بالسريانية- وهي اللغة التي تقول الاسطورة ان آدم قد انتحب فيها لموت هابيل- ، ان الحشد من الرجال في الخلف كانوا يهمهمون برتابة مصاحبة اخذت مكان جهاز الارغن.

حين دخلنا اشتعل الخشب الجاف وارتفعت ومضات اللهيب مثل النار في الهشيم عندما يهب عليها الهواء اما الكاهن الذي ارتدى رداءً حليبي اللون وذهبيا واحمر بصولجانه العاتي وقد حمل في ذراعه شخص المسيح الطفل على وسادة حمراء ومشى تعقبه حاشيته ببطء حول الكنيسة بينما ارتفعت الاتشودة العميقة والجادة والمؤثرة من كل الجوانب حيث كان يقف الرجال اما النساء فلم يقمن بالانشاد.

بعد ذلك استمر قداس شبيه بالقداس الكاثوليكي الروماني. فالدعاء والكلام المجهول وهمهمة الصلاة قد زمت بسعال كبير على، فالاحذية الذهبية للكاهن والجوارب الحمراء والمنديل الاحمر المطرز الذي يتدلى من رسغه الى الارض ولحيته الطويلة السمراء والشرائط الحريرية الملونة بلون الدم مع العلامات المعمولة عليها بالذهب ومساعدو الكاهن الذين حملوا مراوح من الريش الطويل مع بعض الاجراس عليها، كلها بدت ضبابية في حلمي لقد ايقظني النسو فوق الاجراس وفرقعة الاصداح و هز مساعدو الكاهن مراوحهم حتى ارقدت الاجراس مثل صندوق الزهر وهمهمة الازارات حينما نهضت النسوة ليركعن مثل موجة تتكسر بنعومة.

ثم اعطى الكاهن الذي انحنى على المذبح بيديه المنضمتين لمسة السلام الى عضو من الجمع المحتشد والذي مرر ها الى الاخر وهكذا من همس ليمس ومن صف لصف عبر الطول الكامل للكنيسة.

مباشرة بعد انتهاء القداس مضينا الى الطريق الضيقة في الخارج واكتشفنا ان جارلس الصغير قد فقد كان هناك بحث مروع لان الاحساس بالخطر متواتر في المسيحي الشرقي بحيث انه يدخل بطريقة مدشنة في لحظات حياته المهددة، لكن جارلس كان صامتا في تأملاته وراء عمود. فاستيقظ الى الحقائق الاعتيادية للحياة حين توقفنا عند باب الخباز لاختيار كعكة الميلاد.

رمضان

في شهر الصيام، رمضان، يجب رؤية بغداد عند الليل. اذ تدام خلال النهار وعندما يعلن مدفع الافطار عند الغروب اشارة الانطلاق فانها عندئذ تقفز فجأة الى الحياة. المرطمات من كل نوع تظهر كما لو بضربة ساحر. ويخرج صاحب المقهى، المحترم ويرحب بأصدقائه بينما يتدفع أولاده في

دشاديشهم الطويلة المخططة وقلنسواتهم خلف رؤوسهم داخلين وخارجين بين المناضد والمصاطب ويطرقعون بالداخ تشيكو سلوفاكية صغيرة من دون مقابض (أقداح الشاي) او يحملون اقداحا مملوءة من الشاي الفارسي. ومثل النجوم في الشـــــرق يظهر الوهج الهادئ هنا وهناك على الارض الى جانب احد المدخنين المتأملين. وشرع ساعة الحلوى يدفع عربـاتهم في زوايا الشـوارع. بينما كنس البقالون البرتقال والموز. والاكثر من كل هؤلاء غباباً في اثناء النهار يظهر بائعو السكائر وهم يناذون على تجارتهم من محلاتهم الصغيرة التي تشبه الصناديق.

الجزء الاول من المساء يمنح للطعام والخصوصيات البيتية. وبعد ذلك فمن العادة القيام بالزيارات حتى ساعات متأخرة حين ينتهي العشاء المتأخر او الفطور المبكر(٨) ان المقيمين البريطانيين الذين يأكلون في بيوتهم او يرقصون في النادي يرون القليل من هذا النشـاط الليلي، وفي الاعلب وحين يقودون سياراتهم فانهم يرافقون حشـد الناس في الشـوارع الجديد وقـد بـدوا اللعين اكثر من المعتاد في الاضوية وهم يتحركون في جماعات منتظمة بين صخب وصياح المارة.

لكن في الشوارع الجانبية حيث ليس هناك سـوى مصباح واحد هنا وهناك يضيء الزوايا الطبوغرية المظلمة والشبابيك الشبكية المنحوتة تلتقي مع بعضها، انها تماما كما كانت. اما الابواب المغلقة في الجدران الفارغة فهي مستعدة خلال هذا الشهر ان تفتح بنفس السهولة البسيطة التي انفتحت بها لهارون وزيره. وفي الطرقات المظلمة التي تمتع بالعباءات والاحاديث المدسومة فان عين التمييز قد ترى من دون شك نور مصباح مهما التفعت بالعباءة السـوداء وعتمة الليل، وقد ترقبها تختلي مع رفيقـاتها والشـخص الذي يحمل المصباح عبر العتمة الغامضة التي يحرسها عبد اسود.

لا اعرف ما اذا كان "ابن التاجر الغني" ما يزال يعبر العتبة بانداعه الخاص وما يحدث له في الداخل. ربما تسـلق الى الطابق العلوي الى غرفة هناك حيث يعقد رب البيت اجتماعا خاصا به وبقضي امسية ممتعة ونعمة. ان ذلك يخصنا، فنحن السيدات مهملات لحالنا لكن بشكل محترم من قبـل حـرس الباب من الرجال، فها نحن نمر عبر ظلال البـيت وعبـر الباحة الخارجية المضاءة بمصباح على الارض حـيث نداء صقور رب البيت واعينها مغطاة على مجاثمها في الباحـة الداخلية لغرفة الحريم، ان البيوت والوصفيات من دمشق ما زلن يسمحن للمرء باستمرار وهم الحكايات القـديمة، لكن بغداد اصبحت عادية. فالباحـة التي صبغـت بـالاخضر والاصفر والخطوط البيض تكليدا للطابـوق لم تعد مثيرة او جميلة، والخادمات اللاتي يقفن على قدمة السلم ليقـدن الى الطريق يلبسن الاسمال الاوربية الغربية.

في الغرفة الطويلة كراس ومقـاعد حـول جدرانها الثلاثة، صفت مقاربة من بعضها بطريقة سمجة مثل شارع توتنهام كورت وقد انتصبت طاولات كريهة الشكل هنا وهناك مع بعض الفرش من القطيفة والصور بل حتى ان السجاد زنديء للغاية اما ملابـس النسـاء فتتراوح من ملابـس الصوف والعباءات المحـلية السـود الى اخر تقـليعة ديكولتيه من القـاهرة. ولاجل الراحـة فالمرء ينسـاق وراء النظر الى الوجوه الجميلة جدا خصوصا وجوه النسـاء العجائز اللاتي يرجع غالبـيتهن الى اصل تركي واللاتي ما زلن يرتدين كوفيتين سوداويتين مربوطتين عن الجبـين والنهايات مدلاة على الاذنين مما يغطي نصف ضفائرهن المحـناة، ليهضن جميعا "السلام عليكم" "اهلا ومرحبا". جلسنا قـرب النهاية العليا من الغرفة وبـدءا من اللواتي جلسـن في المقـاعد المحترمة الحديثا بشـكل منفصل لكل منا مما جعل جـباهنا وصدورنا تتلامس.. ومضى الحديث.

قدمت لنا ابنة البيت ذات التسريحة الحـديثة والكعب العالي السكائر والحلويات وبعض التعليقات القليلة التي انسابت مثل وقع الحصى في فراغ السجادة التي جلسنا حولها قد تطورت بالتدريج الى حديث قيل وقال. للسيدات الكبـيرات بالسـن اوجه جذابة حقا مليئة بالصفاء والذكاء. ربما صفاء سـنين العزلة الهادئة، النساس الذين قرأوا قليلا ولاحـظوا اكثر مما فعلوا. اما مداهن فضيق، لكن لم يقتين شـيـء من دون ملاحظة. اما الشابات فهن لسن وسـيمات قليس في بـغداد جمال كالجمال السوري ما لم تكن هناك جدة تركـية او ما شابه. وبينهما كنت جالسة، تعجبت كيف تتحول تلك الوجوه النظرة الى نضوج عمري فتان. في اثناء ذلك اشارت جارتي بسيكارتها الى عجوز مهيبة كانت تغادر الغرفة فاخبرتني:

– انها الزوجة الاولى لزوجي...

سالتها: هل ترينها كثيرا؟!

– نلتقي في بيوت اصدقائنا، فنحن قريبات...

غامرت بالسؤال: لا بد ان الامر كان صعبا بالنسبة للزوجة الاولى في البداية؟

ضحكت السيدات القريبات بخبث. يبـدو انهن اعتقـدن ان الزوج النامـوذجي مثل سـوء الهضم وهو موضوع كانت المجموعة التالية تناقشـه. وكلا الامرين مما من ارادة الله ليس لهن قدرة عليه. فكرت ان هناك بعض الصحـة في ان يكون بمستطاع المرأة ان تنفع زوج احدى النساء الى حيز

المصير الحتم. ثم يتوقف الامر أن يكون مصدر قلق لانه لا بد للمرء فيه او يمكن ان يغيره. ربما هذا هو السبب وراء استكانة النساء وها هي احداهن تقول بشكل فلسفي (هكذا هي الحياة).

الحديث عن الازواج جعل الامر اكثر اثارة. فسمعنا كذا وكذا وكذا عن بعض المواقف والصعوبات البيتية. لقد اصبحت الاحاديث في هذا التجمع النسائي ممتعة لدرجة ان لعنة الف ليلة وليلة لم تعد تضاهي حديثنا. في ذلك الحين جيء بالشاي والمرطبات والبرتقال والمعجنات وكان كلامنا حاميا لدرجة ان الطعام كان يشكل مقاطعة. قالت جارتي بابتسامة ساخرة (وهكذا فحسبن رأت ان زوجها لم يعد يهتم بها اعتادت ان تضع الفلفل كل ليلة في اعين الطفل وكان صراخه يملأ البيت بحيث اصبح ازعاجا حتى في مخدع الزوجة الجديدة في الباحة التالية. وفي النهاية يصبح من المستحيل ان يأتي زوجها الى شقتها ليرى ما الامر. وحين يولد طفل اخر خلال ذلك الوقت فانها تصر على تسميته فلفل لكن ابا من رجال العائلة لا يعرف سبب ذلك حتى هذا اليوم).

تطلب احداهن الموسيقى الان. الفتاة التي تجلس على كعبيها في زاوية من الغرفة وسيكارة بحامل طويل في فمها تنظم في الحديث بين الفينة والاخرى ثم تنهض لتجلب العود. ويأخذ فتيات الدار العود قرب البيانو ويغنين اغاني عربية فرنسية متبادلة. ثم يأتي اناس اخرون حتى تمتلئ الغرفة بالكامل ثم تنهض لاجل المغادرة، فالساعة بلغت الحادية عشرة ولديها زيارات اخرى تقوم بها. فيستلقط حامل المصباح من نومه ويمشي امامنا في ظلال الشارع. وبعد منتصف الليل ببشرة الترك صديقاتي في تجوالهن واعود الى البيت وحيدة. انه امر غريب دائما يثيره الحلم ان نمشي في ضوء النجوم بين طرق ضيقة. لكن في رمضان يعد الامر مختلفا ومدهشا فالمدينة بأكملها تتحرك وتنهمس في طرقاتها المتاهية مثل خلية نحل متحشدة في الظلام وليس بوسع المرء ان يميز الوجوه. فالاشخاص المدممون ينسابون مثل الماء القاطس اذ قليلا ما يهتمون بوجوه اوربية وسطهم في تلك الساعة المتاخرة. ان وحدة الاسلام الاستثنائية قد تغلبت على، فهذه الحشود تتحرك عبر كل مدن الشرق، من المغرب الى افغانستان ومن تركيا الى الهند وجاوة، انهم يمتنون في الخارج خلال ليالي الصيام. وفي حياكتهم يبدون غير واعيين واقل وضوحا للعين من التاجر العربي الذي يجعل الخيالات تلك تمشي قبل اثني عشر قرنا، فكم نس اصبحه بقوة في طين هذا العالم! بحيث ان هؤلاء الاشخاص الذين يشبهون الخراف ما يزالون مطيعين ويتحركون هنا وهناك في الليل ويجعلون الانسان يفكر ويتعزب من مدى التواضع والدهشة لقوة الفكر وارادة الانسان.

FREYA STARK

BAGHDAD SKETCHES

JOHN MURRAY
ALBEMARLE STREET, LONDON, W.

عبدة الشيطان

حينما نظر النبي الى دمشق كان من المفروض ان ينتحي جانبا عن الواحة الجميلة ويقول ان احدا لا يمكنه ان يدخل الجنة مرتين. مع ذلك لو قدرت احدهم بشكل بارد الجنتين فان جدات دمشق ليست اجمل من الريف الانكليزي وقت الربيع. لكن المرء لا يقارنها بشكل بارد لان الصحراء تمنح الواحة قيمة فاتنة. هكذا الامر بالنسبة للماء في العراق، فجدول صغير رقراق قليلا ما نلاحظه في ديونشاير هو هنا نادر وثمين مثل يوم دون مطر في منطقة البحيرات، فقط لمجرد ان اعلب جداول العراق تكون من تراب سائل اكثر من الماء وكأنك تنظر الى انهر مليئة بالشاي مع الحليب. احب هذه الجداول الصغراء البطيئة. وهي حين تتململ في كسل فانها تزيل مدا بالكامل من منطقة لاخرى وهي كسولة وذات رعونة وقوية وقاسية كالالهة القديمة التي تمثلها من دون شك. ليس هناك عزلة اعظم من هذه الارض تأتي على يبوستها المتروكة طويلا والموسومة خطوة بخطوة بآثار الرمال الملونة للصحراء.

التلال النسائية يحترق فوق بعضها لهيب ابيض نلقي من مهد صحرائي من الكارنيت- هذه متعة حقا: هي جميلة كالجدول الصغير الذي يسقط وينساب عبر الغابات ثم عبر مساقط المياه اسفل معبد عبدة الشيطان شمال شرق الموصل في شيخ عدي.

هنا وعند نهاية الدار تنخفض جوانب التلال بالاعشاب المزهرة، ازاهير وردية صغيرة لنباتات شوكية واخرى اكبر منها بنفس اللون، وبحجم الكشتر في احيانا لكنها عند النهاية تكون مثل رأس الحربة، تخفي هذه الجانبين الضيقين للوادي عندما يتسلق المرء من منطقة عين سفينة والسفرة عبرها ممتعة بالسيارة، فالطريق من الموصل يصلها عبر ريف مزروع مفتوح تتقاطع معه وديان عميقة تجري فيها المياه احيانا ولا سبيل للخوض في الطين. حين نصل الى عين سفينة على ارية حال- وهي واحدة من الاماكن التي يفترض ان سفينة نوح قد رست عليها- يصبح الطريق حقا طريق بدّال. اذ يقارع جدارا من الحصى الرمادي امامه ثم يصعد عبر واد ضيق جدا حيث تزهر هذه الاعشاب الرقيقة كالحلم وسط عمل النهار. وهنا تكون التربة صخرية، ويكون العراق السهلي تحتنا بينما يجري الماء من حولنا: رقراقا في

بحيرات شفافة.

ان كل ذلك "بلد يزيدي" حيث تقع احدى مقابرهم الخاصة ذات الحافة البيضاء في محاذاة عين السفيلة. لقد رأينا رجالهم في السهول المنخفضة وبعمائم حمراء فوق رؤوسهم وصفائر سرحة تغطيها تعبيرا اشبه بالسحر للوجه الطويل والحنك المدبب. انهم شعب زراعي سالم تعرض للاضطهاد، فالاحترام المقدم للشيطان في اعلب البلدان غير رسمي، اليزيديون كفرة بالنسبة للمسلمين اذ انهم ليسوا من اهل الكتاب كاليهود او المسيحيين. ومن ناحية تاريخية فان سجلاتهم لا تذهب بعيدا في التاريخ. اذ ان الشيخ عدي نفسه قد عاش على سبيل الافتراض في وقت ما في القرن الثاني عشر وان اسلافه غامضون شبه اسطوريين. وتسجل التقاليد المحلية بانهم من بقايا الامويين وان عبادتهم للشيطان متأصلة في مبدأ لقديسهم الذي قال مرة: (لا تلعنوا احدا ولا حتى الشيطان). ان اختيارهم لكبير هم قد اعطاهم بعض الاساطير والخرافات الخاصة وغير المؤذية مثل كرههم للازرق وهو اللون المقدس وتجنبهم للخس والفجل وهما نباتان رفضا اخفاء الشيطان خلف اوراقهما حينما هرب من اثاء. في الواقع انهم ربما يعودون في معتقدهم الى عبادة ما قبل الاسلام او ما قبل المسيحية واننا كلما تسلقنا خطوة اثر خطوة في الطرق الصخرية للوادي نحو العزلة الاكبر نشعر كما لو اننا نزور السكان الاصليين في موطنهم الاخير الذي لا تطاله قدم.

السكان الاصليين في موطنهم الأخير الذي لا تطاله قدم.

في الواقع يمكن الوصول اليه، فالسيارة تذهب او تصل اليه في غضون عشرين دقيقة من مقبرة الشيخ عدي نفسه، ونحن نرى الحافات البيضاء من خلال الغابات الجرداء في اذار فوقنا في الوادي الجبلي الصغير. وهناك طابع شمالي جميل في مظهره الاجرد بعد الخضرة المغيرة الدائمة لاشجار النخيل في السهول، فالاغصان ملونة مثل الغابات في شهر اذار في انكلترا والاشجار متنوعة: التين والبلوط وانواع عديدة اخرى تنمو معا وهي جميعا تنمو بجوار الماء وتغطي الجداول وتقع احيانا باغصانها في الماء المليئة بالاوراق الخريفية البالية. اما الاعشاب والادغال فتتقارب من بعضها وحيث تتفتح الارض نراها وقد فرشت بزاهير صفراء وشقائق النعمان والزنابق.

انه واد صغير مسالم كالذي يمكن ان تجده في جبال الألب بنفس التجريد الصخري حوله. ومن الغريب ان تعتقد ان القرية الصغيرة هناك بزجيها الايضين هي موضع احترام في اماكن في اقصى الشمال تصل حد روسيا والى الغرب الى حلب حيثما وجد اليزيديون.

ربما كان اليزيديون عبدة الشمس في وقت ما وانهم ما يزالون يقودوا ثورا ابيض في احتفالهم الربيعي حول البرج الابيض لقديسهم، فشيخ الشمس هو احد الاسماء التي يذكرونها في صلاتهم اضافة الى اسم عيسى ومريم واسماء المسلمين المقدسة العديدة وهي جميعا اسماء حمايوية- من الحماية- في اوقات اقل تسامحا. هم لا ينكرون القديسين التقليديين ولا ينكرون وجود الله فوقهم لكنهم يعتقدون ان روح الشر قد اعطيت اليد الطولى في العالم في هذا الوقت، وهي نظرية لا بد ان يعترف المرء في انه يسمعيا على لسان اناس محترمين من كل مذهب في الوقت الحالي من دون حاجة للحج الى الشيخ عدي. يقدم عبدة الشيطان لمسة شرقية في مواقفهم المتحفظ عن طريق ادامة التصالح مع من يكون في السلطة فهم لم يقفوا ضد اعمال الظلام كما قام بذلك جماعة (the Horning post) لكنهم بنوا معبدا وقاموا ما بوسعهم للتصالح مع كل ما له قدرة على الشر: هم يبهلون الاكوهية التي يعرفون ويتقون بتسامحها. مهما كانت معتقداتهم فإن حو الشيخ عدي هو جو السلام، فأكواخه الصخرية الصغيرة تبدو دائمة تحت انهارها وهي تتصت الى صوت الجدول تحتها والى الطيور التي لا حصر لها وفي الحنويات الصخرية حيث يتعمد اليزيديون هناك يستدل الماء الذي ينام في هدوء وهو يعطيهم الشعور الأمن بالقداسة. وفيما وراء ذلك ومن خلال بوابة وتحت تعريشة

الكروم توجد هناك باحتان معبدتان صغيرتان ملحقتان بالمعبد، اما بوابة المعبد فهي من الاجر الجديد لكن الجدران قديمة وقد حفرت عليها العلامات- قيل لي- من قبل القس الكلدان اذ ان المعبد كان في وقت ما احدى كنائسهم. في تلك الحالة فان الاقمى السوداء المحفور بشكل بارز الى جانب عمود الباب ربما اضيفت فيما بعد وهي نفس نوع الاقمى التي يجدها المرء على قبضات الحناجر البرونزية القديمة في لورستان او في اللقط الاثرية لفترة ما قبل التاريخ من (نهاوند) ويبدو البزيدون هذا ومهما كان اصلهم الاول على توافق اكثر مع كردستان في الشرق مما مع الجنوب السامي وهم يتكلمون الكرمانجية فيما بينهم.

اما شيخ المكان فقد ارتدى الابيض مع عمامة اكبر واكثر تسطحا من تلك التي يرتديها المسلمون. وقد اخذنا الى المعبد اما شقيقه التي ارتدت البياض ايضا وقد عطى قمها ورأسها مثل الراهبات فقد كانت تنتظر تحت الكروم مع رجلين طويلين يطلق على كل منهم (القفير) وهما ادنى من الشيخ ويرتديان الاسود اما فوق الشيخ في الهرم الديني فيمتلك البير وعلى رأس البير والبزيديون جميعا هناك الامير الذي يعيش في بدري على الجانب الغربي من التلال وله طاووس (وهو رمزهم المقدس) وقد رسم بالحبر الاحمر على بطاقات الزيارة لديهم.

رأينا الكثير من معبدهم بالقدر الذي اردنا ان يروننا اياه فالسماء الذي يفترض انه ينبع هناك من زمزم في مكة لا يرى للزوار على الرغم من انه في الواقع قد شوهد من قبل عدة مسافرين لكن داخل معبد الشيطان وهو مكان مظلم بأرضية رطبة يقطر الزيت عليها من اطباق معدنية مربعة معلقة هنا وهناك مع قنيل طاف لصق في زاوية وبهذا الضوء الخافت رأينا مزوقات الاضرحة واستغربنا كما يقمل المرء عاليها بشأن الخيال الذي يمكن ان يتلبس الآثار الجراء بالقدة مثل طفل يحمل لحية من العصى والخرق فهم لا يحتاجون الى جمال خارجي يتلبس اشياءهم المقدسة. من الافضل دائما ان نخطو من فوق العتبة في الشرق وطلب مذا دليلنا ان لا نمشي عليها. بينما كنا نقوم بمثل هذا العمل الجداساتيكي بعناية لان العتبة كانت عالية وما ان خرجنا من الرتابة الكئيبة لبيت الشيطان حتى وقع علينا سلام الوادي الصغير مرة اخرى.

اما الشقيقة البيضاء وقسيرينا والعديد من البزيديين الصغار قد كانوا ينتظرون في جماعة عند بئر تحت الكروم. جلسنا هناك معهم نتحدث في الشمس ونسأل عن حساة القديسين ونوضح موقفنا الاجتماعي مقابل ذلك. ان لصديقتي زوجين في الوظيفة المدنية مما يدعو الى الاحترام، لكن يبدو الى قد فقهن بشكل غير متوقع بحقيقة ان ليس لدي زوج على الاطلاق.

وعندما قيلت هذه الظاهرة بعد بعض الشك على انها امر حقيقي فان الرجال المقدسين الثلاثة والاخت البيضاء قد احيوني كما لو ان المرء قد حظي بالسلام في هذا العالم وبكل أجر الآخرة. اذ قالت السيدة البيضاء وهي تنظر لي بأعين عطوفة هادئة هرمت في تلك التلال (لان انت راهبة مثلي، ان من الاحسن ان نترك العالم ونحن صغار).

اشعرني ذلك بالانجذوى لكن ما يوسع المرء ان يقول في مثل هذه المناسبات؟ عندما نهضنا كي نغادر قدموا لكل واحد منا سبحة. كانت جولة كهنوتية حول معبد الشيطان وكانت جولة بعيدة كبعد الدير في التلال الابطالية والذي يبجح بسلام الى حين ان يحل اسبوع الحجيج. اذ ان رجال الدين للشيخ عدي ينتظرون احتفالاتهم الربيعية والرقية وحين يأتي الحجاج عبر الطرق تقام المراسم القديمة. لقد شاهد (لايرد) الوادي في مثل هذه الاوقات حيث امتلأ المساء بالاضوية المتحركة بين الاشجار ولا بد ان ذلك كان منظرا خلابا. اما بالنسبة لنا فقد نزلنا الى العزلة الجبلية للمساء الربيعي المأهول فقط بصوت الماء واصوات الطيور.

نظرنا عبر مقر الوادي الى تلال بافيان الزرقاء البنفسجية ذات اليساتين والحقول الممتدة تحت صخورها وفوقها ضوء الشمس بشرق، من دون تحديد على كل معابد البشرية.

موت منذلي

افترض ان حقوق المياه، بعد الاحساس بالحب، قد سببت المشاكل اكثر من اي شيء اخر للانسان. فكلمة منافس او منافسة بالانكليزية (rival) مشتقة من اللاتينية (rivi) - بمعنى ضفة او هامش جدول- وان صحة هذا الاشتقاق قد تبرهنت على اية حال في العراق حيث ان زراعة الرز محرمة هذه السنة في عدة مناطق بسبب النزاعات حول مناطق الري والتي ادت الى الكثير من المشاكل.

وحيث لا توجد جداول والابار قليلة وغير كافية كما هو الحال على حدود نجد فيبدو ان ليس هناك حل سوى سلسلة الحروب والنزاعات الصغيرة اينما كان الجو جافا بشكل استثنائي، لكن قضية الابهار ببساطة تسببا فالانسان في اعلى النهر يأخذ ما يحلو له والانسان اسفل النهر يأخذ ما يستطيع وللاول مركز افضل في المساومة كما لاحظنا قبل وقت طويل في مصر والسودان. ومن يرغب في دراسة مفردة الـ (rival) وهي في طور التكوين ويرى كيف ان الكلمة ن

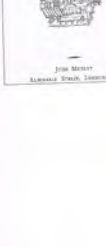

اللاتينية البريئة قد تحولت من ضفة نهر الى تعقيد دولي فلا بد له ان يذهب شرقا من بغداد الى مندلي او بدرة على الحدود الفارسية ويلاحظ بساتين النخيل وقد تحولت الى الصفرة نتيجة الاحساس بنين التوجيه للخطوط المستقيمة ليسعات الحدود السابقة. ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد، فامتلاك بستان او مقاطعة من قبل الشاه وزيادة الزراعة في الجانب البعيد من الحدود قد زاد الطين بله فقبل وقت طويل وحتى عندما كان للعراق امتدادات عظيمة للنهر لا بد وان كانت هناك صعوبات على الرغم من ان الامور كانت تعالج من قبل القوات التركية ورجال مندلي انفسهم ممن كانوا يسيرون الى بلاد فارس في كل ربيع ويدمرون محاصيل الحدو ويحرمونه فائدة الري واحتكاره تجهيز المياه على الجانب الخطأ من الحدود.

هناك شيء يعصر القلب في الموت البطيء للاشياء الحية التي كلفت الكثير من الوقت والجهد والعديد من سنوات الانسان. تقع مندلي على حافة صحراء مثل مدينة بحرية على البحر، فالتلال ورائها حادة وتشكل خطا ساحليا تغطية الثلوج في اوائل الربيع، والفراغات المستوية الصفراء تمتد في خليج واسع حتى حافة بساتينها التي تمتد الى اميال على حافات المياه ايضا وجدت، وفيما بينها هناك اراضي ترابية ضيقة، اما اسوأها فهي من الاكواخ الخشبية وهناك كنيس لليهود وجامع، حيث تشرب وتموت تحولات الحياة سنة بعد اخرى مع المحاصيل المتلاشية.

اما بساتين البرتقال فقد قطعت خلال السنتين الاخيرتين، بينما النخيل هو الافضل في العراق حيث كل واحدة منها يدفع مقابلها اربعة عادات كضرائب ثم تقلصت الى عادة واحدة اذ ان مصير مندلي قد نوقش حتى في البرلمان، وليس هناك صناعة باستثناء خياطة بعض الاحذية الفارسية وحياكة بعض الملابس الوردية والصفراء القليلة. وان المقدار القليل من التجارة الفارسية التي تدور بدوران وادي النهر على المسطحات المحملة حول جبل حمرين حيث هناك مركزي شرطة ينظران الى بعضهما عبر الفراغ الهواني، فالتجارة الفارسية قد قتلت قبل ثلاثة اشهر بسبب النقص في الاقتصاديات الفارسية.

ربما يكون هذا شرطا طبيعيا اذ ان المرء قلما يرى ما يحدث تحت انفه والا فان الحياة لن تسير كما يجب فالامنا ومسراتنا تنتسب الى الماضي المباشر وليس الى الحاضر، وحيث اننا فقط ندركها عندما تصبح حتمية فقط فاننا نتحملها بشكل اسهل، ومثل الامبراطورية الرومانية المتأخرة فان اهالي مندلي رغم علمهم نظريا انهم محكومون بالدمار او النفي لكنهم ما زالوا يجلسون تحت الشمس على مقاعد خشبية طويلة في مقاهيهم، يمتعون انفسهم لكننا نحن الذين نزلنا بين ظهرانيهم مؤخرا نرى بوضوح المصير المحتوم الممتد على طول بساتينهم الحية.

نرى بشكل مماثل في ذهاننا المدن الميتة للصحراء التي كانت في وقت ما واحات خضر بساتينها. وهي ايضا بسبب الانتظار البطيء للانهيار او المسير العشوائي للجيوش وانحراف او تهدم الضفاف قد انت على نهايتها وهي مجرد جداول واهنة تحت الرمل يمكن ان يراها الطيار من السماء فقط. ان علم الجغرافية قد قفز الى ناظرنا فجأة وهو يدمر من دون رحمة او بعد في حياة الناس. قبل خمس واربعين سنة قتل اخر اسد في اراضي بلدروز، وفي ذلك الحين كان هناك مستنقع يمتد من هناك الى مندلي وكان المرء يعبر بالـ"بلم"(٩) ثم وضع ناظم على القناة شمالها وجف الماء واختفت الاسود بالمرة مع نمو القصب واصبحت ارض المستنقع منقسمة الى زراعية وصحراوية. يتجول مهندسو الري بالانهار البسيطة ويرمون بأنصارهم صوب البعيد وهم قلما يرون عظمة الثورات التي ستعقبهم. لكن بامكاني ان اتصور ان ليس هناك متعة اكثر صلابة من حفر ممر مائي

في ارض عطشى. ربما في السنوات التالية وكموظفة متقاعدة قد انظر الى امتدادات الارض المحروقة لمحصول الذرة في الشمس وقد جاء نتيجة عملنا في الينابيع الذي بعثت فيه الحياة. ان هذا النوع من المتعة المجردة المفيدة مفتوح للجديد من الناس في العراق وهو قد يعني الكثير لمن هم اعضاء في الحكومة بدرجات مختلفة. ولكن هذا كما في اي مكان فان الزراعة والري تؤخذان على محمل الافتراض وقليلا ما يتم التحمس لهما كفضائل محلية وليس هناك اي سعادة تأتي من ورائهما والتي يتم احتكارها بالاشياء المدمرة مثل الجيوش.

ربما يعود ذلك لتوجه خاطئ في ديننا، الاسلامي او المسيحي، والذي نسي قداسة الفصول في منتوجها وتوقف عن تمجيد الولادة والنمو الغامض للاشياء بطقوس مناسبة. لذا اصبحنا ننظر الى القيم البشرية فقط وتركنا الامر الى العالم والفلاح كي ينظر الى العالم من خلال منظور، وان لم يكن الامر كذلك فان نقيب مندلي في عباءته الكشمير النظيفة وبطانتها الحمراء والسامة الخضراء حول رأسه لن يراقب بحزن عاداته المتضائلة، فاهله من الكرد والفرس والتركمان والعرب لم يعد لديهم ما يشعلهم ولذا فهم لم يعودوا يقبلون لتجيله عندما يمر في الشوارع، وملابس النساء التي تومض كالامل من تحت العباءات السوداء وملابس الاطفال بطاقيات الرؤوس وهي تتحرك تحت شمس الربيع في العيد عند نهاية رمضان سوف لن يكون لها هذه السمة من الحيوية الفعالة لشيء ما اساسي يوشك ان يموت، كما ان شقيق النقيب الذي هو نائب في المجلس سوف لن يقف وسط الجمهور المتثائب حين يتحدث عن نهره المتضائل وسائقيه المحتضرة.

لو كان شورش ما زال مقدساً في اعين الناس لاثيرت جمجمة كبيرة حول القضية كما هي عليه الان عندما قام الفرس وبأسلوب غريزي ومن دون وعي بزقامة قلعة طينية صغيرة على الجانب الخطأ من الحدود. ان موت هذه الاشجار التي تنتج اكثر مما يتوقع الاقتصادي والسياسي هي ذات اهمية اكبر في عالمها الدولي من اغتيال ستة سياسيين على الاقل.

ضريح الكاظمين

زرت مدينة الكاظمين المقدسة مع رجل شرطة يراقب كوننا لا نكتس بأهمال العتبة المقدسة بحاشية ملابسنا بينما وقف جميع من الشيعة من اصل فارسي حولنا يراقبون ذلك. لقد كانت طريقة غير مقنعة للقيام بذلك وقد اخبرت صديقي "نوري" انني اريد ان اذهب يوما ما بطريقة اقل وضوحا. انه لا يسمح للمسيحيين ان يدخلوا بنائنا لكني سأذهب خلال صيام شهر رمضان في المساء اذ يكون الضريح مفتوحا الى ساعة متأخرة من الليل والاضاءة خافتة مما يسهل الامور. كان لنوري اصدقاء من الشيعة في المدينة المقدسة يراعيون في اخذي وسأذهب مع اثنين من شقيقاته اليهم حيث سأخذ القرام من بغداد بمعية الحجاج الاخرين.

وبينما حل الغروب على طول النهر جاء نوري لي بحزمة ملابس سوداء وحجاب من الشيفون الصغير يدعى بوشي كي اصنعه فوق رأسي وعباءة مثنية من الجبين والاكتاف بحيث تسمح لفتحات الاكمام ان تكون مثل الاجنحة ثم تكون جميعها مثل العطاء. وفي احدى طرقات النهر العديدة وضعت هذه الملابس فوقي واختفيت وسط الحشد مثل اي امرأة بسعادية يرغب ان يراها المرء. اخذ الامر مني جهدا كي اجعل عيني بخط اسود من الكحل بحيث ينسلني لي ان ارسي البوشي الى الخلف حين لا يكون هناك رجال ثم امسك العباءة بسفي وانظر ما حولي. حين وصلنا الى اضواء ومرور جسر مود انزلت البوشي ووقفت بينما كان نوري يستأجر تاكسي ونظرت حولي الى العالم الشقي الذي وضعت نفسي فيه بإثارة غريبة في ان اصبح لا احد. كان الاصدقاء الانكليز الذين يمضون جبنة وذهابا لاجل عشائهم ينظرون إلي مبتسرة.

عبرت نحو السيارة بخطوات مترددة اذ لم يكن بمقدوري ان ارى ما كنت اخطو عليه بينما كان رجل شرطة يؤشر بيده وقد ضاق ذرعا بالتقدم غير الاكيد للنساء المرعبيات الثلاثي التعاطف مع صعوبتهن الان.

مشينا عبر شوارع ضيقة واسواق مظلمة وحلنا الى باب صغيرة في جدار فارغ وطرقنا الباب فأدخلنا مثل متأمرين الى حيث تسكن الشقيقتان، كن مستعدات بكامل حجابهن وفي الانتظار. وفي الحال مضينا مع النصائح والامنيات بالسلامة ومشت فتاة صغيرة تحمل مصباحا امامنا نحو القرام.

انا لم ار مثل هذه الحرية في النهار. في الليل كانت تبدو مثل ماكنة هائلة قد اكلها الصدأ بسبب الطوفان. كانت تجرها الخيول على سكة وكان فيها عربتان واحدة للرجال والاخرى للنساء، والاخيرة، حسن جلسنا فيها كانت مليئة بالزنجيات السمينات يتدلى من ملابسهن الفضفاضة ومن دون توقع اطفالهن الصغار وفي الضوء الخافت يوسعك ان ترى العيون ذات الدوائر البيضاء واجزاء من وجنات والوف سود اذ انهن قد غطين وجوههن.

مشينا على غير هدى بين الباحات والبيوت وكانت هناك شمعة في مصباح قدر تتأرجح من السقف وهي تلقي بزيتها في كل اتجاه. وجاء جنّي البطاقات الذي التفع رأسه بغطاء كما لو يعاني من ألم الاسنان. ومن طوائنا السوداء اخرجنا قطع البطاقات التي اخذها ليقرأها في وسط العربة واحدة بعد الاخرى منتظرا ضوء الشمعة ليتركز عليها.

الان قد غادرنا ضواحي الكرخ، اي مدينة المنصور القديمة، واصبحنا تحت ليل بهيم تضيئه النجوم مع اشجار النخيل تتحرك امام سماء الليل الزرقاء. وفجأة كما لو كنا نقف لوحدنا في الفراغ ظهرت قمم اربعة منارات للمدينة المقدسة تضيئها انوار في اعلاها تتقي مضاءة طوال الليل في رمضان. وكان هناك صف من الاضوية الخضراء والحمراء والصفراء الصغيرة في الاسفل وقد اضاءت بمربع الضريح: بينما القبتان الذهبيتان كانتا تشعان بريقا هنا وهناك على الرغم من انهما قد لا تبدوان للناظر في عتمة الليل. كانت للساء العميقة خلف، والبناء نصف المضاء والعربة المليئة بالحجيج في سيومهم المعتم، زاوية غريبة. فالظلمة المحيطة قد اخفت الفياخة التي تقارب الجمال في الشرق. توقفنا عند موقف ونزلنا في درجات تشبه درجات السلم الخاص بباب الترام ومع صعوبة في متابعة الاتجاهات وصلنا اخيرا الى بيت اصدقائنا الشيعة.

هذا خطونا نحو القرن العشرين. قرب البيت كان مهندس سافر الى مصر: وشقيقه الاصغر الذي ارتدى البيرية والسروال الفضفاض يدرس القانون في الاسكندرية، بينما زوجته التي جاءت معنا ايضا فقد كانت بقصة شعر قصيرة مع غطاء رأس فرنسي تحت حجابها. لم يكن لديهم اية شبهات طالما اغلقت فمي لان لكنتي قد تفضحني. كانوا قد اخذوا بعض المسيحيين الى الضريح من قبل لكنهم لم يأخذوا الاوربيين على الرغم من ان بعض النسوة الاوربيات كن قد دخلن الى الداخل من وقت لاخر.

احتسينا القهوة واكلنا الحلويات ومضينا في الحال مع خادمة ومصباح امامنا كي ينير الطريق ويجنبنا المطبات، عندئذ نكون قد غادرنا القرن العشرين مرة اخرى وكنا نتحرك تحت شرفات بيوت معلقة في الاسواق المظلمة. وبمر احيانا بعض الاشخاص امام الدكاكين المغلقة بمصد وفي ايديهم مسابح ويرمقوننا بنظرة عابرة. فانتصبت امامنا البوابة بظلها وعتبتها العالية حيث كانت العديد من الاوجه الغبورة قد مدت تقدمنا اليها، والبوابة هي مدخل الى عالم قديم لم يتغير بشكل لا يصدق. عبرنا البوابة تحت سلسلة يمسها المرء اذ انها تجلب البركة ودخلنا الى باحة كبيرة اعة فقد للضريح(١٠) وقد بدت واسعة بشكل كبير وقد تعلقت كوكبة من النجوم في عمق السماء المظلمة. وحول الجوانب الثلاثة هناك رواق ذو اعمدة وقد زين بالأجر المورد. اما الاضوية في الاعلى والضوء من الساعة فقد كان يلقي بشفق جميل تمتلىء فيه العديد من الاشكال الملتفة بالعباءات. هناك مجموعة رجال في زاوية يحملون صحيفة.

تشكل المدن المقدسة والجوامع بشكل خاص اماكنا عظيمة لانارة الفتن بينما جلست مجاميع سوداء من النسوة على الرصيف. المكان عريض لدرجة انه يسع كل الاعداد الماشية هناك من دون اي ازدحام. وبطريقة سخيفة فكرت بساحة القديس مارك في مساء الصيف.

وصلنا الان الى رواق مذهب قائم على اعمدة خشبية صغيرة وهو الباب الخارجي للضريح نفسه. وكان هناك رجل جائم اخذ احذيتنا واضافها الى الاحذية الاخرى في صفوف(١١). كنت قد تقدمت لادخل تحت ستارة ثقيلة عندما دعاني سيد بعمامة خضراء، باعتباره احد احفاد النبي فمن ان ارجع حيث مزني بعنف. تمسكت احدى رفيقاتي بعباءتي بيد مرتجفة. على اية حال كان السيد يدعوا فقط لانه كان يعرف مضيفنا ويرغب ان يتشرف بنا. لقد اخبرنا: انتم من اهل البيت وسأقوم بنفسي بتطوافكم(١٢). لذا وقفنا على العتبة امام الستارة الثقيلة ودعا لنا بالبركات- بركات علي ومحمد والامامين من عائلتهما- بصوت جديل منشدا لنا في جو المساء هذا، حين نهيأنا للدخول الى الضريح، اذ اني لم اسمع شيئا موثرا وعاطفيا كهذا من قبل. وقال (الله اكبر) ثم طلب منا الدخول.

واجهتنا قاعة ذات سقف معمول بالمرايا والزجاج يلمع بشكل خافت والمرايا جعلت العمل الخشبي حول الجوانب يبدو سيئا ورخيصا ثم جئنا الى ستارة اخرى بين البوابات المزدوجة الطويلة من الفضة المضروبة ذات النماذج النحيفة لذيل العباءات المقطعة في قطع فضية ومثبتة عبر التصميم هنا وهناك. ثم خطونا الى الصحن الداخلي للضريح لقد كانت غرفة عالية بسمرين من الفضة في الزوايا اليمنى لكل منهما. وكانت هناك العديد من الثريات الزجاجية تدلت من السقف. وزينت الجدران بديكورات الارابسك بألوان على ارضية سوداء. اما على الارض فقد فرشت بالسجاد الرخيص النوعية. كان كل ذلك مجرد مدخل للقبر.

والقبر يقف في وسط صندوقه الثلاثي الذي تلمع فضته الخارجية بشكل دائم نتيجة لمس الايادي ونساء المؤمنين الذين يمرون في مراسيم لا حصر لها. اما قضبان الفضة المضروبة والمعمولة على هيئة اشكال فهي تشبه قضبان

الشبابيك الموظرة في الاقواس المدببة بحيث ان القبر يبدو كما لو كان فيه خمسة شبابيك على الجانب الطويل وثلاثة على الجانب القصير . لا بد ان ارتفاعه كان عشرة اقدام. والقمة مزينة بأشكال اقفية وذلك لتعميم الاشكال الرباعية الحادة ويعلو ذلك الرايات الخضر الصغيرة لآل بيت علي.

لو وقفت امام الشباك هذا ووجهك امام القضبان القصيبة ترى بشكل معتم ومن خلال شباك اخر من الحديد ومن خلال صندوق من زجاج، الكفنين الخشبيين المنقوشين للامامين. ولاحل القيام بذلك يأتي الناس من افغانستان والهند والمناطق النائية في بلاد فارس.

كان هناك اناس ملتحون وهناك وجوه منخولية من دون شعر والفرس نحاف القامة وشيمة العراق ذو الوجوه السطحة. ان هؤلاء الحجيج الجالسون في سهمة تامة امام قبر الامام الشمع ع الكبيرة على الارض وهم متلفعون بعمائم ثقيلة يقرأون الايات المقدسة ويتأرجحون بشكل هادئ. اما النساء فكن في زاوية واحدة يدمدمن بملسنين الاسود وقد افترشن الارض. لقد تبعت السيد وضغطت بيدي على القضبان وتحركت ببطء من اليمين الى الشمال حول القبر. كانت امرأة الى جانبي تنتحب بشكل يائس وتقبل الفضة اللماعة وتضغط بيديها على كل عقدة فضية يمكن ان تصلها بداها. ان الآلاف بل ملايين من هذه الايدي تمر على السطح غير المباني وهي تمسده بآمالها وصلواتها وايمان البشرية الورعة.

في تلك الغرفة كان الجو مكهربا بالعاطفة. ولا يمكن لاحد ان يقف هناك من دون ان يشعر بالعاطفة وبالكمال المطلق وبالقوة القديمة وراء هذا الصلاة تلك وخلف تلك الاشكال التي تقف بأكف مدت للدعاء ووجوه تاهت في نشوتها. فكرت لو ان غريبا قد اكتشف لما وصل الى الباب الخارجي ومن ثم هذا السوق ثم حشد رجال الشرطة. صديقتي الصغيرة امامي كانت ما تزال مرتجفة وهي تسرع في طوافها بسرعة غير معهودة. لم يكن ذلك جو الشرق المتأثر بالغرب بل انه الشرق القديم غير المتطابق مع كل ما جلبناه او فعلناه: لقد كانوا هم او نحن وكان لهم حق بأعتبالنا لو وجدونا هنا حيث يسود القانون القديم.

كنا قد وصلنا الطرف القصير للقبر وهو الابعد من الباب. وقرأ السيد مرة اخرى صلاة بينما كنا نقف واكفنا ممدودة للدعاء: مرة اخرى جمال الكلام وعاطفة العبادة حولتا جملتي انسى اني غريبة، هناك لكنة واحدة للايمان قبل كل شيء.

استدرنا ببطء الى الطرف الرابع وبدلا من المشبكات الخمسة كان الوسط قد برز بما يبدو انه مدخل الضريح وصنع جميعه من الفضة لكن بشكل مربع بدلا من المدببات للبكور الاخر. لم يتسن لي ان اسأل ان كنت خائفة من الكلام، لحسن الحظ ولكوننا نساء فلم يكن من مسؤوليتنا ان نشكر السيد فقد فعل مضيفنا حين انسللنا الى الباحة نحو (الكشوان) الذي ضرب المسؤول عن المرافق الصحية لانه اعطانا احذيتنا من دون كلمة ايضاح على الرغم من انه لم يكن بوسعه ان يرى شيئا سوى ظله الذي لا شكل له والجوارب القطنية التي تركنا نتهدل على كاحلي لاجعلها تبدو مثل امراة بغدادية اصيلة.

وحين وقفنا هناك جاء نحونا ساقي ماء وهو يرتدي وزرة قصيرة الى الفخذين وجرته المدببة معلقة برباط عسر كتفيه وصحن من النحاس في يده (ماء للطريق، الماء الذي حرم منه سيدنا الحسين في يوم كربلاء). دفعت اربعة عانات مثل البقية واستعربت ما اذا كنت ارتكبت دنسا بأن سكبت الماء بعيدا لان الاناء العام كان يستخدم من قبل العديد من المرضى والمشوهين مما لا يشجع ان تشرب منه. لم يبدر منه اي كلام. خرجنا من المكان المقدس عبر العتبة العالية تحت المنارة الى السوق المظلم واخذنا الزوار الذي كان يطقطق مثل القطار عبر الطريق الذي تضيئه النجوم: وكان هذا اخر مشهد للقبة الذهبية حيث كان بريق المنارات الاربعة واضواؤها واضحا امام السماء وسط الليل.

سامراء

تشكل الشرطة احد الكيانات الممتعة بالنسبة للرجال في العراق. فهم يحصلون على ٢-٣ باون في الشهر اضافة الى زيهم العسكري وجزمهم وسلاحهم وغدائهم. وهم يبدون اليفين دائما وفرحين. والشرطة ملجأ المسافر في كل مشكلة من الطواف حتى الاحتجاز اذ يؤمنون له كل انواع الضرورات من الطوابع البريدية الى مأوى للمنام في الليل. المسافر الوحيد من دون شرطة بعد الغروب ينظر اليه بقلق ويراعى بتسامح ومودة يبقيها الشرق عادة للمجانين او المغفلين. بدانا رحلتنا بسلام الى سامراء لان الطريق الان آمن كالبيوت مهما كان ذلك يعني. لكن حين قررنا ان نذهب الى تكريت في الصباح التالي لنرى مسقط رأس صلاح الدين قفز رجل شرطة بيننا وادار حديثنا وديا لبقية اليوم مما جلب لذاهني فكرة كتابة مديح للشرطة بشكل عام. فنحن على اية حال قد سافرنا من دون مصاحبته واخذنا طريق الشمال من بغداد عبر الكاظمين ولكوننا ثلاث نساء فلم يكن يعيقنا القلق بشأن ما تسببه الشرطة من قسوة لحياة الناس. فقد وجدنا كل فرد ونيا وتوقفنا عند كل مقهى كي نلتقط صورا ونتحدث

للرعاة المسافرين الذين كانوا يأخذون قسطا من الراحة الى جانب الاسوار الواطئة في الظليلة. كانوا يضعون مسحة رعوية الى المنظر الذي لم يقدم شيئا في طريق المراعي والعشب عبر الامتدادات المسطحة للأرض الطينية. لكنهم كانوا يأتون من البعيد- سيرا لمدة سبعة أيام مع اغنامهم الى سوق بغداد- وكانت هناك مجموعة من هؤلاء الرجال ممن اخبرونا ان نرى تكريت وان نسأل هناك عن احفاد المسيحي عبد السطيح الذي نط من اعلى المنحدر الى نهر دجلة بفرسه وغرق كي لا يتحول الى الاسلام.

يكن العربي احتراما للكلمة المكتوبة التي لا بد وان جاءت من عصور السحر، والرعاة سحبوا دفترا احمر من ثيابهم الممزقة وطلبوا منا ان نكتب اسماءنا كتذكرى لهذا اللقاء. تركناهم وبعد امتداد طبيعي اخر فيه بعض الاكواخ المتكررة رأينا رجالا من شمر يسيرون من الشمال الى جانب جمالهم وفوق سنامها رأينا النساء وهن ينظرن بحجولهن الفضية وحلقات الانف الزرقاء. نحن نعرف شمر وعدنا ان نقوم بزيارة شيخهم قرب بلد في طريق عودتنا ونزور القرية العائرة وسط جدار من محصول الذرة. ثم جئنا الى امتداد فارغ اخر الى حافة النهر والعبارة.

هنا جيء بالقطعان في شحنور مسطح. وتجمع في مجموعات عند حافة طينية واطئة مثل عدائد العنب، وتحتها رأينا حافات منطقة بلد ناتئة نحو الجدول وهي قلما تلحظ بسبب الاكواخ الطينية. وفوق ذلك ينساب النهر الذي لا يقطن الى جواره احد في انحناءة واسعة نحو الجزر الفارغة، وترى دوامات مائية رمادية وراء الفيضان وهي في محورها مثل النظام الشمسي، كما ترى الجانب المسطحة لما قبل التاريخ وقد احتشدت بانحراف مطأطأة الرؤوس وهي تتقدم ببطء تدفعها المجاديف. فوق كل هذا المشهد هناك الامتداد والمتعة والسلام الفريد وفتنة الصحراء التي تصنع الوحدة والزمن.

ان احد لحظات سعادتي تكمن في الجلوس على ضفة النهر بانتظار العبارة. ان ذلك اكثر متعة من حفلات الغداء الذي تدمرها حقيقة، ان على المرء ان يفكر بأكثر من شيء في الحال. لقد انفق حمارانا معي او سيتفقا لو عرفا ما تعنيه حفلات الغداء. لقد وقف الحماران ورأس احدهما في ذيل الاخر ومارسا الامن الجماعي بطرد الذباب من انف بعضهما في رقابية صامتة وسعيدة من دون تعب الحديث. كما وقفت امرأة من بلد في الانتظار ايضا وقد التفعت بالسواد وذات شفاه موسمة. لقد اخذت قطع مقشرة من البرتقال الذي كنا نأكله وغلفتها بعناية في كمها الطويل لابنها المريض. انحنت للجدول تلتقط القشور التي كنا نرميها وهي مزمعة ان تأخذنا للبيت حيث قالت (الرائحة طيبة) ليس هناك الكثير من الغنى في بلد. وقف الشحنور الى جانبنا مثل قارب طويل هرعت الاغنام بينما صحنت سيارتنا والحمير والمرأة والفلاحين ونحن حولها بينما طفق رجال بلد يسحب المقدمة وكانوا يغنون حينما يجذفون: (سقينا اعدانا النهر...سقينا اعدانا النهر) ويأتي التأكيد على الكلمة الاخيرة.

وهنا اعطى صاحب الشحنور مقطعا جديدا: (والطلقة التركية تهرب بسرعة) مع ستة مقاطع نكون قد وصلنا الى الضفة المقابلة. عندئذ تنساب الحراف المنتظرة بصوفها نحونا ويصدر رعاتها اصواتا غريبة تطلب منها الانتظار حتى ننزل وفي اقل من نصف ساعة نكون في شرق دجلة ونكون سامراء بقبتها الذهبية على مرمى نظرنا.

سامراء هي المدينة الاكثر عربية والاقل فارسية من المدن المقدسة الاربعة وهي محاطة بجدران على شكل حزام من

الاثار بينما تكون الواحة في الوسط. كان لسامراء فترة ازدهار قصيرة واحدة لمدة اقل من خمسين عاما. فالمآذن خلفاء بنوا او جملوا القصور المتعاقبة. وتعد الزخارف الجصية الفريدة والجميلة التي زينوا بها غرفهم موضع تنقيب تدريجي بغية تزيين المتحف العربي الجديد في بغداد. ليس هناك اوربي في المدينة يقل ثلاثة الاثريون عراقيين يعملون لحسابهم بحماسة متساوية. لقد وجدناهم زنجين، فأي لعبة اكثر سحرا من اعطائك مدينة اثارية يبلغ طولها ٢٨ ميلا لتلعب بها ما تشاء بالمال القليل الذي لديك؟

لقد استخرجوا قاعدة البرج المخروطي الشكل وعمالهم يزحفون مثل الجرافات على خطوط طويلة يعيدون الحياة الى السلم اللولبي نحو القمة. وقد اسندوا الجدران الخارجية للجامع الكبير الى جانب ذلك واخذوا نتمشى عبر اخر القصور مع زخارفه الجصية التي ما تزال في موقعها حول متاهة الغرف. هنا توقفنا كي نتأمل العمال حول الموقع القادم وبطريقة ودية تجعل المرء يفكر بنقاش اوديسا مع طاقمه. ومع تلويح بالمجارف تم اختيار الموقع والجزء العمال رقعة صغيرة من اجلنا حسين وقفنا في الغرف المستكشفة في الاسفل- وارتفعت مجارفهم ومعاولهم وانخفضت مثل رماح امام خط السماء- لقد لوحوا لنا اخر تلويحة والصرفوا الى المواقع الجديد بينما الاولاد المسؤولون عن الماء التقطوا الجرار الصفر الثقيلة التي تزن بالماء واتبعوهم. اما مضيفنا الرقيق المتقشف ذو الشعر الاشيب المرتد من جبينه وبملابسه الاوربية فقد قادنا وبخجل الى باحة فيها اشجار رمان وعرف واطئة بنيت حولها وذلك لشرب الشاي بينما قام صاحبيه بهذا العمل. كان هناك شيء مريح بشأن علم الاثار فليس هناك تصادم نظريات ولا نقد فظيع للناس الذين جربتهم الوحيدة هي ان تفكير هم مختلف حول بعض الامور التي كانت قد حدثت في الزمان البعيد.

فكل ما يفعله المرء في سامراء هو ان يذهب ويحفر ويستخرج اشياء من الارض. ولعل السير هنري لايارد قد شعر انه في بيته. كذلك نحن الاشياء واحدا اثر عجلنا فقط ففي وقت ما خلال العصور الوسطى كان الجزء الاسفل من البرج اللولبي والجامع الكبير بؤمن الطابوق لبناء الجدار لما يسمى بسامراء الجديدة. فقد كان الناس يذهبون ويأخذون ما تداله بذهبهم وهم بذلك يمحون اسس نصبهم القديمة بالطريقة الشرقية المعروفة حتى اصبح الهيكل العلوي مهددا بالسقوط فوق رؤوسهم. والان، كما يقول الاثاريون، يجب اعادة الطابوق الى حيثما كان موجودا وهدم جدار سامراء ازاء رغبة سكانه.

ان السكان ثابتون في مكانهم اذ ان حكومة العراق تفاخر بنفسها لحمالة الامن التي تجعل جميع الجدران لا فائدة منها. اما ان نقول ان الجدار قد ينفع فيما بعد فهي مثل تقديم النصيحة لعم عني حول استثماراته- فذلك يعني انه قد لا يعيش ابدا لذا فان سكان سامراء يندبون سرا ولا يقولون شيئا فالطابوق هو طابوق اعتيادي مصنوع- بالنسبة لاعيننا غير المدربة- مثل الطابوق الذي نصنعه اليوم. وسامراء بدون جدرانها تبدو مكانا حقيرا اذا فلو صادف ان وقعت هذه الصفحة تحت نظر من له السلطة للقيام بذلك فاني أمل ان لا يمد يده لينقذ جدار سامراء ويسمح باسترداد الهياكل العباسية بمواد اقل تدرج زمني.

اما بالنسبة لي ولكوني غير اثارية فاني احب الاثار كأماكن اجلس حولها وافكر فيها وبوسع المرء عادة ان يفعل ذلك بشكل افضل قبل ان يبادر بحفر الارض، ان حدا ادنى معين بعد ضروريا تماما لكن حسين يؤول الامر الى الكاتالوجات والعلامات، فان السحر ينهار، وهكذا عند المساء ذهبنا الى النهاية الشمالية لسامراء وهناك وفي شفق عاصفة ترابية وقفنا في باحة جامع ابو دلف ورأينا اعمدته المكسورة فيما حولنا في الضوء المتلاشي. سرنا بالسيارة لعدة اميال باستقامة الطريق المدفون مع ارتفاعات بيوت مطمورة وحواف لا شكل لها مستقيمة على الجانبين كليهما وشوارع تمتد فيها بعض المرتفعات المتلاشية وكأني بنيويورك تتنمي لهذا الزمن.

كان هذا المكان في وقت ما مليئا بضوضاء الجنود الاتراك، وقد شهد اغتيال خليفة اثر خليفة، وكانت المؤامرات والعنف تمضي في شوارع سامراء بشكل دائم. والان وعلى حدود وحدتها فان الاشواك ذات الرؤوس الزرقاء تنفث مثل صلبان صغيرة بسأتزع ممتدة في صفوف لا نهائية لها على طول حافات مرتفعاتها وقرص الشمس الاحمر المدور الصغير مثل القمر فلما ترى شعاعه من خلال الغبار الكثيف. وفي خرائب الباحة الكبيرة رفرف غربان تحت وطأة الغبار ازاء السماء بلون التراب وذكر انه من بين هذه المادة اليابسة قد تبرز حياة ملونة بشيطنة في اي وقت.

لقد اضاف خلفاء سامراء في معرض مسيرة حياتهم السريعة وغير المحظوظة تعقيدا اخر الى التعقيدات الدينية للاسلام بأن تسببوا في اختفاء الامام الثاني عشر وبهذه الطريقة زودوا الشيعة برصيد قيم يتمثل بهذا القائد الخفي الذي ينتجد في أية لحظة، فالسجن الذي شوهد فيه اخر مرة قد اصبح ضريحا الان اضافة الى قبر الامامين العاشر والحادي عشر اللذين تعاقبا بسرعة حيث دفنا في قبرين لحرم مقدس تشكل

جدرانه القارعة وبوابات الاربع مركز المدينة. وهناك شارع السوق امام الضريح مع بعض المقاهي قد صفت على طول الجدران وفي احد الشوارع الفرعية الترابية وتحت بوابة مقوسة مصنوعة من الخشب المنقوش اعد مأوى لنا في بيت امير هندي من بيروبر يحفظ عادة لايواء الحجاج (الزوار) وكان الشيخ سعيد بعباءته وعمامته الخضراء في انتظارنا وقد اعد لنا اسرة في غرفة تطل على القواس مفتوحة في باحة ذات اعمدة خشبية منقوشة بمقدار ثلاثة اقدام فوق مستوى الباحة الصغيرة، كانت باحة داخلية لحريم البيت حين يدخلن من خلال البوابة الوحيدة للشقق الخارجية للرجال والخاص الان لان البيت غير مأهول. امام احد الاعمدة هناك اناء هائل يوسط ضعيف وقوهة نحاسية طويلة مليء بالماء قد جلب لنا وكان هناك رجل قوقازي عجوز بقي في سامراء بعد الحرب يمشي هنا وهناك بنعاله ويقوم على خدمتنا وكان يبدو نكد المزاج الى ان تحدثت معه بالفارسية حيث تفتحت اساريره وكشفت عن تجعدات لا حصر لها وبدأ بالحديث واخبرني عن حزنه لكونه قد ترك في ارض من دون ان يكون فيها اية تلة. ان بلده بعيد المنال حيث كان لديه اشقاء على قيد الحياة واصبح روسياً منذ الحرب وليس هناك وزير روسي في العراق وليس هناك من يوسعه ان يعطيه جواز سفر، لذا فان السنوات قد مرت وعاش هو في سامراء يحلم بالتلال والجداول، لقد ذهب مرة واحدة الى بغداد لغرض العلاج من مرض فزار القنصل الفارسي هناك ولكونه ادرك الصعوبات التي امامه ولكبر سنه ولكونه من دون نفوذ فقد ترك الامر وعاد الى حيث كان الناس عطوفين عليه، انه نفي ترك الامر وعاد الى حيث كان الناس عطوفين عليه، انه نفي بارادة الله. ان قصته قد اعطت لساعتنا مسحة حزن هي المألوفة مع السلام في الشرق والتي تأتي اما قبل او بعد نوع من الكارثة. انه هدوء اعمق واكثر قلقاً من هدوء الغرب الذي اعتدنا ان نأخذه على محمل الافتراض بشكل خفيف. اما في سامراء فقد تمتعنا به وفكرنا بالحريم.

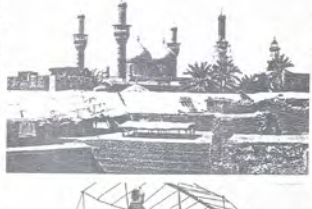

في المساء حيث ابتدأنا بصواني مدورة مليئة بالعشاء المحمول على رؤوس الناس جاء الشيخ سعيد ليأكل معنا فقدم لنا الرز واللحم والتوابل والمعجنات الشهية المليئة بالسكر وجاء ايضا سادة الضريح وكبار المدينة ثم استطعنا اللوم اخيرا بأمان تحفنا الحماية في باحتنا المفتوحة حيث ان مضيفنا ومن باب كرمه وضيافته حين رأى اننا نساء لوحدنا، فقد ترك بيته وخيم على مقربة يمكنه ان يوفر حماية لنا في شقة الرجال بين الحريم والشارع.

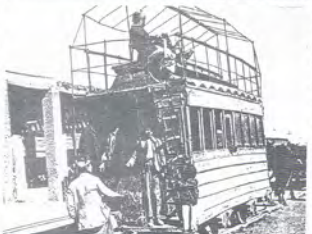

تكريت

ناهيك عن لقائنا مع الرعاة وقصتهم عن عبد السطيح فانني كنت راغبة منذ سنوات ان اصل الى تكريت وحين كنت أراها على الخارطة بمسافة اربعين ميلا شمالا كنت ارغب في زيارتها. ان "س" و"بيكي" على اية حال كان لهن اهتماما متنورا بالاثار اكثر مني شخصيا وكن غير راغبات في ان يؤخذن من سامراء الى حين ان اكتشفنا عدم وجود عبارة تصل الى الاثار في الضفة الغربية. ولم يكن هناك انذاك جسر على نهر دجلة بين بغداد والموصل لحين ترتفع مناسيب النهر تتقطع السواصلات نتيجة فيضان النهر على الاراضي المنخفضة وان شعبية الحكومة هذ تعتمد على ما اذا كانت سامراء ستحظى بجسر أم لا.

في اثناء ذلك كان علينا اما العودة الى بلد او المضي شمالا الى عبارة تكريت ومن هناك نسير مع النهر الى الانبار الغربية. وبعد ان قررنا ان نقوم بذلك بصورة طبيعية، كان رجل الشرطة الى جانبنا وبدأنا اليوم بسأم ح تصرف قديم حيث خرق احد دواليب سيارتنا خارج المدينة.

كان النهار طيبا وقد وقفت الملوية منتصبة في سماء مليئة كما يبدو ببياض الاجزاء المشرقة للضوء. كان هناك ابن احد الرعاة وهو يحصد الذرة في بقعة صغيرة هي جيب من الماء في عراء جاف لبقية المنظر. كان لديه منجل مدور مثل الهلال مع ثلاث حلقات علقت مطقطقة على المقبض كان الغرض منها كما قال هو ان تبعث بصوت جميل لدى الحاصد. راقبناه ونحن مفتونون بشيء غير ذي نفع، فالحصاد هنا لديهم نهايات اطراف معدنية مع مخالب طويلة لايديهم اليسرى كي يمسكوا بالعرانيص وكان ذلك كبيرا بما يكفي لاي شيء محترف. كان الصبي يتحرك ويقطع الحزم بشكل بطيء بينما كانت غنمه تتبعه وهي تاكل ما يلاقيها ولا تفكر بالتطفل والتجاوز الى حسين ان ظهرت سيارتنا وسطها ورجل الشرطة يلوح بمتعة في داخلها.

كان رجلا كبير الملامح بسعون خضر يدعى رشيد وهو كردي (على الرغم من ان من الافضل الان ان نسمي المرء عراقيا بدلا من كرديا)، وقد كان ولد متفتحا ناصحا بطبيعة طيبة. ان غموض الشرق هو اسطورة على ما اعتقد. والشيء الغامض الوحيد الذي اعرفه في العراق هو السفارة البريطانية التي تكرس نفسها لحضارة مادية في عزلة شرقية فائقة، اما الشخص العادي فهو شخص غير مفهوم بالنسبة للناس الذين لا يز عجون انفسهم بمعرفته.

على أية حال لقد جاء رشيد الى منتصف الطريق كي يلاقينا. ربما كان مخطط اليوم هو الذي تعجز بسعادة في داخله. وحين مررنا ببعض النساء البدويات المتلفعات بسواد يهفهف في الريح الى جانب بئر صحراوي قال: "هناك تشاهدونهم- الكلاب، ابناء الكلاب" وأدار رأسه نحونا بابتسامة لا تقاوم قسمات وجهه من الاذن للاذن. "لا احد يسبب لنا المشاكل كهؤلاء. هناك تراهم، مؤدبين بحيث تقول انهم ملوك- وانت لا تعرف من ذبحوا في خيامهم، وكيف يكتشف المرء ذلك؟ المرء يذهب ويسأل ابن فلان؟ فيخبرونك انه في خيمة معينة بعيدة عن النظر، تبعد مسافة ايام او انه مريض في الداخل مع النساء في حين يكونوا قد دفنوه- الكلاب" لقد كرر ذلك بدمدمة تحتاج لاحد جميعا اصدقاء البدو. "انهم يسببون لنا المشاكل اكثر من حيض من الاعداء وليس بوسعك ان تجمعهم، واحد هنا وواحد هناك، وبيوتهم بسعيدة عن نظر بعضهم وهي متحركة. وطوال اليوم ترانا في ترحال بسبيهم" لقد ابتسم كما لو كان الامر اكبر نكتة واضاف بصوت واطئ كما لو كان الامر سرا لا يصدق "ونساؤهم أسوأ من الرجال ان صح ذلك".

اذا جاء احد الى هذا المكان الهائل لا يمكنه ادراك اهمية المكان في ايام القلق واللا امن. وقد عدت اخر مدينة في العراق ترفع نفسها فوق سطح اليابسة في سلسلة من التلال العالية فوق النهر. لقد اكتشفت قوائنا ذلك ومشت من بغداد واحتلت وبنت المعسكرات على طول المرتفعات الشمالية. انها لا بد واستخرجت العديد من الاثار الاسلامية حيث كانت تنقب في طريقها من سامراء، والخنادق الملتوية اختارت نقطة فائدة لكل مرتفع قديم. والان هناك اتقلبل من المتير في غصون عشرين سنة في الارض غير المزروعة الفارغة تحت النسس مما يحتاون به بحدة اكثر من الكلمات في هذا المعد المعزول لهذه الحملة الطويلة والى جانب المعسكر البريطاني القديم مدينة تكريت الفروسطية قد انقسمت عن طريق وادي ضيق عميق وهي مدينة مسيحية في القرن العاشر وفيها دير ومحافظة عندما زارها ابن جبير عام ١١٤٨م.

بأبراج وجدران يدائرة تبلغ ثلاثة اميال. وما تزال بعض اجزاء الصخور التي كانت تدعم الحافة معلقة الى جوانبها وكان هناك جدار من الطابوق للهاية القديمة قرب حافة المياه وكهوف وانقاض بناء الى جانب التل. اما القمة فقد ثقبت بثقوب سطحية حيث كان السكان يحفرون بصورة غير مشروعة بحثا عن الاثار عند الليل. وهذا كل ما بقي من روعتهم المسيحية القديمة باستثناء اسطورة عبد السطيح وحقيقة ان السكان الحاليين المتأسلمين ما زالوا يحافظون على علاقة تقليدية مع المسيحيين في القوش وهي قرية شمال الموصل.

تذكرنا حديثنا مع الرعاة وذكرنا في الحال اسم البطل المحلي واذ ذاك انفرد شاب كتيب لا تبدو البطولة على محياه من حشد صغير واخبرنا ان اسمه ثويني وان عبد السطيح كان (احد اجداده)، وانهما كان شقيقان ليهما قلاع على دجلة والفرات. كان ذلك كل ما كان يعرفه وهي قصة غير واضحة اضيفت عليها الحياة حين كافح المواطنون البيزنطيون ضد قوى ضميهم الى الاسلام. او ربما تمثل بعض التكامل فيما بعد مع الاقليات المفقودة الان في معارك العراق غير المكتوبة في القرون الوسطى. تركنا هذه التأملات ونزلنا عند جنوب الوادي الى المدينة الحالية التي تعطي تلا واطنا وهي مليئة بالنوافذ الجميلة المنقوشة في ان

اشكال من الطابوق، وهي مليئة بالنساء الجميلات اللاتي ما زلن يحملن الجرار الفخارية على اكتافهن و من ينزلن الى شاطئ صغير على حافة دجلة. في الواقع ان ما كنا نبحث عنه هو سيارتنا وبعد ان وجدناها بحثنا عن رجل الشرطة الذي وجدناه في عتمة ظل المقهى في حافة المدينة اذ كان مشغولا بابتسامة نصف مدفونة في صحن حساء. لقد كان الوقت وقت غذاء فالحساء كان ذا رائحة زكية وملىء بالعدس وقطع من لحم الضأن في عصير لذيذ. اخذنا طاولة خارجية وانضممنا الى تكريت في وجبتها ودفعنا ستة بنسات لثلاثتنا ثم سافرنا بعد الظهر نازلين الى الطريق الغربي، قرب ضريح الاربعين، وهو ضريح صغير كئيب معزول، حتى التلة التي ما نزال فيها بقايا قصر العاشق عبر دجلة الى سامراء.

وقصر العاشق هذا محاط بخنادق نصف متداعية وحينما نزلنا الى محطة سكك حديد سامراء كي ننزل شرطيا هناك مررنا بمقبرة صغيرة مسيجة حيث دفن فيها الجنود البريطانيون علقت على ذلك وبمسحة من الكآبة نتيجة ليومين متعاقبين في الآثار قد ضغت على "الحديد من الموتى في هذه الارض"... قالت "س" التي لديها ولدين يكبران في هذا العالم غير المريح "وقتلوا لاجل ماذا؟ لاجل لا شيء".

اما رجل الشرطة الذي كان معنا فقد بقي صامتا باستثناء ما اثاره البدو الهائمين فيه من عرائز فاستدار بعاطفة وقال "يجب الا نقولي انهم قتلوا لاجل لا شيء، فلاجل ماذا نعيش نحن ان لم نعش للكلام الذي يقال عنا حين نموت؟ هؤلاء الرجال قتلوا بشرف، وبعد موتهم مدحهم جميع شعبهم" وبسط يديه امامه ورفع اخرى كمن يكتب عليه (نحن نعيش لما يكتب عن طريق افعالنا) انه رجل طيب. هنا لم تكن دعاية صحفية، لقد تحدث عن ايمانه بصورة طبيعية ووصلنا الى مفرق الطرق وتوقفنا بينما لمعلم هو بندقيته. قلت وكنت ما ازال افكر بالمقبرة والخنادق في الصحراء (ان شعبنا قد اعطاكم العراق كهدية واملا الا تنسوها بسرعة)... من المفروض الا تأخذ الشرطة مالا وانا لم استطع ان اجعلهم يفعلون ذلك. لقد دفع بهديتنا الصغيرة بعيدا وصافحنا وتركنا باكتافه الخاكية المربعة وحذائه القوية ولفافة السيقان المشدودة واختفى في البعيد، افكر فيه بين الحين والاخر، امثاله كما قال (يكتب حياته عن طريق افعاله).

النجف

جلسنا في دائرة صغيرة، سبعة اصدقاء ورئيس البلدية وانا، على كراسي الى جانب رصيف في الكوفة في النهاية الشمالية من المدينة. ان خط بيوتها الواحد ورصيفها وجذاديها ذات الكابينات الزرق كانت قد قصرت واصبحت غامضة عند الغسق. ان نهر الفرات الذي بالاطم في غرغرة بين الحين والاخر الصقلة كما لو انه كان ينضم الى حوار بنساب تحت القدامنا، عريض نتيجة الفيضان. وقد ظهر القمر الجديد فوقه يعلن نهاية شهر صفر وهو الشهر الثاني للحداد. وباشارة من هلاله يلون القش فان الجمرة قد اشرفت في عتمة بساتين النخيل في الضفة المقابلة وقد تلألأت صعودا ونزولا ولوحت بادرع غير مرئية ثم ازاحت ثلاثية او ثانيتين واحترقت عند الجدول. لقد ارتست عند نهاية شهر الحداد لتحمل احزان سنة وهي عادة قديمة من دون شك كقدم الارض التي كونها النهر لنفسه. اصدقاؤنا العراقيون المتحضرون الذين يرتدون الملابس الاوربية بسداراتهم على الجانب حين رأوا مثل هذه الحمرة نظروا الى الهلال وتمنوا الحظ السعيد لبعضهم من دون وعي منهم بعبادة القمر الذي يعادل ذهاب الرجل الانكليزي الى الكنيسة ليشتد ترنيمة

الشكر لله.

يبدو صحيحا ان العبادة الوثنية لا بد وانها باقية على الضفة الشرقية حيث ما يزال قبر حزقيال وبرج بابل شاهدين لعالم قد انطمر. لكنك حين تعبر جسر الزوارق الى الكوفة فأنت تخطو من بابل الى تاريخ الاسلام وتقع بينها وبين النجف مدمرة تحت الرمال عاصمة ملوك الحيرة العربية. ان مدينة الكوفة الحديثة المتصلة متصلة محاطة من ثلاثة جوانب بسلال رملية حيث تقبع مدينة المحتلين الميت مدفونة. والجامع الكبير – هو المكان الذي قتل فيه علي حينما كان يصلي – ما يزال قائما وهو فارغ الا في وقت الزيارة اضافة الى بقايا بيت علي تحت قبة زرقاء صغيرة. ويقولون ان القاعة قد دمرت من قبل الامويين بقيادة عبد الملك بن مروان. فبينما كان جالسا هناك في ديوانه سمع رجلا يدوي عجوزا يدعى (ستكون انت الخامس).

فقال عبد الملك (اي خامس؟)

فأجاب البدوي المعوز: (حسين اتيت اول مرة الى الكوفة رأيت رأس الحسين بين ايدي عبيد الله، فاذهبت، وحين اتيت مرة اخرى الى الكوفة رأيت رأس عبيدالله بين ايدي المختار بن يوسف الذي قتله. وحينما عدت مرة اخرى رأيت رأس المختار بين ايدي مصعب بن الزبير. فذهبت وها انا قد عدت واني ارى رأس مصعب بن الزبير بين يديك). وكان ان عادر عبد الملك الكوفة وأمر بتدمير القلعة التي هي الان اثر بعد عين قرب بيت علي.

ليس هناك اسطورة يمكن ان تصور حياة الكوفة وشخصيتها بشكل اكثر حيوية من ذلك. فهي مصر اكثر من كونها مدينة وهي رأس رمح للتقدم البدوي ضد الاراضي المستقرة ويبدو ان الموجات الصحراوية تتكسر على هذا الساحل على شكل زبد من دم. فها هنا على وقد انفى حياته ورمضاء في لياليه بين اهل المدينة المحتالين. وليس بالبعيد من هنا جوبه الحسين ابنه ورد على اعقابه مع جماعته التي تثير الشفقة حيث غادر ما ليهيم نحو اعالي الفرات نحو مكان صحراوي هو كربلاء. وهناك اقام معسكره سيناريو احاط به اعداؤه وحرموه من الماء، والتفاصيل شاخصة اليوم كما كانت في السابق اي قبل ١٢٥٧ عاما خلت. وليس بوسع احد ان يزور هذه المدن المقدسة ما لم يعرف شيئا عن القصة لان مأساتها بنيت على نفس اسسها. انها واحدة من القصص القليلة التي لا تستطيع ان اقرأها من دون ان ابكي وقد جاءت بشكل حتميتها وتطور المصير البطيء للمأساة الشبيهة بالمأساة الاغريقية وبنفس المشاعر الانسانية للناس الاحياء الذين احبوا بشكل انساني.

وقد قدم عرض بسالمقو لكنه رفض من قبل المجموعة الصغيرة من الاقارب والرفاق: وقد اعطيت لهم مهلة يوم واحد وجاءت الليلة الاخيرة وفي خيمة الحسين وحينما كان خادمه ينشد وهو يلمع سيفه جاءت اخته زينب لتودعه، انها نفس زينب التي ارسلت فيما بعد مع بقية النساء الى دمشق ونقلت في قبر كوفي جميل في الميدان تحيط بها قبور السنة والشيعة وستة عشر من رؤوس كربلاء وقد قطعت عن ابدانها. ثم وفي الصباح هبطت لحظة سكينة على الجيش المحاصر واطلق اول سهم ثم تروى بقية الحكاية طوال اليوم وهي تحصر القلب ألما. ان هذه المعركة التي حوربت حتى النهاية قد انتهت بسموت كل فرد من هذه الجماعة الصغيرة (وبقال ان كل مقاتل قد قطع رأسه بعد المعركة وعدت رؤوس سبعة عشر منهم) ويأتي المشهد الاخير عندما يوضع رأس الحسين امام عبيد الله في الكوفة وبعد ان يخزه بقضيبه يسمع صوت رجل عجوز وسط الحشد: (تعامل بأسلوب معه لاني والله قد رأيت تلك الشفاه قد قبلت عدة مرات من قبل شفاه محمد المقدسة).

لقد توقف التاريخ منذ ذلك اليوم في كربلاء والنجف: فيما تعيشان على ذكريات حقدهما. مشيت بينهما في احد الايام على طول شريط صحراوي في سيارة قديمة وحاولت ان انقذ حياة العديد من السحالي الكبيرة التي تتسكع هناك في اعداد كبيرة لكنها انتهت في الغالب تحت عجلات التقدم. وكان سائق تاكسي يحب ان يدهسها وعندما علقت بانها قبل كل شيء غير مؤذية قال: (كلا انها تزحف الى قطيع اغنام من الخلف وترضع من حلمات ضرعها من دون ان يلحظها احد).

واصلت سيري على اية حال وسألت عن اسم قبيلة معزولة بين اشجار بعيدة. قال السائق (انه ضريح الحر) والحر هو رئيس عربي ارسل كي يبعد الحسين عن الكوفة وكان سلوكه الودي قد اكسبه امتنان الشيعة. لقد نظر إلي سائق التاكسي بطريقة عطوفة حين اشرت الى القصة وقام بتحويلة مصالحة لينقذ حياة احدى السحالي، فقال (انت تعرفين تاريخنا). لقد كان ذلك امرا اكثر بهجة له من قصة الفرسان بالنسبة لسائقي التاكسي في لندن – ربما لان الارض والظروف لم تتغير ان بشكل كبير وليس هناك شيء اقل رتابة من سفك الدماء.

لقد حلت النجف محل الكوفة وعلى الرغم من ان السكان اصبحوا مستقرين في اثناء الوقت واتقنوا جانبا كبيرا من اللغة الفارسية وفقدوا الكثير من البداوة لكن النجف ما تزال مدينة صحراوية يحيط بها جدار وهي قائمة على تلة مثل

التاج تعلوه قبة الذهب البراقة. وما يزال بدو عنزة وشمر يأتون اليها من رمال صحراء النفود البعيدة وتأخذ السيارات والشاحنات الطريق الى مكة وهو يدعى بطريق زبيدة، انه طريق الحج.

وبينما تقف على قمة حائط المدينة فيوسعك ان ترى عثمتها وبياضها عبر خصرة مسطحة يوسع الجزيرة ويوسعك ان تأمل حين تشعر برغبتك بالحج على الاقدام بأن هناك الكثير عبر القرون ممن ساروا قبلك في غبار الطريق الصعب وتعرضوا الى ما تعرضوا له بين مراكز الدين والاراضي الشرقية المفتوحة.

لقد وجدت موضوعي التأمل متساويين في السحر. لكن مع الافق غير المرئي امامي والواضح لعين المؤمن فلم يكن بوسعي سوى الوقوف في وقار امام تكريس الانسان- مع استغراب عبر لمواضيع سياسيينا ممن يعتقدون ان بوسعهم ان يستحوذوا على قلوب الناس بطريقة مادية حسب، ربما انهم لم يقفوا فوق تل النجف ويروا طريق الحج. فهناك حمير صغيرة تحمل سلالا مليئة بالاغصان اليابسة على كلا جانبيها وهي تتسلق التل.

وقد انتصب قليل من الابنية في الفراغ مثل القلاع، حقا ليس هناك شيء يوحي بالحرب من بيوت النجف الخاصة بصناعة الجلود ودباغتها وحين نظرت الى اسفل من فوق التل نحو الجانب الاخر رأيت حائط النجف في الاسفل مباشرة وبمحاذاته اصطفت بيوت متراصة. قضيت اسبوعا في النجف، في ضيافة حديثة عندما نزلت بدار ضيافة القائمقام، والتي لي معها ومع مضيفي ذكرى طيبة وسعيدة. كانت هذه الدار قرب نادي الشباب الذي يضم الحديقة السبيحة الوحيدة في مدينة الصحراء والمليئة بأزهار النفلي وسوق طيبة الضفاف حيث يجلس الشباب التقدمي حولها ويتبادلون الحديث عند المساء. كان حسين الذي اعير لي كخادم يعتني بي وبالنادي في نفس الوقت وكان معتادا ان يجلسني في زاوية منعزلة من الحديقة وكانت النتيجة هي انه بعد يوم او يومين من النظر الي، جاء النادي بسرعته الى مكاني الصغير وحملوا كراسيهم معهم وجلسوا في شبه دائرة حولي حينما استيقظت من قيلولة ما بعد الظهر. لقد كانوا شبابا ممتعين وجميعهم متحضرين ومكرسين حياتهم للثقافة بطريقة موضوعية متحمسة ونموذجية لاهل النجف التي اتخذت الثقافة طريقا لها عبر العصور. تغيرت المواضيع لكن الروح باقية، كما ان ولاء الشباب قد اعطى الى مدرستهم الثانوية ومهمة بناء امة جديدة من خصم ارضهم القديمة. كانوا متألمين لاني شوهدت وأنا التقط صورا للتاج بائس يجلس الى توله البدوي في دكانه. علمت ان لا فائدة من ايضاحي لهم ان جمال المدرسة الثانوية هو جمال روحي لا يمت بصلة الى الصورة. اعتذرت لذوقي هذا وحاولت ان اخمنه بأن وصفت كيف ان اوربا التي تعود الان على اعقابها الى العصور المظلمة تفضل الحرف اليدوية على الماكنة.

فوضحت لهم ان نولا ميكانيكيا واحدا في النجف سيأخذ معيشة كل النساجين في المدينة. فالسياح القديم الذي ينظر اليه في ضوء حديث يقف في غربة التقدم. لقد اخذت الغدة المثقفة في النجف هذا الايضاح بشكل طيب لكنه لا يخلو من الشك، اذ من الصعب لو ان الأنماط الاوربية في الحضارة تتغير قبل ان يكون للشرق وقتا للمضي في ذلك.

جلست وقت الغداء والعشاء امام القائمقام في سرداب بارد خاص به حيث كانت هناك بئر باردة عبر فتحة الباب تعطي نوعا من البرودة. ومع تنويع كبير من اطباق الطعام الممتاز بيننا تناقشنا في المشاكل الحديثة وتقدم النجف والتي اجراها بعذبية ابوية. لقد كان رجلا فاتنا مع بساطة تشوب حياته التي ابتدأها في الجيش وفلسفة تولدت من سنين في الادارة وذلك

ابتدأها في الجيش وفلسفة تولدت من سنين في الادارة وذلك خليط تمخض عن نفس النمط الممتع لدى العراقي كما لدى الانكليزي. ولا بد ان الاول قد طور فلسفة اكثر من الاخر وعليه اصبح موقفه متماسكا اكثر نحو نفسه ونحو العالم. وليس هناك من شك في ان الحاكم الشرقي يعرف الكثير عن الطبيعة البشرية مما يجعله مقيدا لدى الحديث معه. فالتقاطي هذا قد حظي بذلك عن طريق سلك الشرطة وليس عن طريق ذلك البديل للمعرفة الانسانية، اي الاختبار الثقافي: انه ما يزال يفكر بحسب في حياته المفتوحة مع دوريات الصحراء والتي هي افضل من كرسي الوظيفة في السراي لقد قال بشكل غير متوقع (حين اكبر فاني احب ان اني واجلس في مكتبة في النجف وليس العباءة السوداء والعمامة البيضاء ولدرس الدين). لقد كان رجلا عمليا وذا شأن.

قال في احد الايام (عدا سآخذك لترى رئيسنا الديني الشيخ محمد عبد الحسين آل كاشف الغطاء الذي كان ابوه قبله ولخمسة اجيال قادتنا في هذه المدينة).

اخذني بعد استشارة قليلة حول الساعة المعينة لان زيارة امرأة لا بد ان تلوح منها رائحة طيش. وقد جاء الشيخ هادي الذي يستنسخ الكتب التي تتناولها النجف من يد الى يد على شكل مخطوطات ليراني اولا وكان قد بعث تقريرا لصالحي ثم اخذنا في طرق ومسالك ملتوية الى بيت غير ظاهر للعيان حيث يعيش الشيخ بين اهله تماما كما كان يعيش المسلمون الاوائل في بساطة ليس فيها ادعاء. لقد تسللنا عبر باب ضيقة نحو سلم ضيق ثم الى غرفة قليلة الاثاث فوق السطوح، حيث هناك بساطان من القطن وسجادة على الارض وخادم عجوز يقدم السكائر. وفي الحال رأينا الشيخ نفسه يحضر عبر الباب الضيق. وقد ارتدى عمامة بيضاء كبيرة وبدا وجيه النحيل ولحيته المصبوغة بالحناء مثل صور شخص فارسي مصغرة فيها شيء كبير من الهيبة. انه رجل عجوز لكن فمه كبير الحركة شيطاني وذكي وترمش عيناه بسرعة فالعمر لم يضعفه سوى القليل على روحيته، لقد مد لي اطراف اصابعه وجلس في ابهة دينية مميزة في كل العالم. وقد عرف في زمانه (غيرترود بيل) والمير (بيرسي كوكس) واعتبر كل من جاء بعدهما ادنى منهما واحيرني في معرض حديثه عما يحتل العالم الشرقي الان عن رأيه ببريطانيا والاسلام. قال: "ليس هناك الان سوى الصداقة بيننا وبين الانكليز باستثناء اخطاء بحق اخواننا العرب في فلسطين فلو استمرت هذه الاخيرة لما كان هناك سلام ولا حب بيننا من البحر الابيض المتوسط حتى الهند. واني على امل ان تخيرني حكومتك بذلك وتخبرهم ان ما يلعبون به الان هو ليس ارض فلسطين الصغيرة بل عالم الاسلام برمته الذي هو نصف امبراطوريتهم والذي ينوي للصداقة معهم وربما ينوي لحمايتهم".

وصادف ان ذلك تزامن مع وجهة نظري بشأن هذه المسألة الدقيقة وكنت مسرورة في ان اعد الشيخ عبد الحسين ان افعل ما بوسعي لاكرر واعيد كلماته. ثم تركته في الحال وعدت عبر السوق الذي كان مكتظا بالمارة ورفرفة اجنحة الحمام في مساحاته العليا المظللة التي اخترقها الضوء.

كان القائمقام يأخذني في جولة كل صباح او يمشي مع حسين كحماية كي ارى الاشياء الجديدة التي كان قد صنعها- الساحة المفتوحة والحديقة حيث تقبع البوابة القديمة وكذلك مدرستي البدائية اللتين ابتدئتا بشق الانفس- والفتحة في الجدران حيث سيظل شارع جديد ويحيي المسافر من كربلاء. لقد اقترحت طريقا مسقفا لتزيين الفتحة وكتابة اسمه والتاريخ بالاجر الملون عليها كي يبقى ذكرى تمجد اعماله واثر الجدار الكبير الذي يلف حول القباب الزرق للاضرحة وكي لا تفقد كل تلك الاثار.

وهنا على اليمين حين تنزل الى المدينة تجد ثلاثة بيوت صغيرة حيث تغسل الاجساد قبل دفنها. وهناك مكان مفتوح لزرع البطيخ يؤدي الى غرفتين داخليتين حيث يقبع لوح من الحجر الى جانب حوض وحنفية للماء الجاري. ويعيش رجل وشقيقته هناك، يتعاملون مع الموتى من الذكور والاناث مقابل روبية واحدة لكل ميت، وهذا رخيص اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار ان بعض الموتى يؤتى بهم من افغانستان؛ ويتم تحضير مثل هؤلاء في بيوتهم ولم يعد يجلبون في حالة من التحلل كما كان الحال قبل قليل من السنوات: بل انهم ما زالوا يؤتى بهم من كل انحاء العراق وان الماء الذي يغسلون فيه يتصرف كما يبدو بين أبار النجف لذا شعرت بالسعادة لفكرة اني اشرب الماء من صنبورة المقاتمقام الصحي الجديد.

كنت معتادة على التجول عند المساء خارج المدينة وتحت هذا الجدار الكبير عند الغسق وكنت احب الهلال وهو معلق فوق الدعامات التي لا توافذ فيها في السماء. ان النساء والاطفال في النجف يتنفسون الهواء ثم يجلسون فيما بين قبورهم. ان مدينتهم مدينة الموتى تمتد نحو الصحراء ولا حاجة للجدران هناك.

في داخل الجدران نقود بعض الطرقات الملتوية ونتقارب من بعضها عند بوابة الضريح. قضيت وقتا في احد الامسيات ارقب البوابة الكبيرة للضريح والضوء المتلاشي فوقها ب

FREYA STARK

BAGHDAD SKETCHES

JOHN MURRAY
ALBEMARLE STREET, LONDON, W.

والتذكر هاكأسية من اجمل الاماسي في حياتي. فقد كان هناك فضاء مفتوح صغير هناك تحيط به المحلات واصحابها تفصل الضريح عن السوق. واغلب هؤلاء الناس كانوا قد اصبحوا اصدقاء لي في اثناء ذلك الوقت. في اليوم الاول حينما التقطت صورة للبوابة علت صرخة صغيرة لانه كان بوسعي ان انظر الى داخل الباحة: فرأيت رجلا بدينا وهو المثير الرئيس للمشاكل قد هبت له حيث كان يبيع اواني الطبخ الالمنيوم واوضحت له ان ما كنت اريده هو صور للزوار وليس للضريح. (هل بوسعي ان التقطها جانبيا من دكانه؟).

بعدها انحنينا لبعضنا في مساء اليوم التالي عبر الفضاء الصغير المزدحم وجاء في الحال ليسألني ان كانت النجف قد بعثت المتعة في نفسي. لقد كان للشرطة غرفة صغيرة هناك فيها شبابيك كثيرة فوق مستوى الرصيف. لقد وضعوني هناك والشبابيك مفتوحة بحيث لا اكون مباشرة في الشارع. وقد جلس خمسة رجال كبار في السن بلحاهم المصبوغة بالحناء على مقعد طويل في الاسفل وهم يدخنون النارجيلة فيما بينهم. كانوا يديرون رؤوسهم بين الحين والاخر نحوي ويبتسمون بالتدريج. لقد احتشد الناس في صف مستمر في داخل وخارج ظلمة البوابة. ان ظل قوسها كان اقل ظلمة في ضوء المساء والمصابيح الكهربائية التي تحيط بالشباك المصنوع من الطابوق بدت براقة مما جعل الجدار وأجزاء ومذهباته المزهرة ذات بريق مثل حديقة از هار.

في الباحة الداخلية وامام خلفية ذهبية كان يتم الاعداد للصلاة، اذ يمكن سماع صوت المؤذن يعلو على لغط المارة.

وجاء حاملو الماء بالمياه فوق ظهور حميرهم وافرغوا الجلود الثقيلة التي حملوها مع حبل للموازنة بينما امسكوا الزاوية الخارجية ثم خطوا نحو الضريح. وجلس صرافو النقود في اكشاكهم يعدون محصول اليوم. اما المحلات التي تبيع التبغ والمسابح والحرير من دمشق وزيت الاتيلين من اوربا فقد كانت ساكنة نوعا ما، لكن العمل كان على اوجه في المقهى. فهناك شاب يرتدي مئزرا احمر قد وقف على قدم مطقطقا بكل قدح صغير مرتين على قم اناء القهوة حينما كان يصبها، انها مسألة اسلوب وقد وضعت كنبة وكرسيين من محل الاثاث في الخارج للاستخدام العام قبل بيعهما. وجلس رجل عجوز قربها على الارض يبيع القلنسوات وجعل المارة ينقسمون حوله. لقد كان المارة يأتون متدفقين عبر العتبة العالية- رجال بعباءات وبعضهم ارتدى الكوفية من دون عناية وبعضهم بالعمامة المستقيمة وبعضهم ارتدى العمامة السوداء وهم سدنة الضريح بينما البيضاء لطلبة الدين والخضراء لاحفاد النبي. ولا يمكن رؤية الكوفية المنية الحمراء هنا. واحيانا قد تدفع السدارة التي يرتديها رجال الشرطة الى الوراء حينما تدخل بحيث ان نجمة العراق لا تكون فوقنا حين نمر من امام الامام. اما الفرس الذين وضعوا صورة الشاه في بطانة قبعاتهم فعليهم ان يخلعوها ان ارادوا ان يكونوا محترمين.

جاء كفن مفتوح غير عميق وقد لف الجسد بالاحمر والاصفر وكان قد غسل لتوه وحمل لاجل الزيارة قبل الدفن. ان مهمة الحياة لم تنته بالنسبة للموتى المتدينين. فهم يؤخذون اولا لزيارة الضريحين في كربلاء ويحملون فوق ناكبي عبر

الصحراء المليئة بالسحالي بينما يركب اقاربهم في المقعد الخلفي، ثم يغسلون ويطاف بهم حول ضريح النجف ثم يدفنون اخيرا حسب امكاناتهم قريبا او بعيدا من الجدران المقدسة. ومباشرة خلف الكفن هناك البائع الذي يرتدي العباءة المستهلكة. لقد حل الغسق. كل شيء كان مظلما الا الباب المضاء. لقد كان الناس يصلون في الداخل ووقف صف منهم خلف امام عجوز انحنى ثم مد نفسه بمعاملته البيضاء الهائلة امام خلقية الذهب. لقد كان هناك شعور بالسلام- تماما مثل كاتدرائية ولو مسحة دينية اقل منها وربما بسبب كثرة المارة من البشر في الخارج.

حينما عدت، اضيء السوق فظهرت مجاميع من الاواني الملونة للمتاجر. مشيت وشعرت بحبي لكل العالم لكن صدمتني رؤية صانع احذية عقد ساقيه في دكانه محدقا بي بعيون الكراهية المركزة. المرء يصادف مثل هذه المفاجئات في النجف ومن المرعب ان تكون مكروها من اجل لا شيء فاي تقييم ذاتي هو حين يحب الناس اولئك الذين يفكرون ويشعرون مثلهم- انه امتداد لهم في الحقيقة! حتى المسيحية لم تعالجنا- طالما ان ليس بوسع الانسان ان يشعر بالحق من دون ان يفترض ان البقية على خطأ. اني احب الناس مختلفين واتفق مع الانسان الذي قال ان اسوأ ما في الجنس البشري هو التماثل. فصانع الاحذية العجوز كان يسدد مشاعره ولو كان قادرا على ان ينظر الى ما وراءه مليمي الانكليزي وينظر الى قلبي لرأى ان ما يملأه في تلك اللحظة كان الاحترام الودي لضريحه الذي ينتصب على ارواح الرجال كما تنتصب القبة الذهبية للنجف فوق الصحراء.

كنت افكر بالخان حيث يعيش الافغان الكبار في السن بعد ان قطعوا مسافة طويلة عبر اسيا ويدفعون روبية واحدة في الشهر لايجار غرفة يعيشون فيها الى جوار مكانهم المقدس وهم مستعدون لان يدفنوا في ترابه المقدس. بينما انتشر كليمهم(١٣) في الصلاة في الباحة الخارجية. وفي باب كل حجرة صغيرة وتحت صف الاعمدة الخشبية هناك جرة من الفخار في اطار خشبي تنقط الماء من قاعدتها المدببة في اناء(١٤). وهذا هو كل اثاثهم. وهم يحصلون على قوتهم بنسج الصوف الاسود للخيام والمكدس على الارض بين الكليمين. وهم يلتقون مرة في الاسبوع (في صلاة الذكر) ومن شدة فقرهم يعطون كل واحد منهم فلسا (وهو خمس الشلن) ويعتون به الى الضريح فمن نحن لننتقد الايمان الذي يعطي الكثير؟

ليكن الله دليلهم من مصكر لاخر، وليكن الله ظلهم من بئر لاخرى.

فالله يهب تحت نجوم الصحارى وهم يسمعون جرس جمل النبي...

وانت، يا ابن الاسلام، قد تكون من سيطيع في نهاية الامر من سيمشي في جنتك مساء اثر مساء ويحتى رأسه ويدعوك صديقا....

الهوامش

١-اناء كبير كان يتم تبريد الماء به قديما اي يستعمل مكان مبردات الماء في الوقت الحاضر.

٢-شجرة السدر.

٣- من اسماء: نوع من الحلويات العراقية تشتهر بها مدينة الموصل.

٤-الدارة: لباس للرأس كان يمتاز به العراقيون.

٥-المسحاة: اداة يدوية تستعمل في حفر الارض وفي اصلاح البناء.

٦-الربون هو رداء يرتديه البغدادي تحت عباءته.

٧-اسم آلة حجرية تستعمل لطحن الحنطة.

٨- المقصود به هنا هو طعام السحور في رمضان.

٩-لقد وردت كلمة (البلم) بدلا من الزورق في الانكليزية على حالها.

١٠-هذا ما يسميه اهل العراق بالصحن.

١١-يدعى هذا الرجل المسؤول عن جميع الاحذية باللغة المحلية (أكشوان) وربما هي كلمة من اصل فارسي.

١٢-التطواف هو المشي حول الضريح والدعاء وطلب البركة.

١٣-الكليم هو من يقوم بالصلاة ويؤمهم.

١٤- ما يدعى باللغة المحلية بـ(الحب) بكسر الحاء.